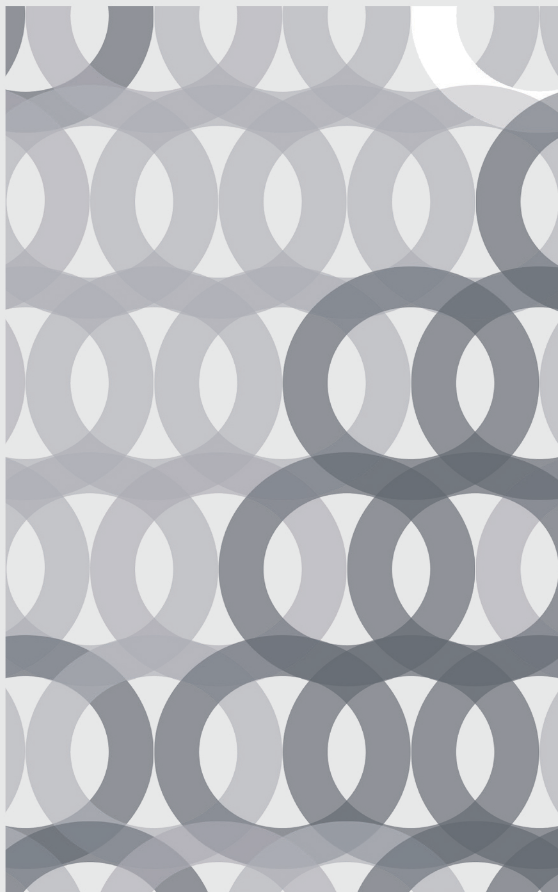
عالم المعرفة
503
فبراير
2023



نهاية النسيان

التنشئة بين وسائط التواصل الاجتماعي

تأليف: كيت إيكورن
ترجمة: عبدالنور خراقي

المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923–1990) ود. فؤاد زكريا (1927–2010)

نهاية النسيان

التنشئة بين وسائط التواصل الاجتماعي

تأليف: كيت إيكورن
ترجمة: عبدالنور خراقي



فبراير 2023
503

عالم المعرفة

سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28613 - الصفاة

الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

هاتف: 22431704 (965)

www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ والتصحيح اللغوي

وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 731 - 4

العنوان الأصلي للكتاب

The End of Forgetting

Growing Up with Social Media

By

Kate Eichhorn

Harvard University Press

Published by arrangement with Harvard University Press.

طُبع من هذا الكتاب اثنان وثلاثون ألفا ومائتان وخمسون نسخة

رجب 1444 هـ ـ فبراير 2023

المحتويات

تصدير المترجم

«إن فكرة كتاب «نهاية النسيان» مساهمة فريدة، تعيد إلى الواجهة النقاش الحاد بشأن الأدوار الطلائعية التي تضطلع بها وسائط التواصل الاجتماعي في فهم ذواتنا وتطورها من فترة الطفولة إلى مرحلة البلوغ»

إن عصر النسيان ولَّى، ولم يعد له مكان يؤويه بيننا، ما يُحمِّلنا مسؤولية أخلاقية وقانونية جسيمة؛ ويُحتم علينا أخذ الحيطة والحذر قبل نشر أي صورة أو نص على أي منصة من منصات وسائط التواصل الاجتماعي، من «فيسبوك»، و«إنستغرام»، و«تويتر»، وغيرها. مازلتُ أذكر «منشور» إليزابيث لاوتن Elizabeth Lauten، الموظفة الجمهورية في قسم الاتصال التي فقدت منصبها ثمنا لمنشور متهور غير مسؤول على «فيسبوك» في حق بنتي الرئيس الأمريكي الأسبق باراك أوباما Barak Obama، ساشا Sasha وماليا Malia[1]، لارتدائهما ملابس لا تنسجم مع وضعيتهما الاجتماعية والسياسية الجديدتين خلال عيد الشكر المنظم في البيت الأبيض. خلَّف منشورها ردود فعل مستهجنة،

أرغمتها على الاعتذار، ولكن «سبق السيف العذل» كما يقول المثل العربي الشهير، إذ «متى خرجت الكلمة من الفم، فلا سبيل إلى استردادها... إنها تخرج كالطلقة ولا تعود» كما قال مصطفى محمود(*)، وهو ما يُذكِّرنا أيضا بحوار الوليد والحسين رضي الله عنه الذي نبَّه إلى خطورة الكلمة في الوجود الإنساني؛ فقدم حياته قربانا من أجل شرف الكلمة والذود عنها.

ضمن هذا السياق، تطلعنا كيت إيكورن في هذا الكتاب الماتع على تأثير الوسائط الرقمية في حياة الأطفال؛ لقد كان الآباء يتحكمون في كيفية تمثيل الأطفال في الصور ومقاطع الفيديو قبل حلول عصر الوسائط الرقمية، ولكن عندما أصبح الوصول إلى الحواسيب ومنصات الوسائط الاجتماعية المتعددة أمرا ميسرا للغاية، أضحى الأطفال بإمكانهم تمثيل أنفسهم بأنفسهم بعيدا عن وصاية البالغين، لينخرطوا في مغامرة البحث عن الذات أو ما أسماه إريك إريكسون «المُوراتُوريُوم» Moratorium[2]؛ فهل هذه الحرية التي أصبح الأطفال يتمتعون بها حاليا، نعمة أم نقمة عليهم؟ صحيح أن الأطفال بدأوا ينعتقون من أغلال البالغين، ويفرضون ذواتهم بالتدريج من خلال تمثيلها عبر مختلف الوسائط الاجتماعية، لكنهم قد يتعرضون، في الوقت ذاته، إلى خطر الوقوع في المحظور، فينشرون مواد في غاية الحساسية عن حياتهم الخاصة أو حياة غيرهم، تصعب إزالتها من التداول الرقمي، وستتحول إلى أحداث مؤلمة لا تُنسى؛ فينشب صراع مرير بين الذاكرة والنسيان - العدوين اللدودين، وهو الأمر الذي فصَّل القول فيه الفيلسوف بول ريكور » Paul Ricoeu في كتابه «الذاكرة، والتاريخ، والنسيان».

وستعمِّق الشركات الكبرى التي تملك منصات الوسائط الاجتماعية المؤثرة هذا الجرح عندما تمتنع عن حذف بيانات الأطفال والمراهقين من منصاتها، تحقيقا لأكبر قدر من الربح والسلطة. لقد أصبحت هذه الشركات تقتات بأعراض أفراد المجتمع من دون رحمة! قد تقبل – استثناء – بسحب بعض المنشورات مقابل مبالغ مالية، ولكن ذلك لا يكفي.

(*) طبيب وكاتب مصري (1921 - 2009) له العديد من المؤلفات والكتب العلمية والدينية والفلسفية والاجتماعية والسياسية، إضافة إلى عدد من المسرحيات وقصص الرحلات.

إن فكرة كتاب «نهاية النسيان» مساهمة فريدة، تعيد إلى الواجهة النقاش الحاد بشأن الأدوار الطلائعية التي تضطلع بها وسائط التواصل الاجتماعي في فهم ذواتنا وتطورها من فترة الطفولة إلى مرحلة البلوغ. إن المؤلفة تسأل القائمين على الشأن النفسي البيداغوجي (علم التربية)؛ فتدعوهم إلى مد يد المساعدة للأطفال ليتمكنوا من نسيان ماضيهم البائس، والتخلص من آلامه، والاستمتاع بالعيش في الحاضر واستشراف غد أفضل.

ولما كان الكتاب مهما، حرصت على تحقيق أكبر قدر من الإفادة، من خلال إضافة بعض الهوامش التوضيحية، وتقديم محتوى الكتاب مفصَّلا، غير مختصر كما ورد في الكتاب.

مقدمة

التنشئة في زمن نهاية النسيان

في القرن العشرين، إذا ما تعرض المرء للإحراج الشديد من جراء عرض صورة فوتوغرافية تعود إلى مرحلة الطفولة أو فترة المراهقة، فقد كان هناك حل بسيط: وهو استلال الصورة سرًا من إطارها أو من ألبوم صور العائلة وإتلافها. وفي ثوانٍ، يمكن محو حدث أو مرحلة محرجة على نحوٍ خاص من حياة المرء على نحوٍ فعال. وربما يكون غياب الصورة قد لوحظ في نهاية المطاف، ولكن في العصر التناظري (أي غير الرقمي)، ما لم يكن أقارب الفرد حريصين بما يكفي على الحفاظ على صورته الفوتوغرافية السالبة، يمكن للمرء التأكد، إلى حد ما، من أنه بمجرد تمزيق هذه الصورة أو حرقها، يختفي هذا الأثر المحرج من الماضي. وفي غياب الصورة، يمكن للمرء أيضًا افتراض أن أي ذكريات باقية من الحدث أو مرحلة من الحياة، ستُمحى قريبًا من ذهن الفرد، وربما الأهم من ذلك، امّحاء أثرها من أذهان الآخرين. وحين نستعيد أحداث الماضي،

«إن الأزمة الحقيقية للعصر الرقمي ليست اختفاء الطفولة، بل شبح طفولة لا يمكن نسيانها أبدًا»

سندرك أنه قد تكون هذه القابلية للتأثر بالمشاعر الإنسانية - بالعار، والغضب اللذين أديا بنا ذات مرة إلى تدمير الصور بأيدينا المجردة - سمة من السمات العظيمة التي لا تحظى بالتقدير الكافي من قبل وسائل الإعلام التناظرية analogue media. بعد مضي عدة عقود من العيش في عصر الوسائط الرقمية، أضحت قدرة المرء على ترك طفولته وسنوات من المراهقة خلفه، واحتمالية نسيان الآخرين طبيعةَ شخصه أيام كان صغير السن، معرضتين الآن للخطر. بينما لايزال الشباب يحاولون – ربما سرًا – حذف صورهم من الهواتف المحمولة، والأجهزة اللوحية، وأجهزة الكمبيوتر التي بحوزة والديهم وأجدادهم، فإن هذا الفعل لا يضاهي، بأي حال من الأحوال، تمزيق صورة من ألبوم وقذفها في الموقد. يكاد يكون مستحيلا معرفة ما إذا كانت الصورة قد اختفت إلى الأبد. هل الصورة المحرجة موجودة على جهاز واحد فقط؟ هل سبق أن تم تقاسم هذه الصورة مع عشرات الأصدقاء والأقارب؟ هل رأى أي شخص لطفا أو متعة بما يكفي في نشرها على فيسبوك؟ أين تم تداول الصورة؟ هل يمكن استرجاع النسخ جميعها وإتلافها؟ بل الأسوأ من ذلك، هل تم عمل إشارة تاغ tagged[1] على مواقع التواصل الاجتماعي بشأن هذه الصورة؟ إن فعل التخريب الذي كان يستغرق يوما ما مجرد ثوانٍ، هو الآن مهمة كبيرة وشبه مستحيلة.

بطبيعة الحال، ليس من الإنصاف لوم هذه الظاهرة الحالية على الاكتناز الرقمي للآباء والأجداد الشغوفين؛ ففي النهاية، ينتج الأطفال والمراهقون الآن صورهم الخاصة بهم بمعدل غير مسبوق. من الواضح أن أغلبية الشباب الذين لديهم إمكانية الوصول إلى الهواتف المحمولة، يلتقطون صور سيلفي selfies، وينشرونها يوميا، على الرغم من صعوبة الحصول على أرقام دقيقة[2]. ثمة أيضًا أدلة متزايدة على أن صور السيلفي، ليست فقط هوس المراهقين ومن هم قبل هذه الفترة بقليل. بل إن الأطفال الصغار يستمتعون أيضًا بالتقاط صور السيلفي، وقد تمكنوا – سواء عن قصد أو عن غير قصد – من طرح صورهم للتداول[3]. ولكن ما تكلفة هذا التوثيق المفرط؟ وعلى نحوٍ أكثر تحديدًا، ما الذي يعنيه بلوغ سن الرشد في عصر يحافَظ فيه بسهولة على صور تعود إلى فترتي الطفولة والمراهقة، وعلى الشبكات الاجتماعية نفسها التي تشكلت خلال هذه الفترة العابرة من الحياة، وقد

تستمر بعناد عن قصد أو عن غير قصد أو رغبة؟ هل يمكن للمرء أن يتجاوز شبابه إذا ظل حاضرًا معه على نحوٍ دائم؟ هذه هي الأسئلة الملحَّة التي يروم هذا الكتاب الكشف عنها.

من «اختفاء الطفولة» إلى الطفولة الأبدية

إن الأزمة التي نواجهها بخصوص استمرار صور الطفولة كانت تمثل أقل درجة من المخاوف عندما بدأت التقنيات الرقمية في إعادة تشكيل حياتنا اليومية في أوائل التسعينيات. وكان علماء الإعلام، وعلماء الاجتماع، والباحثون التربويون، والمهولون من جميع الأطياف السياسية، أكثر ميلًا إلى التحسر على فقدان الطفولة أكثر من القلق بشأن احتمالية وجود الطفولة الدائمة. في العام 1994، عندما كان الجمهور العام قد بدأ من فوره في فهم واستيعاب مفردات جديدة تمامًا تضمنت مفاهيم مثل «الإنترنت»، و«الفضاء السيبراني» cyberspace و«شبكة الإنترنت العالمية» World Wide Web ، كنت قد بدأت دراساتي العليا في مجال التربية. وكان الباحثون التربويون في ذلك الوقت مهووسين بقياس تأثير الإنترنت في الشباب ومراقبته ومناقشته، وعلى نحوٍ أوسع، تأثير الإنترنت في مستقبل التعليم. وإن مشرفتي، التي ركز عملها السابق أساسا على تاريخ محو الأمية، شجعتني على التخلص من كتبي، وعلى تعلم البرمجة أو عملية التشفير، والبدء في البحث عن ألعاب الفيديو التعليمية وتطويرها من أجل «قاعة درس رقمية» في المستقبل. كان تفاؤلها غير عادي. كان عدد قليل من التربويين والباحثين في علوم التربية يستكشفون بجدية، الفوائد المحتملة للإنترنت، وغيرها من التقنيات الرقمية الناشئة، ولكن تميزت هذه الفترة بذعر أخلاقي واسع النطاق بشأن تقنيات الوسائط الجديدة. ونتيجة لذلك، سعى كثيرٌ من الأبحاث السابقة بشأن الشباب والإنترنت إما إلى دعم المخاوف وإما إلى دحضها بشأن ما كان على وشك الانجلاء عبر الإنترنت.

كانت بعض المخاوف المبكرة بشأن تأثير الإنترنت في الأطفال والمراهقين مشروعة، ذلك لأن شبكة الإنترنت جعلت من المواد الإباحية، بما في ذلك المواد الإباحية العنيفة، في متناولهم على نحوٍ أكبر، ومكَّنت المتحرشين بالأطفال من الوصول بسهولة أكبر إليهم. من أجل هذا، ترى وكالات إنفاذ القانون والمشرِّعين

يواصلون تصديهم لهذه المشاكل الخطيرة. وعلى رغم ذلك، فإن عديدا من المخاوف التي كانت في السابق بشأن الإنترنت كانت متجذرة فقط في الخوف ذاته، وقد انتشرت من خلال الافتراضات القديمة بشأن الشباب وقدرتهم على اتخاذ قرارات عقلانية.

ويخشى عديد من البالغين أنه إذا تُرك الأطفال من دون رقيب يتصفحون الإنترنت بمفردهم، فسيفقدون براءتهم سريعا من دون رجعة. وقد حركت هذه المخاوف بسبب التقارير التي أُعِدَّت بشأن ما يُزعم أنه كامن على الإنترنت. في وقت كان فيه عديدٌ من البالغين قد شرعوا من فورهم في الإقدام على مغامرة عبر الإنترنت، كانت شبكة الإنترنت تُصوَّر على نحوٍ شائع في وسائل الإعلام الشعبية باعتبارها مكانا يمكن لأي شخص التجول فيه بسهولة داخل مجال متعدد المستخدمين مشحون جنسيًا (MUD)، والتسكع مع قراصنة الحاسوب، وتعلم حيل تجارتهم الإجرامية، أو صقل مهاراتهم كإرهابي أو صانع قنابل. في واقع الأمر، كان يتطلب فعل أيٍ من هذه الأشياء – عادة – أكثر من دخول واحد إلى شبكة الإنترنت. لكن لم يسهم ذلك إلا بالنزر اليسير في الحد من تشكيل تصورات سلبية عن الإنترنت باعتبارها مكانا مظلما وخطيرا تنتظر فيه التهديدات، على اختلاف أنواعها، عند بوابة الترحيب.

بينما كانت وسائل الإعلام مهووسة بكيفية حماية الأطفال من المواد الإباحية المنتشرة على شبكة الإنترنت، ومن المنحرفين، والقراصنة، والمعتدين، كان الباحثون في العلوم التطبيقية والاجتماعية منشغلين بإنتاج رزم من الدراسات القائمة على الأدلة بشأن الارتباط المفترض بين استخدام الإنترنت ومختلف الاضطرابات البدنية والاجتماعية. وقد حذَّر بعض الباحثين من أن قضاء كثير من الوقت على شبكة الإنترنت من شأنه أن يؤدي إلى مستويات أعلى من السمنة، وحالات الإجهاد المتكرر، والتهاب الأوتار، وإصابات الظهر لدى الشباب. كما حذر آخرون من أن الإنترنت تسبب مشاكل عقلية، تتراوح من العزلة الاجتماعية والاكتئاب إلى انخفاض القدرة على التمييز بين الحياة الواقعية والمواقف أو الحالات القائمة على المحاكاة[4].

كان الموضوع المشترك الذي قامت عليه المقالات الشعبية والأكاديمية بشأن الإنترنت في التسعينيات، يدور حول فكرة أن هذه التكنولوجيا الجديدة أحدثت تحولًا في القوة وفي مسألة الوصول إلى المعرفة. وحذر مقال أعيد طبعه على نطاق

واسع في العام 1993 بعنوان «تحذير: أطفال منهمكون في اللعب على الطريق السريع للمعلومات» من أن «ترك الأطفال أمام الحاسوب من دون رقيب، شبيه إلى حد ما بالسماح لهم بالتسكع في المركز التجاري خلال فترة ما بعد الظهيرة. ولكن عندما يذهب الآباء بأبنائهم أو بناتهم إلى مركز تسوق حقيقي، فإنهم يضعون القواعد الأساسية لذلك على نحوٍ عام: لا تتحدث إلى الغرباء، ولا تذهب إلى متاجر مخصصة للبالغين[5]، وإليك مبلغ المال الذي ستكون قادرا على إنفاقه. يوجد في المركز التجاري الإلكتروني قلة قليلة من الآباء الذين يضعون القواعد أو من لديهم – أصلا – فكرة عن كيفية وضعها». إذا كان الآباء مهتمين وجاهلين بأمور الأشياء في الوقت نفسه، فإن الأمر له علاقة إلى حد كبير بحقيقة أنه مع مرور العقد، ارتفع عدد الشباب ليتجاوز عدد البالغين في عديد من المناطق التي كانت لاتزال توصف في ذلك الوقت بالفضاء السيبراني. لقد أصبحت الأسئلة الأبوية العملية صعبة على نحوٍ متزايد للإجابة، بل إن طرح الأسئلة التالية في بعض الحالات، أصبح أمرا صعبا من أساسه: من يملك سلطة فرض حظر تجوال في عالم الإنترنت هذا؟ وأين كانت حدود هذا الفضاء الجديد سريع الاتساع؟ وما أنواع العلاقات التي أقامها الأطفال هناك؟ وهل كان الشباب الذين التقوا عبر الإنترنت مجرد زملاء بالمراسلة، تبادلوا الرسائل على المباشر، أم أنهم كانوا أصدقاء حقيقيين؟ هل بإمكان طفل ما أن يقوم بلقاءات جنسية، أم أنه فقط يتبادل رسائل بشأن الجنس عبر شبكة الإنترنت؟ مبدئيا، ليس ثمة شيء جديد بشأن قلق الآباء بشأن مكان وجود أطفالهم وطبيعة الأشياء التي يقومون بها، غير أن هذه المخاوف تفاقمت بسبب التحديات المفاهيمية الجديدة. كان يتعين على الآباء آنذاك اتخاذ قرارات مستنيرة بشأن رفاهية أطفالهم في عالمٍ فهمه قليل منهم أو جربوه – أصلا – على نحوٍ مباشر.

ضمن هذا السياق، من السهل فهم سبب التذرع ببراءة الأطفال المعرضة للخطر باعتباره أساسا منطقيا لزيادة تنظيم شبكة الإنترنت ومراقبتها؛ ففي الولايات المتحدة، حظي قانون آداب الاتصالات Communications Decency Act، الذي وقَّعه الرئيس كلينتون في العام 1996، بدعم كبير؛ غذَّته مخاوف واسعة النطاق من فكرة أنه من دون زيادة تنظيم الاتصالات، فسيكون محكوما على أطفال البلد بالانحراف والتمكين الرقمي المنحرف. إن القانون الذي نجح

الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية American Civil Liberties Union في الطعن به في وقت لاحق في المحكمة العليا باعتباره انتهاكًا للتعديل الأول لدستور الولايات المتحدة، أجاز للحكومة الأمريكية «تشجيع تطوير التقنيات التي تزيد من سيطرة المستخدم إلى أقصى حد على المعلومات التي يتلقاها الأفراد والعائلات، والمدارس، الذين يستخدمون الإنترنت وخدمات حاسوب تفاعلية أخرى» و«إزالة عوامل مثبطة أمام تطوير واستخدام تقنيات حظر المعلومات وتصفيتها التي تمكِّن الآباء من تقييد وصول أطفالهم إلى المواد غير المرغوب فيها أو غير الملائمة عبر الإنترنت»[6]. وإن أولئك الذين صاغوا القانون كما يبدو، قدروا أن تصور الأطفال للواقع يتأثر دائمًا بتفاعلاتهم مع تقنيات الوسائط (وهو تقدير يستند إلى دراسات سابقة لتفاعلات الشباب مع الأفلام والتلفزيون)، من أجل ذلك، كانت مِرْشحات (فلترة) المعلومات ضرورية.

وعلى رغم ذلك، فقد أدرك عدد قليل من النقاد على الأقل، أن الخطابات التي تتمحور حول براءة الأطفال كانت تُستخدم بغرض تعزيز الرقابة على الإنترنت من دون مراعاة لحاجات الأطفال الفعلية. وفي مقال نُشر في العام 1997 في مجلة «معلم راديكالي» Radical Teacher، لاحظ المُنظِّر الإعلامي هنري جينكينز Henry Jenkins بذكاء أن الذعر الأخلاقي لدى الآباء، والمعلمين، والسياسيين من الإنترنت ليس أمرا جديدًا؛ فبدءا بالهجمات على الكتب المصورة comic books في أوائل القرن العشرين إلى حالات الذعر اللاحقة بشأن الآثار السلبية التي تخلفها السينما، والراديو، والتلفزيون، جرى بالفعل التدرب جيداً على الحجة القائلة إن وسائل الإعلام الجديدة تشكل تهديدًا للشباب. ولم تكن المشكلة الحقيقية وفق جينكينز في وسائل الإعلام الجديدة، بل كانت في أسطورة براءة الطفولة نفسها:

> إن أسطورة «براءة الطفولة» «تفرغ» الأطفال من أي أفكار خاصة بهم، وتجردهم من إرادتهم السياسية ومفكرتهم الاجتماعية، فيصبحون بذلك أداة تلبي حاجات الكبار ورغباتهم وسياستهم... يعد الطفل «البريء» تجريدًا خطيراً على نحوٍ متزايد عندما يبدأ في استبدال أفكارنا بتفكير الأطفال الحقيقي أو عندما يساعد في تسويغ جهود تقييد عقول الأطفال الحقيقيين وتنظيم كياناتهم. كما أن أسطورة «براءة الطفولة»،

> التي ترى الأطفال فقط ضحايا محتملين في عالم الكبار أو مستفيدين من الحماية الأبوية، تعارض طرق التدريس التي تسمح بتمكين الأطفال باعتبارهم فاعلين ناشطين في العملية التعليمية. لا يمكننا تعليم الأطفال كيفية الانخراط في التفكير النقدي من خلال حرمانهم من الوصول إلى المعلومات التي تشكل أمامهم تحديا، أو الصور الاستفزازية[7].

لم يكن جينكينز Jenkins الشخص الوحيد الذي أصر على أن التحدي الحقيقي كان يكمن في تخويل الأطفال والمراهقين أمر استخدام الإنترنت بطرق منتجة ومبتكرة لبناء مجال عام جديد وحيوي. إننا ندرك الآن أن عددًا كبيرًا من التربويين، وأولياء الأمور اختاروا السماح للأطفال بالولوج الواسع إلى الإنترنت في التسعينيات وأوائل القرن الحادي والعشرين؛ فانتهى الأمر بهؤلاء الشباب إلى بناء عديد من وسائط التواصل الاجتماعي، ومنصات الاقتصاد التشاركي التي من شأنها تغيير حياة الناس من جميع الفئات العمرية بحلول نهاية العقد الأول من الألفية الجديدة. (في العام 1996، كان مؤسس شبكة التواصل الاجتماعي «فيسبوك» مارك زوكربيرغ، يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة، ومؤسس منصة «إير بي إن بي» ريان تشيسكي Brian Chesky كان يبلغ من العمر خمسة عشر عاما). ولكن جابه جينكينز في ذلك الوقت، صعوبة في تسويق فكرته - بحيث كانت حجته منتشرة في ثقافة كان كثير من الناس قد استسلموا فيها فعليا للاهتمام بمستقبل الطفولة. ومن بين المشككين الأكثر شهرة، نذكر منظِّرا إعلاميا آخر، اسمه نيل بوستمان Neil Postman.

وقد رأى بوستمان في كتابه في العام 1982 «اختفاء الطفولة» The Disappearance of Childhood أن وسائل إعلام جديدة كانت تعمل على تقويض التمييز بين سن الطفولة وسن البلوغ. وزعم أن «الكشف السريع والمتكافئ لوسائل الإعلام الكهربائية للمحتوى الكلي لعالم البالغين، سينتج عنه عديد من النتائج العميقة». وتضمنت هذه النتائج التقليص من سلطة البالغين وفضول الأطفال[8]. على الرغم من عدم استثمار بوستمان بالضرورة في فكرة براءة الطفولة، فقد استثمر على رغم ذلك في فكرة الطفولة ومثاليتها، التي كان يظن أنها كانت أصلا في حالة تدهور. وزعم أن لهذا علاقة كبيرة بحقيقة أن الطفولة - التي هي اختراع تاريخي حديث نسبيًّا - هي تَشَكُّلٌ كان دائمًا متشابكا بشدة مع تاريخ تقنيات وسائل الإعلام.

بينما كان هناك دائمًا شباب بالطبع، افترض عدد من العلماء أن مفهوم الطفولة في المقابل هو اختراع حديث مبكر. ولم يكتفِ بوستمان بتبني هذا الموقف، بل جادل أيضًا في كون هذا المفهوم يمثل إحدى النتائج بعيدة المدى لأول تقنية طابعة المسماة بالحرف المتحرك movable type، والتي ظهرت أول مرة في مدينة ماينز Mainz بألمانيا في أواخر القرن الخامس عشر[9]. ومع انتشار ثقافة الطباعة، حُدَّ من منزلة الخطاب الشفوي، مما خلق تسلسلا هرميا بين أولئك الذين يستطيعون القراءة ومن لا يستطيعون ذلك. ووُضع صغار السن على نحوٍ متزايد خارج عالم الكبار لمحو الأمية. خلال هذه الفترة، حدث شيء آخر: بدأ الشروع في إنتاج أنواع مختلفة من الأعمال المطبوعة لفائدة أنواع مختلفة من القراء. وفي القرن السادس عشر، لم تكن هناك كتب مماثلة أو كتب على أساس مرحلة عمرية؛ بل كان يُنتظر من القراء الجدد قراءة الكتب الأساسية نفسها، سواء بلغوا من العمر خمسا أو خمسا وثلاثين سنة[10]. وعلى رغم ذلك، تغير العالم بحلول أواخر القرن الثامن عشر، بحيث كان بإمكان الأطفال الوصول إلى كتب الأطفال، وكان بإمكان الكبار الوصول إلى كتب البالغين، كما اعتُبر الأطفال آنذاك فئة منفصلة تتطلب الحماية من شرور عالم الكبار. لكن عهد الطفولة (وهي الفترة الممتدة تقريبًا من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، وفقًا لبوستمان) لم يعمر طويلًا. ذلك بأن وصول التلفزيون إلى حياة الناس في منتصف القرن العشرين، كان بمنزلة بداية النهاية لفترة الطفولة على الرغم من أن تقنيات الاتصالات ووسائط البث السابقة، من التلغراف إلى السينما، كانت تضعف من قوة هذه الفترة. ويستنتج بوستمان أن «التلفاز أدى إلى تآكل الخط الفاصل بين الطفولة والبلوغ من خلال ثلاثة طرق، يتعلق جميعها بسهولة الوصول غير المتمايزة إليه: أولا، لأنه لا يتطلب أي تعليمات لاستيعاب شكله. ثانيًا، لأنه لا يفرض مطالب معقدة على العقل أو السلوك؛ وثالثًا، لأنه لا يميز بين جمهوره»[11].

إن كتاب بوستمان يحتوي على ملاحظة جانبية غريبة، ولكنها نادرًا ما تُناقش بشأن التأثير المحتمل للحوسبة على الرغم من تركيزه على التلفزيون. في الفصل الأخير، يطرح بوستمان ستة أسئلة ويجيب عنها، بما يلي: «هل ثمة أي تقنيات اتصال تملك القدرة على الحفاظ على الحاجة إلى الطفولة؟» فيرد على سؤاله بكون

«التكنولوجيا الوحيدة التي لديها هذه القدرة هي الحاسوب». لبرمجة حاسوب ما – وفق شرحه – يجب على المرء في جوهره أن يتعلم اللغة، وهي مهارة يجب اكتسابها في مرحلة الطفولة: «إذا كان ضروريا معرفة الجميع كيفية عمل أجهزة الحاسوب، فكيف يفرضون نظرتهم الخاصة للعالم، وكيف يغيرون تعريفنا للحكم - أي، إذا اعتبر أنه من الضروري أن يكون هناك إلمام عالمي بالحاسوب - فمن الممكن تصور أن تعليم الشباب سيزداد أهمية، وقد تستمر ثقافة الشباب التي تختلف عن ثقافة الكبار». لكن يمكن للأمور أن تسير على نحو مختلف؛ فإذا وجدت المصالح الاقتصادية والسياسية ضالتها على نحوٍ أفضل في «السماح للجزء الأكبر من السكان شبه المتعلمين بالترفيه عن أنفسهم بسحر ألعاب الحاسوب المرئية – بحيث يستخدمون أجهزة الحاسوب وتستخدمهم في الوقت نفسه من دون فهم... فآنذاك يمكن للطفولة – من دون وجود عائق يذكر – أن تواصل رحلتها نحو عالم النسيان»[12].

في ذلك الوقت، كانت حجة بوستمان بلا شك منطقية للغاية. عندما كان يكتب كتابه – ومن المرجح أن ذلك تم بخط اليد أو على آلة كاتبة – لم تخطر ببال معظم الناس فكرة أن جيلًا قادما من الأطفال، وحتى من الأطفال الصغار جدا، سيكون له القدرة على استخدام أجهزة الحاسوب بسهولة. في العام 1982، عندما وصل كتاب «اختفاء الطفولة» إلى الأسواق، لم تُطلق بعد واجهة المستخدم الرسومية graphical user interface التي من شأنها تحويل الحوسبة التي لم تُطلق بعد على نطاق واسع. ما لم يكن لدى «بوستمان» إمكانية الوصول إلى حاسوب «زيروكس ستار» Xerox Star الذي كان نادرًا، والذي بِيع بالتجزئة بنحو 16 ألف دولار لكل وحدة في العام 1981، فمن المفترض عدم تفكيره في أجهزة الحاسوب في شكلها الحالي على الإطلاق. ومن المرجح أن يكون قد تخيل أن استخدام أجهزة الحاسوب التي تتعدى اللعب، سيظل من اختصاص أولئك الذين يتمتعون بخبرة كبيرة (خبرة شبيهة بإتقان لغة جديدة). ولم تكن هذه هي الطريقة التي اندلعت بها الثورة الرقمية بطبيعة الحال.

وبالنظر إلى تطور نظام معلومات «زيروكس ستار» إلى واجهة حوسبة المألوفة حاليا، وإلى شاشات اللمس للهواتف المحمولة والأجهزة اللوحية في وقت لاحق،

لم تعد القدرة على برمجة أجهزة الحاسوب مرتبطة بالقدرة على استخدام هذه الأجهزة من أجل مجموعة واسعة من الأغراض تتجاوز الألعاب. وبفضل واجهة المستخدم الرسومي لشركة «زيروكس» – التي اشتهرت بها شركة «آبل» في نهاية المطاف – يمكن للمرء بحلول العقد الأول من القرن الحادي والعشرين الاضطلاع بعديد من الأشياء باستخدام أجهزة الحاسوب من دون معرفة طريقة عملها الداخلية أو الاهتمام بها. أما الشيء الآخر الذي لم يتوقعه بوستمان فيتجلى في تفوق الشباب من حيث مهارتهم في بناء أجهزة الحاسوب وبرمجتها على معظم كبار السن من البالغين. كما أن مسألة الطلاقة في هذه اللغة الجديدة، على عكس معظم اللغات الأخرى، لم تتعمق أو تتوسع مع تقدم العمر. وبحلول أواخر التسعينيات، لم يكن هناك شك في عدم سيطرة البالغين على الثورة الرقمية؛ إذ إن الأدوات والمنصات الرقمية الأكثر انتشارًا في عصرنا، من «غوغل» إلى «فيسبوك» إلى «إير بي إن بي»، كانت من اختراع أشخاص في العشرينيات من عمرهم. فماذا كانت النتيجة؟ في النهاية، لم تُستعَد الطفولة كما كانت موجودة من قبل (أي في عصر ما قبل التلفزيون)، ولكن خوف بوستمان من اختفاء الطفولة ثبت خطؤه أيضًا، بل حدث – بدلا من ذلك – شيء غير متوقع تماما.

وفي أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، رأى بوستمان وآخرون كثر أن الخط الفاصل بين ثقافة الأطفال، وثقافة البالغين أخذ يتلاشى بسرعة، ويرجع ذلك أساسًا إلى التأثير غير المتمايز للتلفزيون؛ فكان الحل إذن، استعادة التوازن – من أجل إعادة ترسيم الحدود بين هذه الثقافات التي كانت منفصلة في السابق. كما رأى بوستمان أنه إذا أمكننا العودة إلى عصر ما قبل التلفزيون حيث كان يعيش الأطفال عالمًا خاصا بهم، في حين يعيش الكبار عالما آخر مختلفا، فقد يكون للطفولة بعض الأمل في البقاء على قيد الحياة حتى القرن الحادي والعشرين وما بعده. أما اليوم، فقد ظهر من جديد التمييز بين فترتي الطفولة والبلوغ، ولكن ليس على النحو الذي تخيله بوستمان.

إن ثقافة الأطفال والمراهقين في عصرنا الرقمي الحالي، حية وبصحة جيدة؛ إذ يقضي معظم الشباب ساعات على الإنترنت كل يوم مكتشفين عوالم لا يهتم بها معظم البالغين، ولا يملكون إمكانية الولوج إليها إلا على نحوٍ محدود. ولكن هذا

هو مكمن الاختلاف الحقيقي. ففي عالم المطبوعات، حدد الكبار ما يمكن للأطفال الوصول إليه، وما لا يمكنهم الوصول إليه – وفي النهاية، كان الكبار يشغّلون أجهزة الطابعة، ويشترون الكتب، ويتحكمون في المكتبات. أما الآن، فالأطفال أحرار في تشكيل عوالمهم الخاصة بهم، والأهم من ذلك، في ملء هذه العوالم بالمحتوى الذي يروق لهم. ويركز المحتوى على نحوٍ أساسي – وهذا ربما ليس مستغربا – على الذات (بحيث تشكل صورة «سيلفي» رمزا لهذا الاتجاه). إذن، بمعنى ما، لقد نجت الطفولة، لكن طبيعتها – أي ماهيتها، وكيفية تجربتها وتمثيلها – أصبحت على نحوٍ متزايد في أيدي الشباب أنفسهم. إذا كان تشكيل الطفولة وتسجيلها في السابق أمراً واقعا من قبل البالغين، وإعادة إسقاطها على الأطفال (على سبيل المثال، في ألبوم صور عائلي منظم بعناية أو سلسلة من مقاطع الفيديو المنزلية)، فلم يعد هذا هو الحال تماما. اليوم، يصنع الشباب صورًا وينشرونها من دون تدخل الكبار.

وهذا يعيدنا إلى المشكلة التي يسعى هذا الكتاب إلى معالجتها؛ ففي تباين حاد مع تنبؤات بوستمان، لم تختف الطفولة أبدًا، بل أصبحت بدلاً من ذلك، موجودة في كل مكان بطريقة جديدة وغير متوقعة. اليوم، أصبحت فترتا الطفولة والمراهقة أكثر وضوحًا وانتشارًا من أي وقت مضى. وكما أوضحت عبر هذا الكتاب، أن ذلك يرجع إلى حد كبير إلى حقيقة أنه لأول مرة في التاريخ، يتمكن الأطفال والمراهقون على نطاق واسع من الوصول إلى التقنيات اللازمة لتمثيل حياتهم، وتداول هذه التمثيلات، وتشكيل شبكات فيما بينهم، بإشراف محدود من قبل الكبار، أو من دون إشرافهم البتة في أغلب الأحيان. لم يعد الخطر المحتمل يتمثل في اختفاء الطفولة، بل بالأحرى أصبح يتمثل في إمكانية وجود طفولة دائمة لا تمحى من الذاكرة. إن الأزمة الحقيقية للعصر الرقمي ليست اختفاء الطفولة، بل شبح طفولة لا يمكن نسيانها أبدًا.

الطفولة المنسية والطفولة الأبدية

ليس كل شخص يخشى عالمًا يصعب فيه – إن لم يكن ذلك مستحيلا – التخلص من الماضي. الواقع أن كثيرا من الناس يستمتعون بذكريات طفولتهم، ويعبرون عن ندمهم على فشلهم في حفظ مزيد من الذكريات، والصور الخاصة بالسنوات الأولى من عمرهم. وعلى رغم ذلك يتساءل آخرون عن سبب عدم احتفاظ آبائهم بهذه

الآثار الثمينة نيابة عنهم. هناك أيضًا تجارب محددة تشير إلى التوق إلى الماضي، الناتجة عن فترات الصراع أو التهجير القسري أو الهجرة الجماعية. على سبيل المثال، نشأ عديد من الأشخاص الذين وُلدوا في أوروبا في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي في غياب ملحوظ للصور العائلية التي أخذت في الماضي، وأُجبر أصحابها على التخلي عنها في أثناء فرارهم من منازلهم أو تهجيرهم قسرًا[13]. الآن، ربما للمرة الأولى، من الممكن أن نتساءل عن إمكانية وجود مثل هذا الغياب على الإطلاق في المستقبل. وقبل مزيد من التفكير فيما قد يعنيه العيش في عالم تظل فيه طفولته ومراهقته حاضرة إلى الأبد – عالم تكمن فيه البصمات الرقمية المبكرة للفرد جنبًا إلى جنب الذات البالغة – من المفيد أن نفحص بإيجاز كيف كانت الأشياء المختلفة على نحوٍ ملحوظ قبل بضعة عقود فقط، عندما كان آباء أطفال اليوم وأجدادهم يبلغون سن الرشد.

كثير ممن عاشوا في منتصف القرن العشرين، يفتقرون إلى وثائق لمرحلة طفولتهم؛ إذ أُجبرت بعض العائلات قسرا على ترك صور وتذكارات أخرى نتيجة الصراعات السياسية، ولكن في حالات أخرى، ربما لم تكن هناك صور فوتوغرافية يمكن حزمها على الإطلاق. وعلى رغم ذلك لم يكن من غير المعتاد أن يكبر المرء من دون أي آثار وثائقية تعود إلى الماضي، أو على الأقل الحد الأدنى منها على الرغم من أن التصوير الفوتوغرافي كان متاحًا على نطاق واسع بالنسبة إلى عائلة الطبقة المتوسطة[14].

لم تؤدِّ صدمة الحرب العالمية الثانية إلى فجوات في التوثيق فقط، بل أدت أيضًا إلى فجوات انتقائية في الذاكرة. إن عديدا من أبناء جيلي – ممن ولدوا في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي – نشأوا مع آبائهم وأجدادهم الذين اختاروا إخفاء الماضي إلى حد كبير أو كليًّا؛ بل اختارت بعض العائلات اليهودية تربية أطفالها من دون إبلاغهم أنهم كانوا من الناجين من الهولوكوست (الإبادة بالإحراق) أو حتى أنهم يهود أصلا[15]. كما اختارت نسبة أكبر من العائلات الألمانية تربية أطفالها من دون ذكر ما كانوا يضطلعون به في أثناء الحرب أو ذكر مكان وجودهم آنذاك. واستمرت العائلات في إمكانية إخفاء مثل هذه الأسرار من الخمسينيات إلى الثمانينيات، بل كان من الممكن وجود عائلة يهودية ما، تتظاهر

بعدم انتمائها إلى اليهودية على الإطلاق. وعلى نحو مماثل، فإن عضوًا سابقًا أو مؤيدًا للغستابو Gestapo لا يمكنه ببساطة التحدث عن ماضيه (أو عن ماضيها)[16]. وفي كلتا الحالتين، يمكن للمرء أن يكون متأكدًا على نحو معقول من عدم ظهور أي صورة تجريم بغتةً، تكشف سر عائلته أو كذبه. وخلال معظم القرن العشرين، كان اكتشاف تاريخ الأسرة يتطلب مهارات بحثية متقدمة، بالإضافة إلى تسخير المال والوقت اللازمين لزيارة المحفوظات، والبحث في رزم من الوثائق، مكتوبة في الأغلب بلغات غير مألوفة، وكل ذلك كان يتم من دون مساعدة قواعد البيانات ومحركات البحث الحالية.

أناقش هنا تجارب جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية على نحو أساسي باعتبارها نقطة تباين. في نهاية المطاف، من اللافت للنظر أن عديدا من أجداد أطفال ومراهقي الآونة الراهنة – أي الأشخاص الذين وُلِدوا في أثناء الحرب وبعدها مباشرة، في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي – نشأوا في ظل غياب وثائق الطفولة. كما أدى غياب التوثيق هذا إلى عمل نظري بشأن موضوعات الذاكرة والنسيان في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين[17]. ويبدو من المرجح أن ظهور دراسات الذاكرة في العلوم الاجتماعية والإنسانية، لم يكن ليظهر لولا هذا الغياب وما يرتبط به من قمع للذكريات التي شكلت فترة ما بعد الحرب[18]. كما أنه ليس من قبيل المصادفة أن يكون علماء يهود – الذين كانوا يتصارعون مع صدمة الهولوكوست – من حفَّز على الاهتمام بمجال دراسات الذاكرة إلى حد كبير، إلى جانب علماء ألمان، وإن كان ذلك بدرجة أقل، ممن كانوا يتصارعون بدورهم مع صمت أسرهم ودولهم تجاه الفظائع التي ارتكبوها[19].

إن القاسم المشترك المذهل الذي يجمع المنظِّرين في المجال الثقافي المهتمين بالذاكرة هو استناد عملهم في الأغلب إلى الفرضية نفسها، بغض النظر عن الجهة التي قد يوجدون فيها من التاريخ: النسيان عدو الذاكرة. إن الذاكرة مقدسة، والنسيان أمر يجب التغلب عليه؛ والذاكرة تُبَجل، والنسيان يُحتقر. ويتناول الفيلسوف بول ريكور Paul Ricoeur في كتابه «الذاكرة، والتاريخ، والنسيان» Memory, History, Forgetting العلاقة بين الذاكرة والنسيان بإسهاب. ويلاحظ أنه «على نحو عام، يُعَدُّ النسيان هجومًا على موثوقية الذاكرة. وليس هجوما فقط،

ويشكل ضعفا، وثغرة. في هذا الصدد، تُعرِّف الذاكرة نفسها، على الأقل في البداية، باعتبارها صراعا ضد النسيان»[20].

يعد النسيان دواء مرحبا به بالنسبة إلى جيل تواق ببساطة للاستمرار في العيش، على الرغم من كل ما لقيه من استخفاف في التنظير الثقافي المعاصر[21]. وقد يزعم المرء أنه خلال هذه الفترة، أصبح المستقبل يقوم على النسيان على الرغم من الشجب الذي امتد إليه، إلى درجة اعتناق بعض الناس النسيان باعتباره شكلا من أشكال البقاء على قيد الحياة. ويلاحظ المحلل النفسي دوري لوب Dori Laub، والناقدة الأدبية شوشانا فيلمان Shoshana Felman في كتابهما «الشهادة» Testimony - الذي يبحث في الشهادة والذاكرة بعد الهولوكوست – أنه بالنسبة إلى أولئك الذين اختاروا عدم النسيان، أي أولئك الذين اختاروا تذكر ذكرياتهم ووضعها في كلمات، غالبًا ما كلفهم ذلك الحياة نفسها: «قد يصبح فعل الإفصاح عن الشيء في حد ذاته مسببًا لصدمة شديدة... إذ إن الشعراء والكتاب الذين كسروا صمتهم دفعوا في الحقيقة حياتهم ثمنا لقاء هذا الفعل» (سيلان Celan، وأميري Améry، وبوروفسكي Borowski، وليفي Levi، وبيتلهايم Bettleheim)[22]. وعلى رغم ذلك، يدرك «لوب» و«فيلمان» أيضًا الطرق المعقدة التي أثر بها النسيان في كتَّاب آخرين من هذا الجيل، بمن في ذلك المتعاونون النازيون السابقون مثل الفيلسوف بول دي مان Paul de Man. وعقب وفاة دي مان في العام 1983، اكتشف أحد الباحثين أكثر من مائتي مقالة غير معروفة سابقًا، كتبها لأجل المتعاونين مع نازيين في بلجيكا خلال الحرب العالمية الثانية، مما وضع أعمال «دي مان» موضع شك وتساؤل. ولكن إذا اختار دي مان أن ينسى هذه الفترة من حياته وعمله، فقد لا يكون نسيان «دي مان» هو الرد الوحيد أو الصحيح: «عندما نعتبر دي مان باعتدادنا بأنفسنا «نازيا» فإننا نضعه في قائمتين «الأخيار» و«الأشرار»، فنحن ندعي بالنسيان تمامًا كيف كانت طبيعة المحرقة، بينما نتهمه في الوقت نفسه، على وجه التحديد، بالنسيان، معتبرين ذلك أمرا غير أخلاقي في حالته... في الواقع، كلنا متورطون – وبأكثر من طريقة – في نسيان دي مان وفي صمته[23].

لا يدور الخلاف حول ما إذا كان ينبغي للمرء أن يغفر أو يتغاضى عن ماضي دي مان الخفي، بل إن الخلاف يدور بالأحرى حول المخاطر المرتبطة بالإفراط في

تبسيط التسلسل الهرمي للنسيان أو إنشائه. بتعبير بسيط، في القرن العشرين، كان النسيان بمنزلة عكاز لمجموعة متنوعة من الناس على نحو ملحوظ، ممن كانوا يأملون في التقدم نحو المستقبل على نحو تدريجي. إن تمكُّن عديد من الناجين من نسيان ذكرياتهم، ومن ثم عدم نقلها إلى أطفالهم البتة، يعني أنه بطريقة مختلة ما، قدر للحياة أن تستمر (وإن لم يكن ذلك من دون عواقب)؛ فبالنسبة إلى الألمان والمتعاونين من دول أخرى، مثل دي مان، فإن النسيان سهَّل أيضًا نوعًا من العودة إلى الحياة الطبيعية. وعلى رغم ذلك، فإن وجهة نظري هنا لا تسعى إلى اعتبار النسيان – أي قمع ذكريات المحرقة – شيئا يُحتفى به، بل تسعى إلى تأكيد أن المحو الجماعي للماضي كان ممكنًا على الإطلاق.

ولتقدير مدى روعة قدرة عديد من أجداد اليوم المرتبطين رقميًّا مع الأطفال والشباب، على النمو وحتى على التقدم في السن من دون مواجهة الماضي بالكامل، فكر في مدى اختلاف المستقبل بالنسبة إلى طفل اليوم واللاجئين والمهاجرين المراهقين. أبرز الاختلافات القائمة بين الهجرات الجماعية السابقة والهجرة الحالية للأشخاص من سورية وأجزاء من شمال أفريقيا يتجلى في مدى توثيق الأزمة – هذا التوثيق الذي لا يقتصر فقط على الصحافيين. في صيفي 2015 و2016، أُبلغ المراسلون الصحافيون عن وصول مهاجرين إلى شواطئ اليونان وإيطاليا من دون أي شيء سوى الملابس على ظهورهم وأكياس صغيرة مقاومة للماء تحتوي على أوراق هوية وهواتف محمولة. وحاليا يُقر بضرورة هذه الهواتف؛ ففي العام 2015، وزعت المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين 33 ألف شريحة هاتفية على اللاجئين السوريين في الأردن، بالإضافة إلى 85704 فوانيس شمسية لاستخدامها في شحن الهواتف المحمولة[24]. وقد سبق أن كان لهذه الهواتف تأثير عميق في تجارب مهاجري القرن الحادي والعشرين، ممن يسجلون الآن رحلاتهم والمآسي التي تحدث لهم على طول الطريق؛ إذ لم تُخزن الصور التي تنقل معاناتهم على هواتفهم فقط، بل تُتداول أيضًا على الفيسبوك، ومنصات التواصل الاجتماعي الأخرى. هناك صور سيلفي لمهاجرين يصلون إلى مواقع جديدة – تُنشر لإبلاغ عائلاتهم وأصدقائهم بأنهم وصلوا إلى وجهةٍ ما بأمان – ولكن هناك أيضًا صورا فوتوغرافية للفظائع التي ووجهت في أثناء العبور. عندما يصبح المهاجرون الشباب اليوم بالغين، فهل

سيكون لديهم – مثلهم في ذلك مثل جيل سابق من المهاجرين – خيار النسيان، أم أن رحلاتهم ستبقى بجانبهم عقودًا في شكل آثار رقمية، يتداولونها فقط بين رفاقهم المسافرين؟ من ناحية، قد يعني هذا الإثبات أنهم لن يضطروا أبدًا إلى الانخراط في العمل الصعب لاستعادة الذكريات المكبوتة. ومن ناحية أخرى، قد يتساءل المرء: كيف سيتسنى لهم النسيان بالقدر الذي يكفي ويمكنهم من المضي قدمًا والعيش حياة كاملة ومنتجة في الوقت الحاضر؟

في أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها، انقطع اتصال عديد من أفراد الأسرة بعضهم ببعض – أحيانًا على مدار سنوات، وأحيانًا مدى الحياة. على النقيض من ذلك، غالبًا ما يرتبط مهاجرو الفترة الراهنة ارتباطًا وثيقًا بالعائلة والأصدقاء الذين تركوهم وراءهم، ومن ثم، فلدى مغادرتهم، يأخذون شبكات علاقاتهم معهم، ولكن قد يكون لهذا جانب سلبي؛ فأولئك الذين تُركوا وراءهم، قد يغمرون المهاجرين برسائل تطلب منهم المساعدة، أو تذكيرهم بالوضع المزري في المنزل[25]. علاوة على ذلك، كيف يمكن للمرء أن يمضي قدمًا في المستقبل حاملا أرشيفًا من الصور الماضية، وبعض الأحداث المروعة؟ كيف ستكون حياة مهاجري اليوم ومستقبلهم نتيجة لذلك؟ هنا يكمن خطر الوضع الغامض على نحو متزايد للصور الفوتوغرافية التي تصور الصراع والهجرة. تشير الباحثة الإعلامية باربي زيليزر Barbie Zelizer إلى أن معظم صور الهولوكوست، التي توصف أحيانًا بأنها «صور فظيعة»، كانت صورًا وثائقية، عادةً وثائق عامة وليست خاصة. إن المهاجرين اليوم – الذين لايزالون موضوع الصور الوثائقية – ينتجون أيضًا صورهم الخاصة بهم، التي غالبًا ما تسجل لحظات خاصة للغاية، ولكن في نهاية المطاف ينتهي بها الحال إلى التداول في منصات وسائل التواصل الاجتماعي حيث يُعاد تشكيلها بدورها بصفتها وثائق عامة، وجزءا من الذكريات الجماعية[26].

تشير بعض الأدلة إلى أن إبقاء المرء على ماضيه حاضرا – بغض النظر عن حجم الألم الذي يحمله – قد يسهل في الواقع انتقال المرء إلى المستقبل. إن التعرض للعلاج عن طريق السرد، الذي يُستخدم على نحو متكرر في العمل مع المهاجرين الشباب وطالبي اللجوء، يعالج أعراض اضطراب ما بعد الصدمة من خلال تشجيع الضحايا على سرد الأحداث الرئيسة في حياتهم. إن فرضية هذا العلاج تقتضي أنه من

خلال تحديد الأحداث، بما في ذلك الأحداث الصادمة، على جدول زمني ووصفها، سيتمكن المرضى من منع صدمات الماضي من غمر المستقبل[27]. من السهل تخيل كيف يمكن للأرشيف الرقمي أن يساعد في هذه المهمة. وعلى رغم ذلك، قد لا تخدم المحفوظات الشخصية للصور الغرض نفسه إذا استمرت في الظهور مرة أخرى من دون دعوة، وخارج السياق. ماذا لو نشأ الأطفال الناجون من الهولوكوست مع إمكانية الوصول المستمر إلى الصور والأفلام عن الفظائع التي شهدوا عليها وهم أطفال؟ هل كان هذا سيخفف من معاناتهم؟ هل كان مثل هذا الوصول الفوري والمستمر إلى الماضي سيمكنهم من مواجهة مع صدمة طفولتهم بسهولة أكبر؟ في مقال نُشر في العام 1914، ميز سيغموند فرويد Sigmund Freud بين التذكر والتكرار، وزعم أن تكرار شيء ما، لا يعني تذكره، بل يعني بالأحرى تمثيل ما نُسي: إن «الإكراه على التكرار... يحل محل الدافع للتذكر»[28]. إن دور المحلل يكمن في كسر حلقة التكرار اللانهائية – لنقل المريض من التكرار إلى التذكر. والسؤال القائم الآن يتمثل فيما إذا كنا سنختبر الوصول إلى الماضي عبر المحفوظات الرقمية الشخصية للصور ومقاطع الفيديو باعتباره شكلا من أشكال التكرار أم شكلا من أشكال التذكُّر. وهل ستتوقف أشكال التكرار المحددة التي تنشأ في غياب التذكر عن إصابة الأجيال القادمة؟ أم ستظهر مجموعة جديدة من التحديات؟

إن أي شخص قرأ روايات خورخي لويس بورخيس Jorge Luis Borges القصيرة، سيدرك أن نهاية نسيان ما، لا بد من أن تكون مصحوبة بعواقبها، فتنتج مجموعة جديدة تمامًا من الأمراض. في إحدى قصص بورخيس، يسقط شخصية يدعى إيرينيو فونيس Ireneo Funes من حصانه ويضرب رأسه، ولكن عندما يستيقظ من حالة اللاوعي يجد مشكلة جديدة – وهي القدرة على تذكر كل شيء بتفاصيل واضحة. بالنسبة إلى فونيس، كان الحاضر لا يُطاق تقريبًا في حدته وثرائه، تماما مثلما كانت ذكرياته البعيدة والأكثر تفاهةً. يشير فونيس باستخفاف إلى ذاكرته باعتبارها «كومة نفايات». من الواضح أن فونيس لم يكن لديه أي سبب لتكرار الماضي بدلا من تذكره (وفي النهاية، لقد تذكر كل شيء)، ولكن القول إن حالته كانت محررة، سيكون أمرا مضللا تمامًا[29]. في قصة بورخيس القصيرة بعنوان «فونيس صاحب الذاكرة القوية» Funes the Memorious، بالإضافة إلى عديد من رواياته القصيرة الأخرى التي

كتبها قبل وقت طويل من بدء الأرشيف الرقمي لإعادة هيكلة حياتنا اليومية، توقع – على ما كان يبدو – مخاطر الماضي الذي لا يمكن نسيانه أبدًا. ولكن بالنسبة إلى الأطفال والشباب، إن عواقب حمل الماضي والمضي به قدما على هذا النطاق غير المسبوق، قد تكون أكبر من عواقبها على البالغين.

قيمة النسيان والمنسي

في الحقيقة إن معظم فترات الطفولة لا تتميز بالصدمات الجماعية الموضحة في القسم السابق، ويظل الناجون والمهاجرون أقليات في العالم على الرغم من أعدادهم الهائلة. بل إن أولئك الذين تميزت طفولتهم بفقدان وعنف غير عاديين، غالبًا ما يكون لديهم على الأقل بعض الذكريات التي يرغبون في نقلها إلى المستقبل. إن النسيان التام والكامل، إذن، نادرًا ما يعد شيئًا يطمح إليه الشخص، حتى لو كانت طفولته بعيدة عن الكمال. وعلى رغم ذلك، يعاني معظم الناس على الأقل بعض الأحداث خلال فترتي الطفولة والمراهقة التي يفضلون نسيانها، ونسيان الناس الآخرين لها. على سبيل المثال، يفضل معظم الناس أن تظل التفاصيل المسجلة في مذكرات الصف السابع، والصور المنشورة في كتابهم السنوي للصف التاسع، خارج التداول العام. قد تبدو أحداث الحياة الموثقة ومراحلها في هذه اليوميات والكتب السنوية تافهة، ولكن حتى الأحداث الصغيرة غالبًا ما تأخذ أبعادًا ضخمة بالنسبة إلى المراهقين. في واقع الأمر، إن المراهقين معرضون على نحو خاص للتصورات المنحرفة أو المبالغ فيها عن الذات؛ فالمحتوى المحدد لصورة الكتاب السنوي للصف التاسع لا يهم، بل الذي يهم هو أن عديدا من المراهقين قد يعانون حتى من أصغر العيوب باعتبارها علامات عجز ومصادر للعار لا يمكن تجاوزها. من يريد تكرار تجربة مخزية أو يعبر عن الحاجة إليها؟

إن حقيقة أن التجارب المخزية والمذلة جزء لا يتجزأ من النمو، قد تفسر في الأغلب سبب تشكيل ذكريات الطفولة، كما ذهب إلى ذلك فرويد، بواسطة «قوى قوية من فترة لاحقة». إن ما نتذكره لا يعدو أن يكون أكثر من مشاهد نتبوأ فيها دائمًا منزلة النجم؛ وهذه ليست ذكريات حقيقية، ولكنها بالأحرى تفاصيل عن ذكريات الطفولة التي تراكمت عليها كل بواعث الأعباء والرقابة لتجارب حياتنا

اللاحقة. كتب فرويد: «إذا كانت ذكريات الشخص المحتجزة تخضع لاختبار تحليلي، فيمكن التأكد بسهولة من عدم وجود ضمان لصحتها؛ إذ من المؤكد أن بعض صور الذاكرة مزيفة وغير مكتملة، أو أُزيحت في الزمان والمكان»[30]. لذلك لا يُنسى فقط قدر كبير من ذكريات طفولتنا أو على الأقل «تُخفى»، ولكن ما نتذكره عادةً ما يكون أيضا بعيدًا عن الدقة[31]. تُنقل الأحداث إلى سياقات مختلفة، ويُجمع بين الأشخاص الذين لم يشغلوا المكان نفسه مطلقًا، وفي بعض الحالات، تأتي الأشياء لتكون بديلا منا لفترات كاملة من حياتنا.

وقد استندت ادعاءات فرويد فقط إلى الملاحظات المسجلة انطلاقا من أريكة المحلل، وقد تعرضت لانتقادات كبيرة في أواخر القرن العشرين، غير أن علم الأعصاب المعاصر يدعم الآن على الأقل بعض مزاعمه التي تعود إلى قرن من الزمان بشأن الطفولة والنسيان. وهذا لا يعني أننا توصلنا حتى الآن إلى تعريف نهائي للنسيان؛ فالنسيان، مثل الذاكرة نفسها، يستمر في حمل تعريفات وتفسيرات لا تُعد ولا تُحصى، تتنوع ليس فقط عبر التخصصات بل في كثير من الأحيان داخلها. وعلى رغم ذلك، فقد أصبح من الواضح على نحو متزايد أنه بقدر ما يمكن أن يكون النسيان شيئا غير مرغوب فيه، فإنه يؤدي في بعض الأحيان وظيفة مهمة.

في دراسة أُجريت في العام 2014، راقب عالما الأعصاب دونا بريدج Donna Bridge وجويل فوس Joel Voss، أدمغة المشاركين باستخدام ماسح التصوير بالرنين المغناطيسي، فوجدا أدلة على أن الدماغ «يُعدل» الذكريات ويرتبها. لقد احتُفظ بالذكريات مع مرور الوقت، ولكن أيضًا نُمقت باستمرار لتبقى مناسبة. كما يؤكد الباحثان أن الحُصين (أو قرن آمون)، وهو منطقة من الدماغ متشابكة بعمق في ذاكرة السيرة الذاتية autobiographical memory، يؤدي دورًا مهمًا من خلال السماح للمعلومات الحالية بإثارة ذكريات تجارب الماضي. وخلصوا إلى أن النسيان – على الأقل النسيان الجزئي – منتشر، وقد يكون له وظيفة معينة. عندما «يتسلل» الحاضر إلى الماضي، فإنه يضمن بقاء الذكريات القديمة متصلة أو يجعلها ذكريات جديرة بالنقل والتداول. في الوقت نفسه، تُحذف المعلومات غير المناسبة أو غير السارة[32].

لذا، سواء ألجأ المرء إلى التحليل النفسي أم إلى علم الأعصاب، فسيحصل على الاستنتاجات نفسها: ذكريات بعيدة عن الدقة، وستظل دائما عرضة لشكل من أشكال

النسيان، أو على الأقل عرضة للتحريف. وكلما رجع المرء بذاكرته إلى الوراء أكثر، زاد منسوب تحريف ذكرياته. قد يفترض المرء مرد هذا، ببساطة، إلى كون الطفولة تعود إلى فترة ماضية بعيدة؛ لكن هذا لا يفسر سبب قدرة الشخص البالغ من العمر ستين عامًا على استحضار ذكرياته التي تعود إلى أوائل العشرينيات من عمره على نحو أدق بكثير عموما، مقارنة بالشخص البالغ من العمر عشرين عامًا لدى استحضاره ذكرياتِ سنِّ السابعة أو الثامنة من عمره. وقد اقترح فرويد أن ذكريات الطفولة، التي وصفها أيضًا بـ «ذكريات مقَنَّعة» أو «ذكريات حاجبة» screen memories، لها قواسم مشتركة مع «أساطير وخرافات الأمم» أكثر من ذكريات السنوات اللاحقة[33]. وبعبارة أخرى، تعد ذكريات الطفولة – التي هي أكثر من مجرد ذكريات متراكمة لأحداث معينة – قصصا تُستحضَرُ بين الفينة والأخرى لفهم اللحظات المهمة التي لا يمكن استعادتها، وتظل برغم ذلك لحظات مهمة. ولكن تبقى سلسلة من الأسئلة قائمة: لماذا تنتشر مسألة نسيان فترة الطفولة إلى هذا الحد الكبير؟ ما الغرض من تذكر مشاهد معينة فقط، أُعيد عرضها على نحو انتقائي على مر السنين[34]؟

الغرض من الأساطير والخرافات على حد السواء هو شرح الظواهر التي لا يمكن تفسيرها. وإذا كانت ذكريات طفولتنا تندرج ضمن هذه الفئات، فلربما يرجع ذلك إلى أن فترة النشوء نفسها هي عملية صعبة وغامضة، لا يمكن فهمها بالكامل إلا من خلال اللجوء إلى الخرافات. وتنتشر الأساطير والخرافات في غياب الأدلة التجريبية، على الرغم من أن الأساطير غالبًا ما تستند إلى حقائق جزئية (دليل كافٍ للاحتفاظ بمظهر ما هو واقع، ولكن ليس دليلا بما يكفي ليكون انعكاسات للواقع). ولكن ماذا يحدث عندما تُسلب القدرة على تحويل فترة شبابنا بطريقة سحرية إلى أساطير وخرافات؟ ماذا يحدث لدى عجزنا عن إيجاد طريقة لنصبح أبطال هذه الحكايات ذاتية الصنع؟ ماذا يحدث عندما تصبح ذكريات طفولتنا غير مبنية على نحو أساسي على القصص التي تبدو، بل مبنية بالأحرى على أدلة وثائقية، مثل الصور ومقاطع الفيديو لطفولتنا المتداولة على الإنترنت؟

ربما تكون قدرة الناس على نسيان شخصياتنا التي كانت بالماضي أو حتى نسيان وجودنا أكثر أهمية من قدرتنا على نسيان ماضينا. إذا كان أناس آخرون – من قبيل أصدقاء المستقبل وأرباب العمل وعشاقنا وأطفالنا – ممن لم يسبق لهم قط اللقاء

بهويتنا قبل مرحلة نضجنا أمرا مهما، فلأن النضج هو تراكم للمعرفة بقدر ما هو تراكم للنسيان. في الواقع، كان النضج تاريخيًا يمثل «المضي قدمًا» للأحداث، وفي أثناء ذلك، التمكن من الابتعاد عن عديد من الأحداث المحرجة والمربكة التي تتخلل مرحلتي الطفولة والمراهقة. تاريخيًّا، سجلت الطقوس المعقدة على مرور الشاب إلى عالم الكبار. وفي بعض هذه الطقوس، كان النسيان جزءًا من هذه العملية. وقد لاحظ عالم الأنثروبولوجيا أرنولد فان جينب Arnold van Gennep في كتابه «طقوس المرور» The Rites of Passage، الصادر في العام 1909، أن طقوس الاستهلال تتطلب في أغلب الأوقات، من صاحبها أن «يموت» أو يتصرف كأنه ميتٌ (عادةً، تُستخدم المهلوسات، مثل البيُّوط (نبات من الصبار يستخلص منه المخدر)، وكذا الجَلْد أو وسائل العنف الأخرى لإنجاز هذه المهمة). والهدف من هذا هو «جعل [المبتدئ] ينسى شخصيته وعالمه السابقين»[35]. إن دعم طقوس الاستهلال هذه يفترض أن الدخول إلى مرحلة البلوغ يتطلب مغادرة مرحلة الطفولة مغادرة تامة – أي قطيعة جذرية تتحقق فعليا من خلال نسيان الماضي.

هذا يعيدنا إلى المشكلة الشائعة إلى حد ما، المقدمة في بداية هذا الفصل – المتمثلة في المعضلة التي تواجه شباب اليوم غير القادرين بسهولة على تدمير آثار الماضي التي لم يعودوا يرغبون في العيش معها. لكن المشكلة لا تكمن ببساطة في كوننا لم نعد قادرين على تدمير الصور المحرجة سرا. إن التحول من التناظرية إلى الرقمية يؤثر في تجربة ماضينا على ثلاثة مستويات مهمة على الأقل. أولا، يوجد الآن عدد أكبر من صور الشباب المتداولة أكثر من أي وقت مضى. ثانيًا، لأول مرة، تُلقط هذه الصور في الأغلب من قبل الأطفال والمراهقين أنفسهم. أخيرًا، يتمثل أحد الجوانب الفريدة لعصرنا الحالي في القدرة على الحفاظ ليس فقط على صور الماضي، ولكن أيضًا على الشبكات الاجتماعية المرتبطة بهذه الصور. وعادة ما تكون صورة ما منشورة على الإنترنت مرتبطة بشبكة اجتماعية كاملة من الأشخاص المألوفين وغير المعروفين. ما سيواصل شباب اليوم نقله إلى المستقبل، إذن، ليس مجرد محفوظات للصور الرقمية ومقاطع الفيديو، بل هو سياق اجتماعي شامل قد يرغبون أو قد لا يرغبون في الاحتفاظ به. وعلى هذا الأساس، صاغت المفوضية الأوروبية مشروع قانون يقضي بضرورة منح «أصحاب البيانات» (أي من يشكلون موضوع البيانات)

data subjects، الحق في محو البيانات الشخصية المتعلقة بهم، خصوصا تلك البيانات التي أُنتجت عندما كانوا أطفالًا[36].

إن هدفي من هذا الكتاب ليس المجادلة بأن الوسائط الرقمية مرتبطة بإلحاق الضرر بالأطفال. لقد خلَّفت كل تقنية من تقنيات الوسائط الجديدة تقريبًا حالة من الذعر الأخلاقي بشأن الأضرار المحتملة، ويستند رد الفعل هذا دائمًا تقريبًا إلى افتراضات خاطئة بشأن براءة الأطفال. كما أنني لا أطرح قضية تقييد وصول الشباب إلى الوسائط الرقمية. بل هدفي، بدلا من ذلك، هو استكشاف ما قد يكون على المحك مع دخولنا حقبة تبدو فيها القدرة على فصل أنفسنا عن مرحلتي الطفولة والمراهقة – وتعديل ذكريات طفولتنا – في خطر على نحو كبير. ما نواجهه الآن هو احتمال بث توثيق لفترة شبابنا بشأن ما يمكن وصفه على نحو أفضل بكونه حلقة متصلة. وعلى عكس كتاب سنوي مطبوع في المدرسة الثانوية، أو ألبوم الصور الشخصية، أو صندوق ممتلئ بالتذكارات، فإن المعلومات التي تتراكم على منصات وسائط التواصل الاجتماعي تشكل أيضًا جزءا من تجميعات أشخاص آخرين. لقد أصبحت آثار الماضي الآن متصلة بالشبكة، ولم تعد أبدا تحت سيطرتنا، مما يعني أن الشبكات الاجتماعية التي شُكلت خلال سنواتنا الأولى، من المرجح أن تظل في مكانها طوال فترة بلوغنا. إن ما نواجهه ليس مجرد تحول من التذكارات الخاصة إلى التذكارات المشتركة، ومن التذكارات التي يمكننا تدميرها بسهولة بأيدينا إلى تذكارات خارجة عن سيطرتنا تمامًا، بل أيضًا بلوغ عالم حيث القدرة على الانفصال عنه تعرض الماضي لخطر شديد، بل يمكن أن تتحكم فيه مصالح خاصة مستثمرَة في الحفاظ على شبكاتنا السابقة سليمة. إذا كنا في يوم من الأيام قادرين على تعديل ذكريات طفولتنا أو «كتابتها بصيغة منمقة» من أجل نقل المعلومات ذات الصلة فقط أو تلك المقبولة لدينا، فإننا ندخل الآن حقبة تكون فيها علاقتنا بالماضي خارجة عن سيطرتنا. إن ألبومات الصور الخاصة بنا – وإلى الحد الذي يمكن ترجمتها إلى بيانات، وعلاقاتنا الخاصة، والإيماءات، بل الرغبات نفسها – أضحت تنتمي على نحو متزايد إلى الآخرين. كما أن العواقب التي بدأت من فورها في الظهور، لا بد من أن تحدث تأثيرا عميقا في مسألة أن يكبر المرء ويغادر المنزل في القرن الحادي والعشرين.

توثيق الطفولة قبل ظهور وسائط التواصل الاجتماعي وبعده

«على مدى سنوات عديدة رائعة، فكرتُ في الفيلم المنزلي بالطريقة نفسها التي فكّر بها فرويد في الأحلام والنكات وزلات اللسان - أي باعتباره فيلما يكشف عن أمور أكثر مما كان يقصده صانعو الأفلام أنفسهم على الإطلاق»

زوي بيلوف

لقد سُجلت الطفولة وحُفظت في مجموعة متنوعة من الوسائط على مدى قرون – انطلاقا من رسومات أرستقراطيي القرن السابع عشر، إلى لقطات فوتوغرافية عائلية، إلى أفلام منزلية صُوِّرت في فيلم أو فيديو. وفي ظل تقنيات التصوير الجديدة لكل عصر، خضعت مرحلة الطفولة لأنواع مختلفة من التوثيق مع ما تحمله من عواقب مختلفة. وغالبًا ما كانت الصور الشخصية القديمة تسعى إلى تحديد موقع الأطفال على نحو رمزي ضمن سياق اجتماعي أو سياسي أوسع، كما كانت الصور الفوتوغرافية القديمة للأطفال تقريبًا تقدمهم دائمًا داخل الحدود المعزولة لاستوديو المصور؛ ولكن مع ظهور مزيد من الأشكال اليومية لصنع الصور، أصبحت حياة الأطفال مكشوفة

على نحو متزايد. ومع انتقال التصوير من خارج الاستوديو إلى متناول أيدي الناس، أصبحت عملية توثيق عبث الأطفال ودموعهم أمرا ممكنا. ولكن مع ظهور التصوير المحمول، تمكن الأطفال من تمثيل أنفسهم من منظورهم الخاص لأول مرة. وكانت كل من هذه التحولات مهمة، لكن العصر الرقمي يبرز ليسجل فترة تاريخية أهم من بين الفترات السابقة في صناعة الصور لاعتبارات عدة.

أولا، إن التقنيات المتاحة التي غالبًا ما كانت تحت مراقبة البالغين، بسبب التكلفة، لم تكن في متناول الأطفال العاديين أو المراهقين على نحو كبير. ثانيًا، استُخدِمت تقنيات الوسائط السابقة، من آلة التصوير الفوتوغرافي إلى كاميرات الأفلام المحمولة، لتسجيل الأحداث (على سبيل المثال، الحفلات الموسيقية وحفلات أعياد الميلاد والتخرج)، وليس الحياة اليومية كما تتكشف، وذلك مرةً أخرى بسبب التكلفة. إن كثيرا مما التُقِط في صور «السيلفي» اليوم لم يكن موجودًا في عصر التصوير الفوتوغرافي التناظري. وأخيرًا، بينما يصنع الناس أحيانًا نسخًا مكررة من الصور لتقاسمها مع الأجداد أو الأصدقاء، ظلت الصور الشخصية في الأغلب فردية، وليست جماعية. لقد صُنعت من أجل حفظها في سياق خاص (على سبيل المثال، ألبوم العائلة)، بدلاً من تقاسمها مع الغير على نطاق واسع. وينطبق الشيء نفسه على الأفلام المنزلية، سواء صُوِّرت بطريقة الأفلام الطويلة أو مقاطع فيديوهات قصيرة، كانت معظم الأفلام المنزلية عبارة عن قطع أثرية فريدة من نوعها. ومع إدخال التصوير الفوتوغرافي الرقمي والفيديو، واندماج الكاميرا في الهاتف المحمول، وتطوير منصات الوسائط الاجتماعية، جرى تجاوز هذه القيود إلى حد كبير. لقد أحدثت وسائل الإعلام الرقمية، ومنصات التواصل الاجتماعي تغييرات عميقة في إنتاج الصور المتداولة، وفي محتواها وعددها، فضلا على الجمهور المحتمل لهذه الصور في الحاضر والمستقبل.

تمثيل الأطفال والطفولة قبل التصوير

حتى قبل أن يُعتَرف بالطفولة على نطاق واسع باعتبارها مفهوما، مُثِّل الأطفال في الفن، بحيث يمكن العثور على هذه التمثيلات في المزهريات القديمة وفي منسوجات العصور الوسطى. وعلى رغم ذلك، كانت تمثيلات مشاهد الطفولة نفسها نادرة،

ولم يبدأ الرسامون في التعامل مع الأطفال والطفولة كمواضيع حتى أواخر القرن السادس عشر، وعلى رغم ذلك، تم هذا على نحو عابر فقط[1].

إن في عمل «أنيبال كاراتشي» Annibale Carracci الإبداعي: «طفلان يضايقان قطة» Two Children Teasing a Cat (1587–1588)، على سبيل المثال، يواجه المشاهد مشهدًا يبدو أنه يقدم لمحة نادرة عن الطفولة في القرن السادس عشر. في هذه اللوحة الفنية تشاهد فتاةٌ صغيرةٌ صبيًا أكبر سنا مع جراد البحر يستفز قطة برتقالية؛ إنها لوحة فنية ليست لطفل واحد، ولا لأطفال مع أسرهم، تبرز تمثيلا نادرا لأطفال يعيشون في عالم الأطفال. هناك عرض، يتمثل في حيوان أليف، ولا يوجد أي شخص بالغ في اللوحة.

وقد كانت اللوحة الفنية العائلية أكثر شيوعًا في أواخر القرن السادس عشر حتى منتصف القرن السابع عشر، حيث كان الأطفال يتسللون فيها إلى الخلفية، مضطلعين أحيانًا بأهمية أقل من الأشياء المدرجة في مقدمة الاهتمامات الفكرية لرب الأسرة[2]. وهذا واضح في اللوحة الفنية العائلية ذات المقياس الكبير من إنتاج تشارلز لو برون Charles Le Brun في العام 1660: «إيفرهارد جباش (1618-1695) وعائلته» Everhard Jabach (1618–1695) and His Family؛ حيث تظهر – على ما يبدو – الدور الثانوي لأطفال «جباش» الأربعة في مجموعة الأشياء الرائعة التي تضم الكتب، والرسومات، والتماثيل النصفية القديمة وكرة سماوية. ولكن من الواضح أن الأطفال في لوحة «لو برون» الفنية لأسرة جباش صُوِّروا باعتبارهم أطفالا – إذ تنم ملابسهم وموقعهم في المنزل الخاص عن أنهم يحيون حياة محمية إلى حد ما. وعلى رغم ذلك، في عديد من اللوحات الفنية الأوروبية الأخرى من تلك الفترة، يُصَوَّر الأطفال باعتبارهم بالغين مصغرين. وهذا ليس مفاجئًا تمامًا؛ لأن مفهوم الطفولة لم يظهر في جميع الطبقات في الوقت نفسه في أوروبا[3]. في لوحة «جان ميشيلان» Jean Michelin العام 1656، بعنوان «عربة الخباز» The Baker's Cart، ثمة خباز يقف بجانب عربة الخبز الخاصة به، تحيط به بائعة متجولة كبيرة في السن، ورجل بالغ آخر، وأربعة أطفال. هنا، يُحدَّد التمييز بين الأطفال والبالغين فقط من خلال الطول؛ وبالكاد تمكن ملاحظة هذا التمييز من خلال الملابس والنشاط والتعبير، بل يبدو انعدام وجود أي مكان أو دور خاص لهؤلاء الأطفال في العالم.

بحلول القرن الثامن عشر، وحتى أوائل القرن التاسع عشر، شرع الرسامون الأوروبيون في تبني الطفولة – بمعدل أكبر – باعتبارها موضوعا في حد ذاته؛ وعلى سبيل المثال صوَّر الرسام الفرنسي جان سيميون شاردان Jean Siméon Chardin في القرن الثامن عشر، أطفالا منخرطين في أنشطة لاتزال شائعة إلى يومنا هذا؛ ويظهر عمله الفني «ولد يبني بيتًا من ورق اللعب» (خلال الثلاثينيات من القرن الثامن عشر)، ولدا صغيرًا يلعب بمفرده بمجموعة ورق اللعب. وفي إحدى النسخ الأربع الموجودة حاليا من هذه اللوحة الفنية، يظهر الولد الصغير مرتديًا مئزرًا – ومن المفترض أن يكون هذا التفصيل الدقيق للإشارة إلى وضعه الاجتماعي بصفته خادما. كما يشير تضمين كل من الأطفال الأرستقراطيين وأطفال الطبقة العاملة في سلسلة «شاردان»: «ولد يبني بيتًا من ورق اللعب» إلى الوعي المتزايد، والقلق المتنامي بشأن الطفولة ووضعها الخاص باعتبارها فترة حياة متميزة عن مرحلة البلوغ. وبالطبع، حتى من حيث المنظور شبه الوثائقي عن الطفولة الذي قدمه «شاردان»، فإن النظرة المتاحة للمشاهدين لمرحلة الطفولة مؤطرة بشكل كامل بنظرة الكبار التأملية للرسام.

لا ينبغي أن نتعامل مع عجز الأطفال عن تمثيل أنفسهم من القرن السادس عشر إلى الثامن عشر باعتباره أمرا مفاجئا؛ فلقد كان التمثيل الذاتي أيضًا أمرا جديدًا على البالغين خلال هذه الفترة. ومع اختراع الآلة الطابعة من نوع الحرف المتحرك، ارتفعت معدلات محو الأمية، وأفسحت المجتمعات الشفوية في العصور الوسطى – التي كانت تقدر الأنشطة الجماعية والمجتمعية – الطريق لمجتمعات أكثر خصوصية وفردانية اكتسب فيها الفرد مكانة مرموقة. ومن بين النتائج الأخرى، أدى ذلك إلى ظهور عدد لا يُحصى من أنواع الكتابة الجديدة، بما في ذلك المقال والمذكرات[4]. ولكن إذا اكتشف البالغون، على الأقل فئة معينة من البالغين، حرية استكشاف أعماقهم من خلال الكتابة والقراءة، فإن تأثيرات ثقافة الطباعة السابقة كانت أكثر عمقًا بالنسبة إلى الأطفال.

رأى عديد من المؤرخين أن الفصل بين ثقافات البالغين والأطفال، كان إحدى النتائج العديدة بعيدة المدى وراء اختراع الآلة الطابعة من نوع الحرف المتحرك[5]؛ غير أنه من الخطأ استنتاج فكرة أن الطريقة الوحيدة التي تؤثر بها الطباعة في

الأطفال، تتمثل في نفيهم من عالم الكبار. ومع تزايد عمليات انسلال الأطفال من عالم الكبار الذي كانوا ينتمون إليه ذات يوم، ظهرت بموازاة ذلك، أنواع جديدة من الكتب هدفها في الأساس تنظيم ما يجب أن يتعلمه الأطفال، ويفعلوه، بل وما ينبغي لهم التفكير فيه أصلا. من القرن الخامس عشر إلى حدود القرن الثامن عشر، كان الدليل التربوي، وكتب الأبوة والأمومة ودليل السلوك من بين الكتب الأكثر شيوعًا من حيث التداول. كان الدليل الذي يقدم المشورة بشأن كيفية تربية الأطفال، وتعليمهم بمنزلة الخبز والزبدة، أي أنه مصدر رئيس للرزق بالنسبة إلى عديد من الناشرين الأوائل. وبالطبع، كان الأطفال يشكلون موضوعات هذه النصوص، ولم يكونوا مؤلفيها. وهكذا، بينما جرى تناول الطفولة على نحو نادر جدا باعتبارها موضوعا من قبل الرسامين في هذه الفترة، فإنها في الوقت ذاته حظيت باهتمام بالغ – بل مفرط – في الأعمال المطبوعة. كانت هناك مسارات تعليمية، ودليل أبوة وأمومة، وكتيبات تمهيدية، وكتب سلوك، ودليل محلي، وتعاليم دينية. إن التعاطي مع الطفل باعتباره آلة – أي مجموعة من أجزاء منفصلة، يتطلب كل منها اهتمامًا خاصًا – ضمن كتيبات إرشادية، يقدم إرشادات بشأن كيفية الحفاظ على كل شيء عن الطفل في وضع سليم. وقد استهدفت المسالك التعليمية، والدليل التربوي عقل الطفل، واستهدف دليل الأبوة والأمومة والدليل المنزلي رفاهية الطفل الجسدية والاجتماعية، كما سعت كتب السلوك، والتعاليم الدينية إلى تنظيم التطور الأخلاقي للطفل وإدارته، بحيث لم تدع أي جانب يتعلق بحياة الطفل من دون فحص؛ وقد أدى هذا الاتجاه لاحقًا إلى تصنيف ميشيل فوكو Michel Foucault الأطفال إلى جانب المرضى والمجانين والسجناء باعتبارهم أشخاصا يخضعون لتوثيق مفرط، وباعتبارهم، في الوقت ذاته، يخضعون للإسكات لأنهم أقل مرتبة. وقد رأى «فوكو» أن «هذا التحول من حياة واقعية إلى كتابة، هو بمنزلة إجراء من إجراءات التشيؤ objectification والخضوع». وضمن هذا السياق أُنشِئت مدارس تنفذ داخلها عملية التعليم «بكلمات قليلة، خالية من أي تفسير، يطبعها صمت مطبق، لا تقاطع سلطته إلا إشارات»[6].

خلال القرون الأربعة الأولى بعد اختراع الطفولة، لزم الأطفال الصمت على نحو مخيف. ولوحظ تمثيلهم من حين إلى آخر، من خلال أعين الكبار في الفن، واستكشفوا

بصفتهم موضوعات في عدد لا يحصى من الخطابات (التربوية والأخلاقية والطبية)، لكن نادرًا ما كان يُسمع صوتهم ويُسْمح لهم بتمثيل أنفسهم. إن الكتابة عن طريق الضوء - أي من خلال التصوير الفوتوغرافي - ستخرج الطفولة أخيرًا من الزوايا المظلمة التي كانت محصورة فيها، والأهم من ذلك أنها ستوفر للأطفال الأدوات اللازمة للانخراط في تمثيل الذات.

الأطفال والطفولة في عصر التصوير

لا يملك الأطفال إلا وسائل محدودة تمكنهم من تمثيل حياتهم بأنفسهم، على الرغم من وجود وصف متزايد للأطفال والطفولة في اللوحات الفنية خلال القرن الثامن عشر. وهذا ربما يعكس إلى حد كبير حقيقة وصف الأطفال أنفسهم في رسوماتهم التخطيطية وخربشاتهم، فإن رسم صورة ما، ظل مهارة استغرقت سنوات لإتقانها. ببساطة، نظرًا إلى أن الأطفال لم يكونوا قط رسامين بارعين، فقد كان التمثيل الذاتي للطفولة خلال عصر ما قبل التصوير أمرًا نادرًا. ومع ظهور التصوير الفوتوغرافي، تمكن الأطفال أخيرًا من تمثيل حياتهم الخاصة. وبمرور الوقت، ستضطلع الصور الفوتوغرافية بدور أساسي في توثيق الطفولة، بل ستؤدي إلى تطوير تقنيات التصوير الفوتوغرافي الجديدة. لكن هذا التحول لم يكن ليحدث بين عشية وضحاها بأي حال من الأحوال، بل سيستغرق تقريبا قرنا من الزمن قبل بلوغه.

على الرغم من أن التجارب مع حجرة التصوير المظلمة camera obscura تعود إلى العصور القديمة، فإن اختراع التصوير الفوتوغرافي غالبًا ما كان قائما في أوائل القرن التاسع عشر، عندما ظهرت عديد من التجارب وبراءات الاختراع اللاحقة في وقت واحد في فرنسا وإنجلترا. وقد ساعدت المنافسة الشرسة التي قادت التطور المبكر للتصوير الفوتوغرافي في تحويل هذه الوسيلة الجديدة لصناعة الصور بسرعة من عملية غامضة إلى عملية ذات تطبيق وسوق تجاريين متناميين. وبحلول أربعينيات القرن التاسع عشر، كان التصوير التجاري - بحق - راسخًا في عديد من المدن الأوروبية. وفي العام 1847 بِيع أكثر من مائتي كاميرا، وما يقدر بنحو نصف مليون لوحة في باريس وحدها. وعندما جرى التساهل

مع إجراءات براءات اختراع من أجل عمليات تطوير محددة في خمسينيات القرن التاسع عشر، استمر التصوير الفوتوغرافي في تعزيز مكانته باعتباره وسيطا يعمل لمصلحة الناس. وبحلول العام 1861 ادعى أكثر من 33 ألف باريسي كسب عيشهم من التصوير الفوتوغرافي والأعمال المرتبطة به[7].

إن تطور التصوير الفوتوغرافي إلى صناعة رئيسة في أوروبا، كانت له علاقة كبيرة بشعبية التصوير الفوتوغرافي للصور الشخصية؛ فبينما ظلت اللوحة الشخصية حكرا على العائلات الأكثر امتيازا، على حساب عامة الناس، حلّ التصوير الفوتوغرافي ليصبح فن التصوير متاحا على نحو متزايد. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، حتى العائلات المتواضعة من الطبقة العاملة كان بإمكانها الحصول على صورة عائلية واحدة على الأقل. مع تقدم القرن، لم تكن هناك حاجة أيضًا إلى العيش في مدينة رئيسة أو زيارتها للولوج إلى خدمات التصوير. وبحلول ستينيات القرن التاسع عشر، كان لدى عديد من القرى الصغيرة في ذلك الوقت، استوديوهات للتصوير الفوتوغرافي، وجلبت عربات السفر استوديو التصوير الفوتوغرافي إلى أكثر البؤر الاستيطانية عزلة[8].

ينبغي ألّا يكون مفاجئا أن الأطفال – سواء بمفردهم أو برفقة والديهم – من بين أكثر الموضوعات شعبية لدى المصورين الفوتوغرافيين الأوائل. ومع ظهور التصوير الفوتوغرافي، كانت فكرة الطفولة قد ترسخت بقوة في الثقافات الغربية، وأصبح الأطفال موضوع بحث يحظى بالشعبية والإعجاب، (من قبل كل الناس ابتداء من الأطباء وحتى التربويين على حد السواء). لقد وفر التصوير الفوتوغرافي للبالغين وسيلة لدراسة الأطفال من كثب (بمساعدة الكاميرا، يمكن للمرء ملاحظة ظواهر غير مرئية للعين البشرية بسهولة)، وللاحتفال بل والحفاظ حاليا على هذه المرحلة الموقرة من الحياة. إن هذا الانشغال بالأطفال والطفولة، إلى جانب إمكانية وصول النسبية إلى وسيلة التصوير الفوتوغرافي، يعني تمكن عدد قليل من الأطفال من تفادي عدسة المصور بحلول نهاية القرن التاسع عشر، وبحلول نهاية القرن العشرين، لن يكون في مقدور أي أحد منهم تقريبا الإفلات من هذه العدسة الفوتوغرافية[9]. الواقع أنه في الوقت الذي بدأت فيه «كوداك» Kodak نشر مجلتها التجارية «كوداكري» في العام 1916، ثبَّت

التصوير الفوتوغرافي للأطفال قدميه. امتلأت صفحات «كوداكري» بصور الأطفال والرضع. وكما هو الحال في الأشكال الإعلانية المعاصرة، غالبًا ما ترافق هذه الصور حملات ترويجية ليست لها علاقة واضحة بالرضع أو الأطفال. كما عرضت المجلة بانتظام نصائح متعلقة بالتصوير الفوتوغرافي للأطفال، مثل أفضل السبل المتبعة في تصوير الأطفال الصغار الذين يعانون القلق، وكيفية إنشاء ألبومات ذاكرة، يمكن للأطفال الاستمتاع بها مع تقدمهم في السن[10].

في الوقت الذي دخلت فيه «كوداكري» حيز التداول، تغير – مع ذلك – شيء آخر في عالم التصوير الفوتوغرافي: أصبحت القدرة على التقاط الصور في متناول الأطفال أنفسهم. خلال معظم القرن التاسع عشر، لزم الأطفال الصمت كما كانوا في عصر الرسم والطباعة بسبب قيدين فنيين اثنين. أولا، كانت الكاميرات كبيرة وثقيلة ومعقدة، مما جعل من الصعب، إن لم يكن مستحيلا، على طفل صغير تشغيلها. ثانيًا، قبل اختراع الفيلم الشريطي roll film، كان يتعين على المصورين تحميض الفيلم بأنفسهم والاضطلاع بذلك بسرعة فائقة. كان لا بد من تطوير لوحات التصوير على الفور تقريبًا بعد التقاط الصورة وإلا ستضيع الصورة نهائيًا. وبالنظر إلى المعرفة والمهارة والسرعة المطلوبة لتحميض الصور، لم تتح الفرصة إلا لعدد قليل من أطفال القرن التاسع عشر للمشاركة في تشكيل الصور الخاصة بهم.

ثمة تطوران تقنيان شكلا تأثيرا دائما في التصوير الفوتوغرافي وفي قدرة الأطفال على تمثيل حياتهم الخاصة؛ فبحلول أواخر القرن التاسع عشر، ظهرت لأول مرة الكاميرات المدمجة التي كانت خفيفة وسهلة الاستخدام وقابلة للحمل. وقد كان أهم من ذلك كله، اختراع الفيلم الشريطي في أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر الذي سيسيطر على التصوير الفوتوغرافي لما يقرب من قرن بعد ذلك، مما مكَّن أي شخص حينها من التقاط صور فوتوغرافية والاستعانة بمصادر خارجية لتطويرها. وللاستفادة من هذه العملية الجديدة، الأكثر بساطة وأمانًا، اضطلع رجل الأعمال جورج إيستمان George Eastman أيضًا بعمل سيكون له تأثير كبير في قدرة الأطفال على تمثيل حياتهم وطفولتهم في حد ذاتها: لقد اخترع كاميرا مصممة للشباب فقط.

تكنولوجيا وسائط صُنعت خصيصا للأطفال

مع وصول كاميرا «براوني» Brownie، تحول التصوير الفوتوغرافي وسيطا لصنع الصور المخصصة للمحترفين والهواة الجادين وإلى وسيلة، يمكن الوصول إليها على نطاق واسع. وقد اختار «إيستمان» على نحو جاد أن يتبنى اسم «براوني» المأخوذة من سلسلة كتب أطفال شهيرة في العصر الفيكتوري، بعنوان «البراونيز» The Brownies، من تأليف «بالمر كوكس» Palmer Cox، التي عرضت السلوكيات الغريبة لشخصيات الرسوم المتحركة الصغيرة المؤذية، المسماة بـ «البراونيز». كما لاحظ تود غوستافسون Todd Gustavson، المشرف على التكنولوجيا بجورج إيستمان هاوس George Eastman House، أن شخصيات عمل كوكس «البراونيز» التي تتلاعب في غطاء علبة الكاميرا وإعلاناتها حرصت على أن يدرك الأطفال أن «براوني صُممت من أجلهم». كما توفر كاميرا «براوني» أيضًا كتيبا من أربع وخمسين صفحة، يقدم نصائح في التصوير، داعيا مالكين جددا إلى الانضمام إلى نادي كاميرا براوني. كانت الكاميرا، التي طُوِّرت، على نحو كبير، باعتبارها لعبة، ميسورة التكلفة نسبيًا، حيث تكلف دولارين فقط (ما يعادل 60 دولارًا تقريبًا اليوم). وفي الأغلب – وبالنظر إلى سعرها المنخفض – ستكتسب «براونيز» شعبية مع عديد من المصورين البالغين الجدد، ولكن سُوِّقت الكاميرا في المقام الأول، باعتبارها كاميرا بسيطة مخصصة لمصورين مبتدئين[11]. تعتبر «براوني» مثالًا مبكرًا لبناء ولاء لعلامة تجارية من خلال جذب المستهلكين الصغار.

لقد أدى إدخال «براوني» إلى شيئين لم تضطلع بهما تقنية الوسائط قط من قبل، إذ منح هذا النوع من الكاميرا الأطفال القدرة على تمثيل عالمهم الخاص بهم من منظورهم، وذلك عبر تحويل الكاميرات إلى ألعاب، والتصوير الفوتوغرافي إلى لعبة. كما أظهرت القدرة على تطوير تكنولوجيا جديدة، حركتها احتياجات الأطفال ورغباتهم بدلا من البالغين.

قبل اختراع «براوني»، كانت تكنولوجيا الوسائط الجديدة، بدءا من المطبعة إلى التلغراف إلى الآلة الكاتبة، قد استجابت لحاجات البالغين، وطُوِّرت لتسهيل العمل وليس اللعب. وقد فهم إيستمان قيمة الاهتمام بحاجات الهواة والأطفال، وكذا قيمة التركيز على اللعب بدلا من العمل[12]. إن أهمية رؤى إيستمان وقراره

بشأن تجسيد هذه الأفكار، أضحت واضحة عندما ندرك أن من بعد «براوني» لن يضطلع الأطفال والشباب بدور رئيس في تطوير تكنولوجيا وسائط جديدة إلى حدود السبعينيات. في هذا الوقت، بدأت شركة «أتاري» Atari في تطوير الألعاب مع وضع المستهلكين الشباب في الاعتبار. وبحلول أواخر السبعينيات من القرن الماضي، أطلقت «أتاري» أيضًا فرعا للكمبيوتر المنزلي مع تفويض يقضي بإنتاج أجهزة كمبيوتر سهلة الاستخدام، وصديقة للأطفال قادرة على التنافس مع أجهزة الكمبيوتر التي طرحتها «آبل» في السوق. كان ستيف جوبز، الذي شارك في تأسيس شركة «آبل» في العام 1976، مطور ألعاب ناجحا في «أتاري» في السابق، ومن الواضح أنه سار على خطى الشركة وما تطرحه من رؤى، بشأن قيمة تطوير تقنيات لفائدة المستهلك العادي – بما في ذلك المستهلك الصغير جدًا – بدلا من المديرين التنفيذيين لإدارة الأعمال. أما اليوم، فإن قدرا كبيرا من إرث جوبز يقوم على قرار متابعة نموذجه في العمل الذي حظي بالإشادة، ولكن في هذه المسألة، فإن الفضل الممنوح له من الممكن أن يكون في غير محله. يشير تاريخ «براوني» إلى إدراك جورج إيستمان قيمة تطوير التقنيات من أجل المستهلك العادي قبل أكثر من نصف قرن من ولادة جوبز[13].

ستبقى «براوني» في السوق أكثر من سبعين عامًا. في العقد الأول من وجود الكاميرا، أصدرت «كوداك» أكثر من خمسين نموذجًا مختلفًا ضمن الجهود الرامية إلى تحسين نموذجها الأولي والدعوة إلى سوق دائم التوسع[14]. وعلى مدار الأربعين عامًا التالية، سيصل ما يقرب من مائتي نموذج آخر إلى السوق. خلال هذا الوقت أصبحت الطفولة أيضًا خبرة متزايدة من خلال التصوير الفوتوغرافي، ويبدو أن كوداك تدرك تمامًا حقيقة أن كاميراتها المحمولة والميسورة التكلفة تضطلع بدور ما في هذا التحول. في عدد من مجلة «كوداكري» الصادر في العام 1923، كتب أحد المعلقين، متدبرا فلسفيًا قدرتنا على تذكر الطفولة: «تعد شركة كوداك شريك ذاكرة – شريكا صامتا، وعلى رغم ذلك فهي قادرة على أن تكون بليغة للغاية، ومملوءة بالاقتراحات المثيرة للاهتمام من دون أن تتفوه بكلمة»[15]. وفي إصدار آخر في العام 1923، رُوِّج لكاميرات «كوداك» باعتبارها علاجا ليس فقط لمشكلة النسيان، ولكن أيضًا لميل الذاكرة البشرية إلى المبالغة في الأحداث الماضية المؤلمة.

«لقد ولدت قبل وجود أي من كاميرات كوداك»، يقول مؤلف العمل بحسرة. «وتمنيتُ لو كانت لدي صورة شخصية مضحكة في اليوم الأول الذي ذهبت فيه إلى المدرسة، تلك المدرسة الصغيرة المبنية من الطوب الأحمر، وأنا أحمل غدائي في دلو من صفيحة معدنية غريبة. لدي الذِّكرى، وهي درامية بشكل مخيف. لكنني أرغب في أن تكون بحوزتي هذه الصورة». ويرى الكاتب أنه بمساعدة الصور يصبح من الأسهل تذكر الماضي، وفي الوقت ذاته تجنب «حيل» الذاكرة التي غالبًا ما تبالغ في الذكريات الشخصية أو تطمسها: «ثمة خدعة ماتعة بشأن الذاكرة، تُظهر اللحظات السعيدة على نحو واضح، واللحظات غير السارة ضبابية على نحو كبير»[16]. إن الرسالة واضحة: باستخدام «كوداك»، صار من الممكن تجنب حجب اللحظات غير السعيدة، والعكس بالعكس، لتجنب تذكر الأحداث الصغيرة باعتبارها أحداثا أكثر درامية أو أهمية مما كانت عليه في الواقع. سُوِّقت كاميرات «كوداك»، إذن، باعتبارها مساعدا للذاكرة ومقوِّما مهما – وهي طريقة تتفادى تذكر الطفولة من خلال ما وصفه فرويد قبل عقد من الزمن فقط «ذكريات حاجبة» (ذكريات تمثل حالات من الكبت بالمفهوم الفرويدي)، أو ذكريات في غير محلها تخفي أحداثا من طفولة المرء أو تشوهها على نحو فعال، خصوصا ما تعلق منها بأحداث صادمة[17].

في هذا الصدد، أثرت كاميرا براوني وغيرها من الكاميرات ذات الأسعار المعقولة والسهلة الاستخدام في الطفولة على مستويين. وبقدر ما ساعدت كاميرا براوني في نشر التصوير الفوتوغرافي للأطفال والكبار على حد السواء، أصبحت الطفولة موثقة جيدًا على نحو متزايد. نتيجة لذلك أصبحت الطفولة أيضًا تُذكَر وتُفهَم من خلال الصور. والأهم من ذلك، أن براوني قدمت للأطفال طريقة قابلة للتطبيق للانخراط في تمثيل الذات لأول مرة. وعلى رغم ذلك، لم تكن براوني خالية من القيود الداخلية الخاصة بها.

كان لدى عديد من الأشخاص الوسائل لشراء كاميرا براوني (في الواقع، نشأ مئات الآلاف من الأطفال في أوائل القرن العشرين حتى منتصفه مع هذا النموذج من الكاميرا)، ولكن طوال فترة سيادة براوني على مشهد التصوير، ظلت تكلفة الفيلم وعملية تحميضه تمثلان عقبة. في السنوات الأولى لبراوني، بيع فيلم الكاميرا بخمسة عشر سنتًا للفة الواحدة، وكانت كل لفة توفر ستة تعريضات فقط[18]. بينما تبدو

15 سنتًا قيمة ضئيلة فإن بعض العمال الأمريكيين في العام 1910، كانوا لايزالون يتقاضون أقل من 20 سنتًا في الساعة، بل نادرًا ما كان يكسب التجار المهرة النقابيون أكثر من 50 سنتًا للساعة الواحدة[19]. كما كان من الممكن أن تتجاوز تكلفة اثنتي عشرة صورة فقط أجر العامل البالغ بالساعة. أما بالنسبة إلى معظم الأطفال، فإن فكرة التقاط عشرين صورة أو أكثر في اليوم – وهي ممارسة أضحت شائعة الآن – لم يكن من الممكن تصورها. ولكن لم يكن هذا هو القيد الوحيد المرتبط بكاميرات براوني وكاميرات الصور الشريطية الأخرى في القرن العشرين.

إن ما يمكن للمرء تمثيله في عالم التصوير الفوتوغرافي التناظري، كان أيضًا خاضعًا لقيود؛ إذ كانت التكلفة تمثل أحد هذه القيود – بحيث كان على المصور أن يقرر الأشياء التي لا تُنسى بما يكفي كي تستحق ثمن عملية التحميض. كما كانت الرقابة تشكل أيضا تقييدا آخر. إن أي شخص لا يمتلك كاميرا تُجري عملية التحميض والطباعة الخاصة بها، أو لا ينتمي إلى نادي التصوير الفوتوغرافي، ويتوق إلى الوصول إلى غرفة مظلمة، سيضطر إلى نقل فيلمه إلى متجر تصوير محلي لتحميضه[20]. إن معظم الناس لم يفكروا كثيرًا في الموظفين الذين عملوا في متاجر التصوير الفوتوغرافي أو في أكشاك «الفوتومات» Fotomat المعزولة التي صارت في نهاية المطاف تضطلع بعملية تنقيط مرائب مركز التسوق عبر أمريكا الشمالية من الستينيات إلى الثمانينيات. لكن الأشخاص الذين عملوا في هذه المحلات، وفي مختبرات التحميض وخارجها شاهدوا الصور، وأحيانًا فرضوا الرقابة عليها. وفي العام 1986 نشرت صحيفة «شيكاغو تريبيون» Chicago Tribune مقالًا قصيرًا عن نانسي أونغر Nancy Unger، التي عملت ليلا في مصنع ضخم لمعالجة فوتومات في أديسون Addison بولاية إلينوي Illinois من بين المناظر الطبيعية وحفلات أعياد الميلاد التي لا نهاية لها، نقلت «أونغر» معاينتها آلاف الجثث في توابيت، وأزواج من الأرداف، وحتى مشاهد إباحية منزلية نُظِّمت بعناية. وعلى حد تعبير أونغر، «في هذه الوظيفة، تدرك عدد الأشخاص الغريبين حقًا»[21]. بينما كان لدى فوتومات، مثلها في ذلك مثل معظم مُظهِّري الصور، سياسة ليبرالية نسبيًا بشأن تحميض حتى أكثر الصور فظاعة، بيد أنها ملزمة بموجب القانون بالإبلاغ عن أي مواد إباحية تشمل الأطفال. أما بالنسبة إلى المراهقين، فقد شكل القانون تحديًا؛ بحيث يُسمح

للبالغين عمومًا بإنتاج صورهم الشخصية (صور السيلفي) الفاحشة من دون مساءلة، بينما يمكن أن تعد صور مماثلة التقطها مراهقون لأنفسهم أو بعضهم لبعض، أشكالا محتملة لاستغلال الأطفال بصورة إباحية[22]. بالإضافة إلى الأعين المتطفلة للآباء في العصر التناظري، كانت التمثيلات الذاتية للأطفال والمراهقين تخضع عمومًا للرقابتين الخارجية والذاتية. وعلى رغم ذلك، كانت ثمة تقنية تصوير واحدة، قدمت شيئًا يقارب درجة الحرية التي نشهدها الآن مع الهواتف المزودة بكاميرات رقمية – البولارويد Polaroid (مادة مستقطبة للضوء).

ثقافة الشباب والبولارويد

إذا كانت هناك تقنية توقعت على الأقل بعض أنشطة صنع الصور المحتملة لهواتف كاميرا القرن الحادي والعشرين، فهي تقنية «بولارويد»، وليست «براوني» – وعلى نحو أكثر تحديدًا، بولارويد سوينجر Polaroid Swinger، ولم يكن قد طور إدوين لاند Edwin Land وسوَّق نسخة ميسورة التكلفة من كاميرا لاند Land Camera، إلا في حدود منتصف الستينيات، على الرغم من طرح الكاميرات الفورية لأول مرة في الأربعينيات من القرن الماضي[23]. وقد صُمِّمت «كاميرا لاند» الفورية أولاً وقبل كل شيء لفائدة المصورين الشباب، مثلها في ذلك مثل «براوني».

وعلى رغم ذلك، وعلى عكس الـ «براوني»، سُوِّقت على نحوٍ رئيس للمراهقين، وليس للأطفال[24]. من الواضح أن «لاند» أدركت أن هذه الديموغرافية، لا تمثل جزءًا كبيرًا من السكان فقط – ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى طفرة المواليد في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية – ولكنهم أيضًا مجموعة من المستهلكين الذين يتأثرون بسهولة. ونتيجة لذلك، عندما بدأ في إنتاج نسخة من كاميرته الفورية وتسويقها تسويقا عاما، بناها انسجاما مع حاجات المراهقين ورغباتهم.

كانت الكاميرا، التي أُطلق عليها اسم «سوينجر» على نحو مثير ماتعة، وميسورة التكلفة، ورُوِّج لها على نحوٍ كبير في المجلات التي تركز على المراهقين، مثل مجلة «الفتاة الأمريكية» American Girl، وفي أثناء توقف برامج الستينيات الشهيرة مثل باتمان Batman ومفقود في الفضاء Lost in Space للإعلانات. ولكن كما لاحظ مؤرخ الأفلام بيتر بوس Peter Buse، في حالة كاميرات «بولارويد»، لم يكن

للشباب دورٌ محوريٌّ في الترويج للكاميرا فقط، بل كانوا «أكثر المشاركين الطبيعيين في التصوير الفوتوغرافي الفوري والمتكامل، إذ يرجع إليهم الفضل في فهمها تلقائيًا»[25]. إذا كان هناك أي شك بشأن ادعاء «بوس» أن للمراهقين ميلا طبيعيا نحو تقنية «بولارويد»، فإن المرء يحتاج فقط إلى أن يضع نصب عينيه أنه حتى في عصر الهواتف المزودة بكاميرات رقمية، لايزال تصوير «بولارويد» قائمًا. ولايزال هذا النوع من التصوير هواية شعبية للمراهقات والمراهقين على الرغم من أنه ليس بالتأكيد الشكل الأكثر شيوعًا لصنع الصور لفترة ما بعد العشرينيات من العمر. (إن أوربن أوتفيترز Urban Outfitters، وهو متجر ملابس يستهدف المراهقات والمراهقين والشباب، لديه قسم مخصص لبيع كاميرات «بولارويد» والأفلام واللوازم التكميلية). ولكن ما سر «بولارويد» الذي طالما استهوى المصورين الشباب؟

ثمة سمتان على الأقل من «بولارويد» لم يُوفَّرا مطلقًا من قبل كاميرا «براوني» وكاميرات صور شريطية أخرى. أولاً، عكست «بولارويد» الطابع الزمني للمصور العادي من المراهقات أو المراهقين. ونظرًا إلى أنه لم يكن من الضروري إرسال الشريط من أجل التحميض، فقد كان من الممكن الاستمتاع بصور «بولارويد» على الفور تقريبًا؛ ففي سبعينيات القرن الماضي، أكدت إعلانات «بولارويد سوينجر» سرعة مخرجات الكاميرا من خلال تصوير الشباب وهم يلتقطون صورهم، ويتقاسمونها مع آخرين على الفور. ونادرا ما كانوا يظهرون شخصا ما، يحمل همَّ الاحتفاظ بالصور للأجيال القادمة. في تسعينيات القرن الماضي خطت الإعلانات الخاصة ببولارويد جويكام Polaroid Joycam خطوة أخرى إلى الأمام، حيث صورت المراهقين وهم يتقاسمون صور «بولارويد» في حمام سباحة – وهو فضاء يمثل نقيض الحفظ والحماية تماما[26]. لقد كان مفاد الرسالة التي نقلتها «بولارويد» أن هدف صورهم الفورية كان الاستمتاع في تلك الفترة الراهنة، وليس بالضرورة الحفاظ على الذكريات. كان هذا مختلفًا على نحوٍ ملحوظ عن شركة «كوداك»، التي سوَّقت كاميراتها الميسورة التكلفة باعتبارها أجهزة لصنع الذاكرة.

وكانت قد تمثلت الطريقة المهمة الأخرى التي تميزت بها كاميرا «بولارويد» عن تقنيات صنع الصور السابقة في مدى تجاوزها بفعالية لرقابة كل من الآباء ومُظهِّري الصور. إذا كان التصوير الفوتوغرافي المنحرف يتطلب الوصول إلى غرفة مظلمة

ومعرفة أساسية على الأقل بعمليات التحميض، باستخدام الـ«بولارويد» فإن بلوغ هذه المعرفة لم يعد أمرا مطلوبًا. ومع هذه «اللعبة» الجديدة التي تُصنِّع صورًا فورية، يمكن للمراهقات والمراهقين التقاط صورة فاضحة لأجسادهم أو تصوير أصدقائهم وهم يدخنون خلف مدرستهم الثانوية، والتأكد إلى حد ما من إفلاتهم من العقاب[27]. في الوقت الذي لم تكن فيه هذه الاستخدامات لكاميرات «بولارويد» بالضرورة واسعة الانتشار، فقد تجلى – على الأقل – جزء من جاذبية التكنولوجيا في قدرتها على التحايل إلى حد بعيد على أعين المتطفلين من البالغين – سواء تعلق الأمر بوالديهم أو بالعمال الذين يسهرون على تحميض الصور في مصنع مخصص لهذا الغرض[28].

وبتوفير كاميرا «بولارويد» طريقة لتجاوز رقابة البالغين، تكون قد قربت صناعة الصور من عصر التصوير الحالي والعصر التناظري على حد سواء. أصبح الشباب أخيرًا أحرارًا في تمثيل جوانب من ثقافة الطفولة والشباب التي نُقِّحت بعناية في السابق (إما على نحوٍ استباقي من قبل الشباب أنفسهم وإما من قبل الرقباء البالغين). على هذا الأساس، يقترح «بوس» أن كاميرات «بولارويد» – على الرغم من اختلافها عن الهواتف المزودة بكاميرات – قد أبلغت عن كيفية استخدام الهواتف المزودة بكاميرات حاليا[29].

وعلى رغم ذلك، فإن ما يفصل بين مشاركة المراهقات والمراهقين في تصوير «بولارويد»، والتصوير الرقمي للهواتف المزودة بالكاميرا، هما عاملان لا يمكن التغاضي عنهما: التكلفة وإمكانية مضاعفة نسخ الصور وتداولها على نطاق واسع. بينما كانت كاميرات «بولارويد» ميسورة التكلفة (عند إطلاقها، بيعت بالتقسيط بأقل من 20 دولارًا، واعتبرت في متناول 70 في المائة على الأقل من العائلات الأمريكية)، كانت تكلفة صورها دائمًا مرتفعة نسبيًا[30]. أما الفرق الآخر والأبرز بين صناعة صور «بولارويد» والتصوير الرقمي، فمرتبط بالقدرة المحدودة لصورة «بولارويد» على مضاعفة نسخ الصور وتقاسمها. في نهاية المطاف، تعد صورة «بولارويد» وثيقة فريدة من نوعها، إذ تملك قواسم مشتركة مع الأعمال الفنية الفريدة من نوعها، أكثر مما تملكها مع المنتجات التي تعكس صفات الاستنساخ الميكانيكي أو الرقمي. ومن ثم، فإنه إذا كانت ممارسة التقاط صور «بولارويد»

مشابهة احتمالا لتلك الخاصة بالتقاط الصور الرقمية، فإن النتيجة مختلفة على نحوٍ ملحوظ. وتنتشر صور «بولارويد» باعتبارها مطبوعات عابرة وحميمية، وفريدة، تختلف تمامًا عن الصور الرقمية، مع قابليتها للاستنساخ والنقل.

على الرغم من أن صور الـ«بولارويد» ليست قابلة للاستنساخ بدرجة كبيرة، فإن هذا لا يعني استحالة الحفاظ عليها، ومن ثم، فإن الاعتقاد السائد بميل هذه الصور إلى التلاشي بمرور الوقت هو محض خرافة إلى حد كبير. وإذا لم تتعرض لأشعة الشمس المباشرة، فإن صور الـ«بولارويد» تظل ثابتة مثل معظم تنسيقات الصور الفوتوغرافية القائمة على الصورة. ربما تعكس هذه الأسطورة الطريقة التي تدوولت بها هذه الصور على نحو عام. كثيرا ما تُعرَض صور الـ«بولارويد» على نحوٍ فوري على لوحة الإعلانات، أو تُلصَق على الحائط بدلاً من وضعها في ألبوم صور. إذاً اشتهر التنسيق أو الشكل لاحقًا بتلاشيه بمرور الوقت، وفي الأثناء، بفشله في الرفع من منسوب ذاكرتنا طويلة المدى، فمن المحتمل أن يعكس كيفية اختيار الناس التفاعل مع صور الـ«بولارويد».

أفلام منزلية من شريط سينمائي إلى فيديو

إلى جانب التصوير الفوتوغرافي، تَشَكَّل القرن العشرون على نحوٍ عميق من خلال تقنيتين أخريين على الأقل ستتسربان في نهاية المطاف إلى المجال الخاص، ويتعلق الأمر بالأفلام والفيديو. على الرغم من أن تقنيات الأفلام والفيديو لم تنتشر على نطاق واسع مثل التصوير الفوتوغرافي الثابت بسبب التكلفة والمهارات التقنية اللازمة لتشغيل الكاميرات – منذ أواخر عشرينيات القرن الماضي فصاعدًا – فإن تقنيات صناعة الأفلام المنزلية غيَّرت برغم ذلك الكيفية التي تمر بها تجربة الطفولة والمراهقة وتسجيل مراحلها. وهذا حتما هو السبب الذي جعل الجمالية الواقعية والباهتة للأفلام المنزلية في القرن الحادي والعشرين، السمة المميزة لما كان يعنيه النمو في عصر ما قبل التقنيات الرقمية. والآن يتدفق الفنانون إلى أسواق السلع المستعملة بحثًا عن لقطات أفلام مهجورة، وفي جميع أنحاء العالم، ظهرت أرشيفات الأفلام المفقودة، والتي يتكون الكثير منها إلى حد كبير من أفلام منزلية، للحفاظ – على الأقل – على بعض أعمال القرن العشرين ذاتية الصنع[31]. بل إن المخرجين

المشهورين أنفسهم يضمون في كثير من الأحيان، لقطات فيلم منزلي قديم (أو لقطات تبدو كأنها فيلم منزلي قديم) إلى أفلامهم بوصفها بديلا مثيرا للذاكرة. من الشائع الآن أن تسترجع شخصيات الفيلم لقطات السبعينيات التي يبدو أنها صُوِّرت بتقنية «السوبر 8»، وأن تتذكر لقطات الثمانينيات من خلال مقاطع الفيديو القديمة، كأن الذاكرة نفسها مزودة بمرَشِّحات (فلاتر) خاصة بكل عصر[32]. وفي القرن العشرين لم تُتبنَّ الأفلام المنزلية في المقام الأول باعتبارها تقنيات للذاكرة، على الرغم من هذا المجاز الشائع في الفيلم المعاصر.

بحلول العشرينيات من القرن الماضي، كانت كوداك قد سوَّقت خط إنتاجها الأول من «سيني-كوداك» Ciné-Kodak للعائلات التي لديها الموارد المالية لشراء آخر صيحة في صناعة الأفلام المنزلية. وقد أشارت عالمة الدراسات السينمائية باتريشيا زيمرمان Patricia Zimmermann في كتاباتها إلى تداول الأفلام المنزلية باعتبارها «سينما الذاكرة»، حيث تقدم «دليلًا تجريبيًا على أحداث ضائعة بطريقة أخرى»، ولكنها تعمل أيضًا باعتبارها «تدخلات سياسية، ومناظر خيالية، وأوهام». وغالبًا ما كانت أفلام الهواة هي الشكل الوحيد لتوثيق الصور المتحركة المتاحة، خاصة في مجتمعات الأقليات، لكن هذا لا يعني أنها كانت أفلامًا وثائقية بحتة. وغالبًا ما تخدم هذه الأفلام وظائف متعددة، وقد غُذّيت باستثمارات ورغبات شخصية وجماعية معقدة[33]. وجرى الترويج لها وتبنِّيها باعتبارها تقنيات للتوثيق والحفظ وطرقا لصانعي الأفلام من الهواة لتخيل عوالم محتملة وإنشائها.

صحيح أن كاميرات الأفلام سُوِّقت أحيانًا باعتبارها طريقة من طرق الحفاظ على ذكريات العائلة، لكن منذ إطلاقها في عشرينيات القرن الماضي، رُوِّج لها أيضا من أجل الاستخدامات الإبداعية. على سبيل المثال، قدم كتيب ترويجي صدر في العام 1928 لفائدة «سيني-كوداك»، إرشادات مفصلة ليس فقط بشأن كيفية تصوير حفل زفاف، وطفل يخطو خطواته الأولى، ولكن أيضًا بشأن كيفية تصوير فيلم روائي. الواقع أن العائلات التي اشترت «سيني-كوداك» شُجِّعت على شراء نسخة من كتيب كوداك يضم 132 صفحة بعنوان: «سيناريوهات أساسية للأفلام المنزلية»، حيث يشرح كيفية تحويل القصص الخيالية إلى أفلام يقوم ببطولتها أفراد العائلة. ومن «مسرحية قصيرة» مؤلفة من سبعة مشاهد إلى «إنتاج مفرط» مؤلف

من 122 مشهدًا، شرح الدليل بدقة لمالكي «سيني-كوداك» عملية اختيار الممثلين الشباب وإعدادهم، وإعداد فيلمهم وإطلاقه وتحريره[34]. وأدركت «كوداك» مبكرًا أن كاميرات الصور المتحركة كانت أيضًا تقنيات قد تثير خيال المستخدمين وتمكنهم من إنشاء عوالم وسيناريوهات أخرى.

إن الدليل على الاستخدام الواسع النطاق لكاميرات الأفلام المنزلية المبكرة من أجل الأغراض التخيلية بدلاً من مجرد أغراض وثائقية هو أمر موثق جيدًا في الأعداد السابقة لـ «صانع الأفلام الهاوي» **Amateur Movie Maker**، وهي مجلة لصانعي أفلام الهواة، أنتجتها رابطة سينما الهواة، التي تأسست في العام 1926. لقد تضمن العدد الأول من مجلة «صانع الأفلام الهاوي»، تقريرًا عما وصفه بكونه «أول إنتاج للصور المتحركة للهواة». كما أوضحت المجلة أن قصة الحب بالوكالة Love by Proxy من إنتاج «نحو عشرين شابًا، تخرجوا من فورهم في المدرسة الثانوية»، بقيادة يوجين دبليو راجسدال **Eugene W. Ragsdale**، وهو مراهق من ولاية نيو جيرزي **New Jersey**، كان «يلعب بالكاميرا منذ نعومة أظافره[35]. وعلى رغم ذلك، لم تكن صناعة الأفلام بين الأطفال والمراهقين شائعة قبل أن تصبح كاميرات الفيديو **camcorders** متاحة على نطاق واسع. في كثير من الأحيان، تضع صناعة أفلام الهواة الشباب أمام الكاميرا – بصفتهم إما مواضيع وثائقية وإما ممثلين (فاعلين) – وليس خلفها.

لقد كان معظم صانعي أفلام الهواة الأوائل أرباب أسر من الذكور، وذلك نظراً إلى دقتها من الناحية التقنية، وتكلفتها نسبيا[36]. في الظاهر، يبدو أن ظاهرة الأفلام المنزلية تحركها الرغبة في الاحتفال بالأطفال؛ فلقد أشار مقال نُشر في العام 1929 عن الأفلام المنزلية في مجلة «الآباء» **Parents Magazine** إلى أن «حب الوالدين لأطفالهم هو العامل الأكثر أهمية في تسارع شعبية الأفلام المنزلية حاليًا»[37]. وقد صُمِّمت تقنيات الأفلام المنزلية لأجل الآباء بدلاً من الأطفال، وفق زيمرمان، الذي لاحظ أنه «مع بكراتهم وأجهزة العرض، يمكنهم إطالة أمد نواة الأسرة النموذجية»[38]. وعلى رغم ذلك، هناك على الأقل بعض الأدلة التي تشير إلى أن أسباب صناعة الأفلام المنزلية تمتد إلى ما وراء الدافع الوثائقي. واقترح مقطع في العدد الثاني من «صانع الأفلام الهاوي»، الذي نُشر في العام 1927، أنه على الرغم

من أن بعض أرباب الأسر الذكور اعتنقوا هواية صنع الأفلام باعتبارها طريقة من طرق الحفاظ على أسرتهم المثالية، فقد يكمن الدافع الذي حرك الآخرين بالرغبة في إعادة تخيل عائلاتهم: «إن ما في حوزة هاوي أفلام، آلة لاختراع نفسه؛ يمكنه حتى أن يخترع أطفاله (وبعد أن يجعلهم يبدأون) – أي أن يجعلهم يتغيرون بالطريقة التي يريدها، أو قد يفعل هذا بمجرد إعطاء الأفلام لأطفاله، وقبل أن يدرك ذلك سيشرعون في صنع أنفسهم»[39]. إن هذا الانتقال المثير للفضول هو دليل إضافي على أنه إذا كان التصوير الفوتوغرافي «شريكًا للذاكرة – شريكًا صامتًا»، فإن كاميرا الأفلام المنزلية أدت غرضًا آخر. بالإضافة إلى عمل تقنيات كاميرات الأفلام المنزلية كآلات ذاكرة، يمكن أن تكون أيضا بمنزلة شركاء صامتين في الخيال والرغبة.

تشرح المخرجة زوي بيلوف Zoe Beloff، التي كثيرًا ما تستخرج لقطات أفلام منزلية قديمة في عملها، حيث تقول: «على مدى سنوات عديدة رائعة، فكرت في الفيلم المنزلي بالطريقة نفسها التي فكر بها فرويد Freud في الأحلام والنكات وزلات اللسان - أي باعتباره فيلما يكشف عن أمور أكثر مما كان يقصده صانعو الأفلام أنفسهم على الإطلاق». وتشير بيلوف في سلسلتها «فيلم الأحلام» Dream Film، التي تتكون بالكامل من لقطات فيلم منزلي عُثر عليها، إلى سعيها إلى إبراز «الرغبات المكبوتة والصدمات اليومية التي تظهر في جميع الأفلام المنزلية إذا كنا نعرف كيفية قراءتها»[40]. إن فهم بيلوف للأفلام المنزلية باعتبارها فضاءات يؤدي فيها الممثلون الاجتماعيون - في هذه الحالة، أفراد الأسرة – أدوارا يعبرون فيها عن رغبات مكبوتة وعن صدمات نفسية، توحي بأنه إذا جرى التعامل مع الأفلام المنزلية باعتبارها فضاءات للذاكرة، فمن الأفضل النظر إليها بصفتها وثائق تخفي أشياء أو تزيحها بقدر ما تكشف عنها.

إذا كان صانعو الأفلام مثل بيلوف قادرين الآن على استغلال الحياة المزدوجة للفيلم المنزلي، فإن الأمر يتعلق على نحوٍ كبير بحقيقة أنه من عشرينيات القرن الماضي إلى سبعينياته، أصبحت تقنيات صناعة الأفلام المنزلية متاحة على نحوٍ متزايد، مما مكّن مجموعة واسعة من العائلات من صنع أفلام منزلية. وبحلول الخمسينيات من القرن الماضي، أضحى عديد من عائلات الطبقة المتوسطة والأقل يمتلكون كاميرات أفلام وأجهزة عرض[41]. وعلى رغم ذلك، ظلت طوال هذه الفترة،

تكلفة شراء الأفلام وتطويرها في غير متناول الأطفال العاديين أو المراهقين. وعلى عكس الكاميرات الثابتة، لم تُبذل أي محاولات كبيرة لتسويق كاميرات الأفلام حصريًّا للشباب. ولم يتغير هذا الوضع إلى حين وصول الفيديو.

لقد كان يتعذر الوصول إلى الفيديو المنزلي إلى حد كبير بالنسبة إلى العائلة العادية على مدى أكثر من عقد من الزمان، على الرغم من أن تاريخه يعود إلى سبعينيات القرن الماضي؛ ففي العام 1983 بيعت أول كاميرا فيديو من سوني للاستخدام المنزلي بالتجزئة بسعر 1500 دولار. بعد ذلك بعامين، أخذت الأسعار في الانخفاض بسرعة. وبحلول العام 1985 أصبح ممكنا بالنسبة إلى صانع أفلام ناشئ شراء آلة «ف.م.س» VMC100 من إنتاج شركة أمستراد Amstrad، مقابل 400 دولار فقط. وقد كانت أشرطة الفيديو متاحة مقابل بضعة دولارات فقط مع إمكانية إعادة استخدامها[42]. إن التكلفة المنخفضة نسبيًا للمعدات، والقدرة على التصوير باستخدام أشرطة فيديو جديدة أو أشرطة أعيد تدويرها، والقضاء على عملية تظهير الأفلام، تعني أنه يمكن للمرء الآن التصوير فترات أطول، ويصبح أكثر تهورًا إلى حد بعيد بشأن ما يجب تصويره، في ظل قدر ضئيل من المراقبة الخارجية. ونظرًا إلى أن تسجيل الفيديو – على عكس معظم تنسيقات أو تصميمات الأفلام المنزلية – يتمتع بقدرات تسجيل صوتي، فقد روج الوسيط أيضًا على نحوٍ طبيعي لأنواع جديدة من الأفلام المنزلية، مثل التأريخ الشفهي. كما أن عملية تحرير مقاطع الفيديو أسهل من عملية تحرير الفيلم، فمع قدر من الصبر يمكن أن ينفذها أي شخص لديه إمكانية الوصول إلى شاشة التلفزيون وجهاز التسجيل المرئي. وعلى رغم ذلك، لم يُحرَّر عديد من مقاطع الفيديو المنزلية مطلقًا. وبالنظر إلى إمكانية تشغيل اللقطات التي سجلها أحدهم من فوره إما على الكاميرا نفسها وإما بمساعدة جهاز تسجيل مرئي وشاشة عرض، فقد شاهد عديد من الأشخاص الأحداث المسجلة وهي لاتزال تظهر للعيان. في حفلة من حفلات أعياد الميلاد، على سبيل المثال، قد يسجل شخص ما طفلًا وهو يطفئ الشموع الموضوعة على كعكة، ثم يعيد عرض المشهد على الفور لمرتادي الحفلات.

وضمن هذا السياق استُبدل أخيرًا أرباب الأسر من الذكور باعتبارهم صانعي أفلام منزليين أساسيين. وبحلول نهاية الثمانينيات أصبح من الشائع أن يشتغل

تلامذة المدارس الإعدادية والثانوية في صناعة الأفلام، سواء في المشاريع المدرسية أو من أجل المتعة. يمكن للأطفال والمراهقين إنشاء مقاطع فيديو تعليمية خاصة بهم، والمشاركة أيضًا في أنشطة إبداعية أكثر. والواقع أن الناس، في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، استخدموا كاميرات الفيديو المنزلية في مجموعة كاملة من أنشطة صناعة الأفلام، انطلاقا من تسجيل أعمال مثيرة حمقاء إلى نسخ قائمة على الفيديو من خيال المعجبين ومواد إباحية للهواة[43].

إن كاميرات الفيديو المنزلية تسمح للأطفال بالتحكم في الصور المتحركة، تماما مثلما وفَّرت كاميرا «بولارويد» لهم وللمراهقين مزيدًا من التحكم في أنواع الصور التي ينتجونها. وفي أواخر الثمانينيات كانت هناك محاولة قصيرة الأمد لتحويل كاميرات الفيديو إلى ألعاب. أما في العام 1987 فقد أصدرت فيشر برايس Fisher-Price نموذجها من كاميرا الفيديو PXL-2000، التي سجلت صورًا متحركة بالأبيض والأسود عالية الدقة. من بين الصفات الأخرى التي تتمتع بها كاميرا الفيديو PXL-2000، كونها صغيرة الحجم وخفيفة على نحوٍ استثنائي؛ وعلى عكس أي كاميرا فيديو أخرى، فقد سجلت صورًا متحركة على أشرطة صوتية رخيصة الثمن ومتاحة على نطاق واسع. على الرغم من إنتاج كاميرا PXL-2000 مدة عام واحد فقط (في البداية بيعت بالتقسيط بأقل بقليل من 200 دولار، ثم بسعر لايزال باهظ الثمن، ولكن في المتناول بلغ 100 دولار)، فإن وجودها القصير كشف عن إمكانيات وضع كاميرات الفيديو في أيدي صانعي الأفلام الشباب[44]. ومع وصول الفيديو دخلت حياة المراهقين، وأنماط تمثيل الذات حقبة جديدة؛ إذ يتضح هذا في فيلم الفنانة سادي بينينغ Sadie Benning، بعنوان «مي أند روبيفروت» Me & Rubyfruit، في العام 1989، الذي صُوِّر باستخدام كاميرا PXL-2000 تلقتها بينينغ هدية عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها. إن الفيلم الذي صُوِّر في غرفة نومها، قدم لمحة غير مسبوقة عن الرغبة الجنسية للمراهقات. ومن خلال نص انتُقي من رواية روبيفروت جانغل Rubyfruit Jungle من تأليف الكاتبة ريتا ماي براون Rita Mae Brown في العام 1973، ومن خلال صور مأخوذة من مجلات إباحية وإعلانات الجنس عبر الهاتف، يظل الفيلم - حتى بعد عقود - استكشافًا مثيرا للنشاط الجنسي لدى المراهقين، وللرغبة الجنسية، والشهوة[45]. إن أي شخص شاهد

فيلم بينينغ على أي حال، لن يكون من المحتمل - على رغم ذلك - مهتما بوسيط الفيديو بقدر ما يكون مهتما بحقيقة أن والد المخرجة، الذي أعطاها الكاميرا، كان هو نفسه صانع أفلام. إن بينينغ كانت بالفعل على دراية بدائرة مهرجان الأفلام المستقلة في سن المراهقة، ولديها الاتصالات اللازمة لتأمين العروض؛ فأي مراهق من دون هذه الاتصالات أو الروابط كان سيجد صعوبة كبيرة في الترويج لمنتوجات أفلام الفيديو المستقلة في أواخر الثمانينيات.

على الرغم من إمكانات التحول الديموقراطي لتكنولوجيا الفيديو، فذلك لم يوفر منصة للتداول، بحيث يمكن للمرء نسخ مقطع فيديو وتقاسمه مع الأصدقاء، ولكن على رغم ذلك فإن إنتاجات الفيديو المنزلية نفسها الأكثر انتشارًا لن تصل إلى جمهور يفوق معدل ما نُسِخ. مثل مقاطع الفيديو التي تُنتَج عادةً في نسخ مطبوعة من 25 إلى 50 نسخة فقط، ظلت مقاطع الفيديو المنزلية مواد محدودة من حيث الإصدار. ولم تكن فريدة من نوعها، مثل صور «بولارويد»، بل قابلية الاستنساخ لم تكن قط سمة مميزة للفيديو المنزلي. وعلى رغم ذلك، فإن ما توقعه عدد قليل من الناس في الثمانينيات هو أن تسجيلات الفيديو قد تكون سريعة الزوال أيضًا. بالإضافة إلى حقيقة أن كلا من تنسيقات «بيتاماكس» Betamax و«في إتش إس» VHS (أي نظام الفيديو المنزلي)، ستصبح شبه بائدة عندما تكتسب التنسيقات الرقمية، مثل «دات» DAT (أي شريط صوتي رقمي) و«دي في دي» DVD (أي مشغل أقراص الفيديو الرقمية)، شعبيةً، فإن أشرطة الفيديو ستثبت أيضًا أنها معرضة لأشكال مختلفة من التعرض البيئي **environmental exposure**. تعد شرائط «بيتاماكس» و«في إتش إسْ» من بين أكثر تنسيقات الوسائط هشاشة في الوجود؛ فمن دون تخزين مناسب أو تحول إلى تنسيق أكثر ثباتًا، فإن العديد من مقاطع الفيديو التي صُوِّرت في الثمانينيات والتسعينيات، لن تصمد إلى غاية الثلاثينيات من القرن الواحد والعشرين. ولكن بالنسبة إلى أولئك الذين نشأوا في عصر الفيديو، قد توفر هشاشة الوسيط فترة راحة مؤقتة مُرَحَّبًا بها من الماضي. بينما لايزال عديد من مقاطع الفيديو المنزلية المُحرِجة من ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي موجودا، فإن قلة قليلة منها فقط لاتزال قابلة للعرض والمشاهدة، حتى لو كان بإمكان المرء الوصول إلى جهاز فيديو بالتنسيق المناسب.

توثيق الطفولة والمراهقة في عصر وسائط التواصل الاجتماعي

لطالما كان الأطفال والمراهقون من الموضوعات المفضلة للتمثيل الفني؛ فمع ظهور التصوير الفوتوغرافي، تمكنوا أخيرًا، وإن صاحب ذلك بعض القيود، من تمثيل أنفسهم بأنفسهم. أما اليوم، مع مزيج من وسائط الإعلام الرقمية ومنصات الوسائط الاجتماعية، فنحن نعيش حقبة جديدة وغير مسبوقة، من صناعة الصور التي لها عواقب محددة على الشباب. منذ أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، تغير محتوى التصوير الشخصي وحجمه وسياقه، وصناعة الأفلام المنزلية، وفي الأثناء، أصبح الشباب يؤدون أدوارا أكبر في كلتا العمليتين.

وحتى في فترة لاحقة من التصوير الفوتوغرافي التناظري، لايزال محتوى الصور يعكس درجة عالية نسبيًا من الانتقائية (لأن لكل صورة تكلفة) والرقابة (التي يقف وراءها البالغون). وما لم يكن بإمكان المرء الوصول إلى غرفة مظلمة، فلا بد من طرف ثالث يشارك في عملية التظهير أو التحميض. على الرغم من أن تقنيات «بولارويد» وضعت التظهير في يد المصور، فإنه لا يمكن إعادة إنتاج الصور المتحصل عليها. وكانت الصور التي أنشأها الشباب في العصر التناظري مختلفة على نحوٍ ملحوظ عن قدر كبير من المحتوى الرقمي اليوم. بصراحة، في عصر فوتومات Fotomat، كان على المراهق الذي يأمل الانخراط في التناظرية المكافئة لإرسال الرسائل النصية الجنسية أن يخاطر أولاً بأخذ الفيلم إلى كاتب يعمل في متجر التصوير الفوتوغرافي المحلي، ويتمنى أن يكون كل من كان يعمل في معمل التحميض مرهقًا جدًا بحيث لا يلاحظ المحتوى المشبوه على لفافة الفيلم، ثم يجد طريقة سرية لإرسال الصورة إلى المتسلم المقصود. في الوقت الذي تمكن فيه عدد قليل من المراهقين من تجاوز مثل هذه العقبات، لم يكن هناك ما يعادل انتشار الرسائل الجنسية على نطاق واسع اليوم. بعبارة أخرى، بينما لم يكن عصر التصوير الفوتوغرافي للأفلام السينمائية والبولارويد بريئًا بأي حال من الأحوال، لم تنجح أي من التقنيتين في إنشاء نوع المحتوى الممكن في العصر الرقمي. وعلى رغم ذلك، لم يكن المحتوى الأمر الوحيد الذي طرأ عليه تغيير.

لقد ارتفع عدد الصور ومقاطع الفيديو التي تُلتَقط يوميًا على نحوٍ صاروخي، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى أن إنتاج الصور والفيديو أصبح الآن مجانيًا على

نحوٍ أساسي. وبمجرد أن يمتلك المرء هاتفًا ذكيًّا – وفي عديد من الأماكن في العالم، حتى طلاب المدارس الابتدائية يمتلكون ذلك – فإن تكلفة إنتاج الصور وتداولها لا تكاد تذكر. في العام 2000 التُقِط 80 مليار صورة فقط حول العالم. أما بحلول العام 2015 فقد ارتفع هذا الرقم إلى أكثر من تريليون، 75 في المائة منها صُوِّرت بهاتف محمول[46]. في الوقت الذي أصبح مستحيلا تحديد النسبة المئوية الدقيقة للصور التي التُقطت من قبل أشخاص تقل أعمارهم عن ثمانية عشر عامًا، تبقى هناك أسباب مقنعة للاعتقاد في تمثيل المصورين الأطفال والمراهقين أنفسهم على نحوٍ غير متناسب. وخلص أحد التقديرات للعام 2015 إلى أنه على الـ «سناب شات» Snapchat - وهي منصة لمشاركة الصور تحظى بشعبية خاصة بين الأطفال والمراهقين - يتقاسم المستخدمون 8796 صورة كل ثانية وأكثر من 30 مليون صورة في الساعة[47]. وعلى رغم ذلك، فإن التحول الأكثر عمقًا الذي يحدث مع ظهور الوسائط الرقمية، ومع وسائط التواصل الاجتماعي بخاصة، قد يكون هو الجمهور المحتمل الموجود حاليا بالنسبة إلى الصور الخاصة للفرد.

على مدى عدة عقود، كانت الصور الفوتوغرافية والوسائط الأخرى، بما في ذلك الأفلام المنزلية، موجودة فقط في نسخ فردية أو نسخ محدودة. وربما تكون طبعت صورة لمناسبة خاصة في نسختين أو ثلاث، وقد يُنسخ مقطع فيديو منزلي لحدثٍ ما مثل حفل زفاف للأصدقاء المقربين والأقارب، ولكن في معظم الحالات، نادرًا ما تنتقل الصور الفوتوغرافية والأفلام المنزلية خارج نطاق المجال الخاص للمنزل. ومع اقترابنا من نهاية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، اتسع سياق الصور الخاصة على نحوٍ كبير. فإذا عُرضت الصور الفوتوغرافية السابقة بعناية، ولكن تُدوولت على نحوٍ نادر، فنحن نعيش الآن في عصر لا يولي اهتماما على الإطلاق بتركيب الصور، وعلى رغم ذلك فقد نما تداولها المحتمل على نطاق واسع على نحو لا يمكن فهمه. وينطبق الشيء نفسه على الصور المتحركة. إذا كان تصوير فيلم منزلي في يوم من الأيام محاولة معقدة ومكلفة، تتطلب التخطيط الدقيق والاختيار، ففي القرن الحادي والعشرين أصبح ذلك مجرد نشاط من الأنشطة اليومية القائمة على الشاشة، من بث مقاطع الفيديو إلى التواصل على «التواصل المرئي» FaceTiming مع الأصدقاء. إن بث الصور من اللحظات اليومية لملايين المشاهدين، يمكن أن يتم حاليا مجانا وخلال وقت سريع جدا.

لم يعد الأطفال والمراهقون مهمشين كما كان الأمر في السابق، بل أصبح لهم حضور في الصور، ولم تعد عيون البالغين تمثلهم فقط، وهذا صحيح على ما يبدو، وإن كانت ثمة اختلافات ملحوظة حول العالم[48]. وكلما اقتربنا من نهاية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، أمكن للشباب الوصول إلى تقنيات الصور الثابتة والمتحركة، والمنصات اللازمة لنشر الصور. في المستقبل، ستُرى الطفولة والمراهقة وتُفهَم على نحوٍ متزايد من خلال وجهة نظر الأطفال والمراهقين بدلاً من وجهة نظر البالغين. وهذا تحوُّل مرحب به. فإذا كان مصير طفل في الخمسينيات أو السبعينيات من القرن الماضي هو أن ينتهي به المطاف ممثلا في فيلم عائلي صامت من تنسيق رب الأسرة، فإن الأطفال والمراهقين أصبحوا الآن قادرين على إخراج أفلامهم وتصويرها والتمثيل فيها. هناك أيضًا جمهور متزايد مهتم بالإبداعات الإعلامية للشباب. بينما يستمر معظم الأطفال والمراهقين في إنتاج وسائل الإعلام للأصدقاء والعائلة، يمكنهم أيضًا الوصول إلى جمهور أوسع[49]. إن قيمة وضع وسائل الإعلام في أيدي الشباب ليست محل نقاش هنا؛ بل القضية التي يسعى هذا الكتاب إلى استكشافها هي: ماذا يحدث عندما تُتداول هذه التمثيلات العفوية إلى حد كبير للطفولة والمراهقة على نطاق واسع وإلى أجل غير مسمى، وتتحول في الوقت ذاته إلى بيانات؟ وفي نهاية المطاف، من هو «موضوع البيانات» هذا؟ وكيف يتمكن هؤلاء الأطفال والمراهقون من نسيان وتحقيق تجربة نسيانه الضرورية والمتحررة التي تحدث أحيانا؟

2

الناسي والمنسي في عصر صاحب البيانات الشخصية

أن نَنسى وأن نُنسى هما أمران يحملان مضمونا خاصا وفق الأطفال والمراهقين؛ بل إن عملية النمو تتوقف على نسيان المرء لذاته الصغيرة وعلى عملية نسيانها من قبل الآخرين – على الأقل أجزاء تلك الذات التي لا يستطيع المرء تحملها للمضي قدمًا إلى مرحلة البلوغ. وكما أؤكد في هذا الكتاب، تتداخل تقنيات الوسائط الرقمية مع هذه العملية. بينما تبقى عواقب هذا التداخل غير معروفة أو مفهومة بالكامل بعد، فلا شك في أنني لست الشخص الوحيد المهتم بالتأثير المحتمل.

كانت المحاولات الأخيرة لسن تشريع، يدعم «الحق في النسيان»، تحركها جزئيًا - على الأقل - المخاوف المتعلقة بالأطفال والشباب. وقد أولى

«إن نيتشه حازم بشأن الشخص الذي لا يستطيع النسيان، إذ يجرده من السعادة والأمل والفورية. إن الشخص الذي لا يستطيع أن ينسى «لا يمكنه» التعامل مع أي شيء»

اقتراح من المفوضية الأوروبية (EC) بشأن الحق في النسيان اهتمامًا خاصًا في الأصل، «بأصحاب البيانات» الشابة: «يحق لصاحب البيانات أن يحصل من المراقب (أو المسؤول عن وحدة التحكم) على محو البيانات الشخصية المتعلقة به والامتناع عن نشر مزيد من هذه البيانات، لا سيما فيما يتعلق بالبيانات الشخصية التي أتاحها صاحب البيانات في أثناء طفولته»[1]. في خطاب في العام 2012، شددت فيفيان ريدينغ Viviane Reding، نائب رئيس المفوضية الأوروبية آنذاك، على هذه النقطة: «يجب أن يكون الفرد في أفضل وضع لحماية خصوصية بياناته، يخول له الحق في توفيرها أو حجبها. لذلك من المهم تمكين مواطني الاتحاد الأوروبي، والمراهقين بخاصة، من التحكم في هويتهم عبر الإنترنت»[2]. وعندما دخلت اللائحة العامة لحماية البيانات General Data Protection Regulation للاتحاد الأوروبي حيز التنفيذ أخيرًا في العام 2018، كان التشريع مايزال يحتوي على أحكام تتعلق بجمع البيانات الخاصة بالأطفال دون سن السادسة عشرة ومعالجتها[3].

كما حُدد أصحاب البيانات الشابة من الحماية في سلطات قضائية أخرى. منذ العام 2015، كان للقاصرين في كاليفورنيا، وليس البالغين طبعا، الحق في طلب حذف المعلومات التي ينشرونها عبر الإنترنت، ويجب على الشركات الموجودة في الولاية إخطار جميع القاصرين وأولياء أمورهم بهذا الحق[4]. وعلى رغم ذلك، لا تنطبق تشريعات كاليفورنيا إلا على المواد التي ينشرها الشاب على الإنترنت بنفسه، وليس على المواد التي ينشرها الآخرون؛ بل يذهب التشريع الناشئ في المملكة المتحدة إلى أبعد من ذلك بكثير؛ إذ استعدادًا لخروج هذه الدولة من الاتحاد الأوروبي، يعمل المشرعون فيها على صياغة قوانين محو البيانات التي من شأنها أن تحل محل اللائحة الأوروبية العامة لحماية البيانات وتوسع نطاقها. يحتوي مشروع قانون حماية البيانات الخاصة بالمملكة المتحدة، الذي صِيغ في سبتمبر 2017، على ثلاث وعشرين إشارة إلى كلمة «طفل»، ويوفر حماية قوية للأطفال والمراهقين[5].

إن تركيز قوانين محو البيانات في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية على الشباب ليس مفاجئًا تمامًا، لأن هذه القوانين تعكس الافتراض الشائع أن الأطفال والمراهقين يفتقرون إلى الحكم الرشيد sound judgment. ولكني لا أركز هنا على قدرة القاصرين على تقييم ما ينشرونه على الإنترنت، بل أستكشف، بدلا من

ذلك، أهمية حق المرء في أن يُنسى – والحق في النسيان، والذي غالبًا ما يتوقف على نسيان الآخرين للمرء – خاصة بالنسبة إلى الشباب. إن النمو بقدر ما هو عملية أن ينسى المرء ذكراه ويُنسى فهو تراكم للمعرفة والتجارب. نتيجة لذلك، يجب إعادة التفكير جذريًّا في المخاوف القديمة بشأن الأطفال والمراهقين ووسائل الإعلام. وبدلا من السؤال عن كيفية حماية الشباب من المترصدين عبر الإنترنت، فإن السؤال الحقيقي الذي يجب طرحه هو كيفية حمايتهم من أنفسهم، وعلى نحو أكثر تحديدًا، من الذوات التي قد يرغبون في نهاية المطاف في تركها وراءهم عند بلوغهم سن الرشد.

وجهات نظر تعويضية عن النسيان

يُفهم النسيان الجماعي، مثل الذاكرة الجماعية، عمومًا باعتباره ظاهرة اجتماعية. بينما يوجد بالتأكيد عديد من الأسباب التي تجعل الناس ينسون على نحو جماعي، غير أن النسيان الجماعي يوصف دائمًا بعبارات سلبية. وهذا ليس مفاجئًا، لأنه غالبًا ما ينطوي على شكل من أشكال النسيان يدعم تفويضًا سياسيًا محددًا، مثل نسيان إرث الاستعمار أو العبودية[6]. على النقيض من ذلك، غالبًا ما يُمثل النسيان الفردي باعتباره عملية تعويضية من قبل الفلاسفة والمحللين النفسيين وعلماء النفس التجريبي.

في كتابه «في علم الأنساب في الأخلاق» On the Genealogy of Morality، استنتج فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche، أن النسيان قد يكون ببساطة مسألة إغلاق أبواب ونوافذ الوعي. فالمرء يحتاج - من وقت إلى آخر - إلى إغلاق وعيه، تمامًا مثلما يغلق باب الدراسة للتركيز على العمل:

> إغلاق أبواب الوعي ونوافذه فترة؛ وعدم الانزعاج من الضوضاء والمعركة التي يعمل بها عالمنا السفلي من الأعضاء الصالحة للخدمة بعضنا مع بعض وبعضنا ضد بعض؛ قليل من السلام، قليل من وعي جديد لإفساح المجال لشيء جديد، وقبل كل شيء لأجل وظائف والموظفين أنبل، للحكم والتنبؤ والتقدير المسبق (إن نظام كائننا الحي، يعمل على طول خطوط الأوليغارشية، كما ترى) - هذا، كما قلت - هو

> فائدة النسيان النشط، مثل البوّاب أو الوصي على النظام العقلي والراحة والآداب: إذ يمكننا من خلاله أن نرى على الفور كيف تنعدم إمكانية وجود السعادة، والابتهاج، والأمل، والكبرياء، والفورية، من دون نسيان.

إن نيتشه حازم بشأن الشخص الذي لا يستطيع النسيان، إذ يجرده من السعادة والأمل والفورية. إن الشخص الذي لا يستطيع أن ينسى «لا يمكنه» التعامل مع أي شيء. وعلى رغم ذلك، يسترسل في قوله مشيرا إلى تناقض غريب ومتأصل في البشر: «بالضبط هذا الحيوان الذي ينسى بالضرورة، والذي يمثل النسيان فيه قوة، ويمثل شكلا من أشكال الصحة القوية، قد ربّى في نفسه جهازًا مضادًا – ذاكرة – إذ بمساعدتها يمكن تعليق النسيان في بعض الحالات». وبدلا من رؤية النسيان شيئًا يهدد الذاكرة، يناشد نيتشه قرّاءه التفكير في سيناريو معاكس – سيناريو تهدد فيه الذاكرة الممارسة الضرورية والمرحب بها للنسيان. ويصر على أن «النسيان ليس مجرد قوة قصور ذاتي ساكنة vis inertiae، كما يعتقد الناس السطحيون، بل هو بالأحرى قدرة نشطة على القمع، وإيجابية بالمعنى الأقوى للكلمة»[7].

منذ فترة نيتشه إلى الآن، طُرحت قراءات تعويضية أخرى للنسيان من قبل مفكرين عبر تخصصات متعددة. إن ملاحظة سيغموند فرويد Sigmund Freud القائمة على فكرة أننا كثيرًا ما ننسى أو نشوِّه الأحداث باعتبار ذلك طريقة من طرق التعامل مع تلك الأشياء التي نجدها غير محتملة أو مؤلمة، هي على الأرجح القراءة التعويضية الأكثر شهرة للنسيان، لكنها بالتأكيد ليست المحاولة الوحيدة لإثبات الوظيفة المحتملة للنسيان. لقد لاحظ عالم النفس فريدريك بارتليت Frederic Bartlett، في عمله «التذكر» Remembering في العام 1932، أن النسيان قد يحمل «أهمية نفسية كبيرة»[8]. وفي الآونة الأخيرة، أكدت مجموعة متزايدة من الأعمال فوائد النسيان؛ فلقد طور أيضا عالما الأعصاب مايكل أندرسونMichael Anderson وسيمون هانسلماير Simon Hanslmayr مفهوم «النسيان المحفز». فهما يعتبران أن «الحفاظ على المشاعر الإيجابية أو التركيز، والإيمان بحالة معينة، والثقة، أو التفاؤل، قد يقتضي ضرورة تقليل إمكانية الوصول إلى التجارب التي تقوض تلك الحالات»[9]، تماما كما فعل نيتشه الذي يقترح أن النسيان ضروري للحفاظ على بعض مظاهر السعادة والبهجة والأمل والفخر. وعلى نحو مماثل، يلاحظ عالم النفس التجريبي بنجامين ستورم Benjamin Storm،

أنه بقدر ما قد يبدو النسيان محبطًا، فسنكون أحسن حالا بكثير بوجوده مقارنة بعدمه[10]. وفي عصر الإعلام الرقمي، على رغم ذلك، القدرة على «إغلاق أبواب الوعي ونوافذه فترة من الوقت» التي كانت في السابق تحصيل حاصل، أصبحت الآن في خطر.

في القرن الحادي والعشرين، حتى استعارة نيتشه تبني معنى مختلفا للغاية؛ فمن المرجح الآن، أن تستحضر كلمة «نافذة»، في نهاية المطاف، النافذة على شاشة من الشاشات أكثر مما تستحضر السّمة المعمارية التي لمّح إليها في الأصل. لكن إغلاق النوافذ الموجودة على أجهزتنا يختلف اختلافا كبيرًا عن إغلاق النوافذ في منزلنا. إن إغلاق النوافذ وسحب الستائر يحجب عنا الرؤية، ولكنه يمنع أيضًا العالم من إمعان النظر. عندما نغلق نوافذ جهاز رقمي، لم يعد بإمكاننا رؤية ما هو موجود (على الإنترنت التي أُغلقت)، ولكن هذا الفعل لا يمنع الآخرين من التحديق أو إمعان النظر. بينما نأخذ قسطًا من الراحة، يمكن للآخرين مراقبتنا والاستمرار في ذلك (ويسجل حتى أوقات عدم نشاطنا). تؤكد استعارة النافذة بجدارة الاختلاف الحاصل بين تجربة أن ننسى وأن نُنسى في العالم التناظري والرقمي.

إذا كانت تجربتَيْ أن تَنسى وأن تُنسى متشابكتين ذات يوم، فلم يعد الأمر كذلك الآن؛ ففي العالم الرقمي، يمكننا إغلاق نوافذنا أو حتى تسجيل الخروج تمامًا من الشبكة. ولكن عند تسجيل الخروج – على الرغم من تقليص بصمتنا الرقمية (البيانات التي نتركها وراءنا) – تستمر ظلال بياناتنا (المعلومات التي يولدها الآخرون عنا) في التضاعف. باختصار، إن رغبة الفرد في النسيان (إغلاق النوافذ، وحذف بياناته، وقطع الاتصال، وفك الارتباط) ليس لها تأثير يذكر في نسيان الآخرين للمرء، لأن موضوع (صاحب) البيانات يظل نشطًا حتى إن مكث الفرد الذي يرتبط به في سبات. ويستمر موضوع البيانات لدينا في التوسع، ويكتسب الشهرة من دون علمنا، يقلق محاولات تحقيق «النسيان النشط» الذي اعتبره نيتشه ضروريًّا جدًا للصحة العقلية والاطمئنان. على هذا الأساس، تقترح الباحثة القانونية أنطوانيت روفروي Antoinette Rouvroy أن ما قد نشهده الآن هو انعكاس جذري لصيغة نيتشه:

> كل هذا يشير، على وجه الخصوص، إلى إمكانية انعكاس العلاقة بين الذاكرة والنسيان: «القدرة على النسيان» المنقوشة بيولوجيًّا في الإنسان، وهي حالة صحية قوية وفقًا لنيتشه، مما يفسح المجال «لملكة الذاكرة» غير

> البيولوجية... بينما كافحت البشرية تاريخيًّا ضد حدود الذاكرة، مع النسيان السائد على نحو افتراضي، يبدو أننا الآن منخرطون في عملية تُعكَس من خلالها العلاقة بين النسيان والذاكرة. وعلى نحو افتراضي، ستُسجل جميع المعلومات (الصوتية، والمرئية، والنصية) قريبًا وتُحفظ في شكل رقمي، وسيصبح النسيان، الذي يتطلب المحو النشط للبيانات، استثناءً وليس قاعدة[11].

ولكن ما العواقب المؤدية إلى عدم قدرة النسيان النشط على تجاوز الذاكرة المنتشرة للبيانات، خاصة لدى الأطفال والمراهقين؟

مواضيع من دون حدود أو حظر تجوال

في قلب المناقشات بشأن الحق في النسيان، ثمة فاعل اجتماعي جديد ومايزال غامضًا – «موضوع البيانات»، إذ يشكل تعريفه تحديا، على الرغم من الاستخدام الواسع لهذا المصطلح في الأدبيات القانونية؛ ففي بعض السياقات، يشير موضوع البيانات إلى مجموعة من البيانات المتعلقة بموضوع معين. وفي حالات أخرى، يستخدم المصطلح لوصف أي «شخص طبيعي» محدد الهوية أو يمكن تحديد هويته. لكن المفهوم عادة لا يشير حصريًّا إلى مجموعة من البيانات أو إلى شخص طبيعي، بل يشير إلى علاقة بين الاثنين. كما يُحدد موضوع البيانات، في هذا الصدد، من خلال علاقته أو علاقتها (أو علاقة هذه البيانات) بشخص طبيعي ما. فعلى سبيل المثال، إن موضوع البيانات الخاص بي، موجود إلى الحد الذي أنا موجود فيه أيضًا، وهذا هو المكان الذي تبدأ فيه الأشياء في التكشّف. وفي نهاية المطاف، عندما أموت (أي عندما لم أعد أمثل حضورًا ماديًّا في هذا العالم)، قد يستمر موضوع بياناتي في الوجود. بينما يعتمد موضوع البيانات في البداية على وجود شخص طبيعي، فقد يراكم بمرور الوقت ما يكفي من هيئة «ليعيش أطول» من الشخص الذي كان مرتبطًا به ذات مرة. وهذا ما يفسر سبب امتلاك بعض الأشخاص الآن «وصايا وسائط التواصل الاجتماعي»[12]. وهذا هو أيضًا سبب استحقاق موضوعات البيانات الخاصة بالأطفال والمراهقين اهتمامًا خاصًا.

يعد الأطفال والمراهقون عرضة للتغيير على نحو خاص، على الرغم من أن الأشخاص من جميع الأعمار يخضعون لهذا التغيير بمرور الوقت؛ إذ إن المرء على

نحو عام، هو شخص مختلف تمامًا في التاسعة عنه في الثالثة عشرة، ثم مرة أخرى في الثانية والعشرين. المشكلة التي تواجه موضوعات البيانات الشباب تكمن في كون مواضيع بيانات شخص ممن يبلغ من العمر تسعة أعوام وثلاثة عشر عامًا، قد يعيش أكثر مما هو مرغوب فيه، ويتداخل مع القدرة على الاستمرار في حياة البالغين الناشئين. بينما تكون الأجيال السابقة من الشباب قد واجهوا أيضًا عودة ذواتهم الصغيرة من حين إلى آخر (على سبيل المثال، في شكل صورة عائلية محرجة أو كتاب سنوي للمدرسة الثانوية)، فإن هذه الذوات (أو تمثلات الذوات) كانت لها حدود صارمة وحظر تجوال – لم تكن تقريبا حرة في التنقل عبر المكان والزمان.

حتى الآن، تعد الاستجابة الأكثر إدراكًا للتذكر العشوائي والعفوي – على ما يبدو – لموضوعات البيانات، مفهوم الحق في أن نُنسى. وهذا الحق، الذي يُعلم الآن تشريعات محو البيانات في أوروبا، ومايزال يحظى باهتمام الباحثين القانونيين في ولايات قضائية أخرى حول العالم، يدرك أنه في العالم الرقمي، حيث أصبح التذكر منتشرًا للغاية، نحتاج أحيانًا إلى التدخل لتصحيح التوازن[13]. ويقترح المُنظِّر القانوني الهولندي بيرت جاب كوبس Bert-Jaap Koops أن ثلاث دلالات مترابطة ذات آثار قانونية، وأخلاقية، واجتماعية أوسع، تدعم الحق في النسيان. أولا، قد يرى المرء أن التشريع يروج «لسجل نظيف» أو «بداية جديدة». وهذا المفهوم بالفعل منح معنى جوهريا لعديد من مجالات القانون، بما في ذلك القانون الجنائي للأحداث وتقارير الائتمان، وهو مصمم للترويج لشكل صحي من أشكال «النسيان الاجتماعي». لكن كوبس يحدد افتراضين إضافيين: «منظور اجتماعي يقضي بعدم ضرورة استخدام المعلومات السلبية التي عفَّى عليها الزمن ضد الناس»، و«منظور تنمية ذاتية فردية، يقضي بعدم شعور الناس بأي قيد لدى تعبيرهم عن أنفسهم في الوقت الحاضر، ومن دون خوف من العواقب المستقبلية». بالنسبة إلى كوبس، لا تكمن المخاطرة في الحق في أن نُنسى فقط في الحق في تجنب جر الماضي العفوي إلى الحاضر، ولكن أيضًا الحق في عدم مواجهة ماضيه بطريقة من شأنها أن تعطل قدرة المرء على النسيان. كما يلاحظ كوبس أن الحق في أن نُنْسى «يسلط الضوء على أهمية القدرة على النسيان، والقدرة على التصرف من دون خوف من أن أفعالك الحالية قد تطاردك بقية حياتك»[14].

يبدو من المعقول أن نستنتج أن النسيان مهم لأسباب عديدة، بما في ذلك التطوير الذاتي للفرد؛ فعندما لا يكون هناك نسيان، أو عندما يكون النسيان هو الاستثناء وليس القاعدة، فإن الأنشطة المحفوفة بالقليل من المخاطر، بما في ذلك تلك التي تشكل جزءًا لا يتجزأ من النمو، ستصبح من الخطير جدًا تنفيذها. إذا كان المراهقون في السابق لهم الحرية تقريبا في تغيير أسلوبهم، محاولين قياس ملابس وسياسات وهويات مختلفة، فهناك خطر الآن من أن هذه «المراحل» (كما يصفها الكبار في كثير من الأحيان باستخفاف) ستبقى مجسَّدة على نحو دائم على الإنترنت، وسوف تحدد هوية الفرد بعد اللحظة التي تُبنيت فيها. لكن بأي ثمن؟ سواء أكان المرء مستعدا للكشف عن كل شيء ويدفع، من ثم، ثمن ذلك، أم يتوخى الحذر على نحو مفرط، متجنبا الاضطلاع بأنواع المخاطر التي تشكل جزءًا من اكتشاف الذات، فإن العيش في عالم تنسى فيه ذكرياتك وتُنسى أمر صعب وبعيد المنال على نحو متزايد، له تبعات.

النسيان وتطور الهوية في العصر الرقمي

اليوم، حتى الحوادث الصغيرة تتكرر إلى ما لا نهاية في غرفة صدى الإنترنت؛ ولكن من المدهش إلى حد ما، ألا يكون هذا هو الحال دائمًا. في وقت مبكر، وعدت شبكة الإنترنت بتوفير مساحة آمنة على نحو استثنائي لاستكشاف إلى أقصى درجة ممكنة في سياسة الفرد وهويته ورغباته من دون عواقب[15].

في التسعينيات، لجأ عدد كبير على نحو مفاجئ من الناس إلى شبكة الإنترنت على وجه التحديد، لأنها وعدتهم بتحريرهم من أغلال العالم المادي، ومن تاريخهم. لقد تُبنيت، إلى حد ما، لأنه كان يُنظر إليها على أنها فضاء للنسيان. كما كتبت عالمة الاجتماع شيري توركل Sherry Turkle في كتابها في العام 1995 «الحياة على الشاشة» «Life on the Screen: عندما نخطو عبر الشاشة إلى المجتمعات الافتراضية، نعيد بناء هوياتنا على الجانب الآخر من المرآة[16]. زعمت توركل في ذلك الوقت، أن هذه العملية وفرت لنا وصولا غير محدود لاستكشاف وأداء أدوار هويات جديدة. لكنها ظلت حذرة، محذّرةً في قولها: إننا نقطن في مكان يوجد بين الواقعي والافتراضي، غير متأكدين من موقعنا، ونخترع أنفسنا بينما نمضي قدمًا[17]. وعلى رغم

ذلك، على نحوٍ عام، كان عمل توركل المبكر بشأن المجتمعات عبر الإنترنت متسقًا، مع الاعتقاد الواسع في ذلك الوقت في قدرة شبكة الإنترنت على تحريرنا[18].

ركزت توركل في كتابها «الحياة على الشاشة» على عوالم الألعاب عبر الإنترنت والمجالات متعددة المستخدمين (MUDs)، التي سمحت لأي شخص لديه جهاز حاسوب واتصال بالإنترنت ومهارات الحاسوب الأساسية، بإعادة ابتكار نفسه كما يحلو له، واستكشاف الأكوان البديلة، ثم الانتشار عبر الإنترنت. وأشارت توركل إلى أنه في هذه الفضاءات، «لا يلزم أن تكون الشخصيات بشرية؛ فهناك أكثر من جنسين. إن اللاعبين مدعوون للمساعدة في بناء عالم الحاسوب نفسه. فباستخدام لغة برمجة بسيطة نسبيًا، يمكنهم إنشاء غرفة في فضاء اللعبة حيث يمكنهم تهيئة المنصة، وتحديد القواعد». وكانت هذه العوالم مفتوحة للناس من جميع الأعمار. وفي أحد الفضاءات، ذكرت توركل أنها واجهت لاعبة تبلغ من العمر 11 عامًا، بنت غرفة أسمتها «الشقة الخاصة» the condo إنها مفروشة على نحو جميل. لقد ابتكرت مجوهرات سحرية، ومكياجا لمنضدة التزيين الخاصة بها. وعندما تزور الشقة الخاصة، تدعو أصدقاءها عبر الإنترنت للانضمام إليها هناك، وهي تدردش وتطلب بيتزا افتراضية وتغازل[19].

بالنسبة إلى الأطفال والمراهقين الذين نشأوا في التسعينيات (وحتى بالنسبة إلى عديد من البالغين في ذلك الوقت)، كان يعد هذا بالضبط جاذبية الإنترنت. إن شبكة الإنترنت – وهي بعيدة عن «العالم الحقيقي»، ومرتبطة ارتباطًا وثيقًا بثقافة المهووسين بألعاب مثل لعبة السجون والتنانين Dungeons and Dragons أكثر من ارتباطها بالواقع – كانت تمثل مكانًا للتجارب الخيالية وأداء الأدوار والهوية. صحيح أن بعض الأشخاص على الأقل أمضوا تلك السنوات الأولى من الإنترنت يشاركون في مهمات دنيوية أكثر (على سبيل المثال، إنشاء حساب هوتميل Hotmail، أو تعلم كيفية إجراء البحث عبر الإنترنت)، بيد أنه بالنسبة إلى عديد من الآخرين، كان مكانًا يتخلى فيه المرء عن الحياة المادية والبيولوجية والهوية المفترضة – أي يترك فيها جنوسته وعرقه وعمره، والقيود المادية وراءه، والعيش خارج الهويات الأخرى في عوالم أخرى. لقد كان مكانًا يبتعد فيه المرء عن كل شيء – من أجل تبني اسم جديد، ودخول مجالات متعددة المستخدمين من أجل التحول على مستويي

الأجناس والأنواع. وأكدت توركل أن هذه الميزة جعلت الإنترنت فضاء مهمًا لتطوير الهوية، خاصة فيما يتعلق بالشباب[20].

ولدعم وجهة نظرها، لجأت توركل إلى عمل المحلل النفسي إريك إريكسون Erik Erikson، وتحديدا إلى مفهومه المتعلق بـ «المُوراتُوريُوم» moratorium(*) النفسي الاجتماعي. في كتابه «الطفولة والمجتمع» Childhood and Society، الذي نُشر في العام 1950، رأى إريكسون أن عقل المراهق «هو في الأساس عقل المُوراتُوريُوم، وهي مرحلة نفسية اجتماعية بين الطفولة والبلوغ، وبين الأخلاق التي يتعلمها الطفل، والأخلاق التي يجب أن يطورها البالغون»[21]. ولم يعتبر إريكسون المراهقةَ فترةَ خبرة متأخرة، على الرغم من اختياره للكلمات، كما أوضحت توركل أن المُوراتُوريُوم «لا يتعلق بالتجارب المهمة ولكن بتبعاتها»[22]. بينما أقر كل من توركل وإريكسون أن جميع التجارب لها عواقب أو تبعات، أكدا في الوقت نفسه أن فترة المراهقة تُفهَم عمومًا باعتبارها فترة تجارب خالية من المخاطر، وأن هذا التجريب يؤدي غاية مجتمعية محددة[23]. وفي كتابه الصادر في العام 1968 بعنوان: «الهوية: الشباب في أزمة» Identity: Youth in Crisis، وصف إريكسون الموراتوريوم النفسي الاجتماعي بأنه «فترة تتميز بالتسامح الانتقائي من لدن المجتمع، والمرح الاستفزازي من جانب الشباب». وتابع قائلا: «كل مجتمع وكل ثقافة، يؤسس جيلاً موراتوريوميا معينًا لأغلبية شبابه... قد يكون هذا الموراتوريوم فترة من فترات المرح، والسعي إلى تشكيل رؤية، أو فترة من فترات فاندرشفت (التيه أو التجوال)، أو العمل «في أقصى الغرب» أو «في أقصى الجنوب» من البلاد، أو فترة من فترات «الشباب الضائع»، أو الحياة الأكاديمية، أو فترة من فترات التضحية بالنفس أو المزاح[24]. وسواء كان المرء في مسعى إلى تشكيل رؤية، أو يعمل في منتجع للتزلج، أو يتخلف عن حضور محاضرة ما كي يكون على موعد مع حفلة من الحفلات، فإن هذا الموراتوريوم قد أدى منذ فترة طويلة غرضًا في غاية الأهمية. وبتعبير توركل، إن «الموراتوريوم يسهل تطوير جوهر الذات، الذي يشير إلى الشعور الشخصي بماهية الأشياء التي تمنح معنى للحياة»[25].

(*) moratorium، التأجيل الأخلاقي. [المحرر].

بالطبع، كان إريكسون وتوركل يكتبان في عصور مختلفة. في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، عندما نُشر كتاب «الطفولة والمجتمع» لأول مرة، وحتى في أوائل الستينيات، عندما صدرت الطبعة المُنقحة من هذا العمل، كان «إريكسون» يعيش ويفكر في عالم كان من الأسهل فيه النظر إلى مرحلة المراهقة، وحتى إلى سنوات الدراسة الجامعية باعتبارها «وقتا مستقطعا»، حيث يكون الشاب حرًا في خوض تجارب ذات عواقب محدودة نسبيًا – أي إذا كان لديه امتياز الجندر والعرق للاضطلاع بذلك. وبحلول الوقت الذي كان فيه «توركل» يكتب عمله «الحياة على الشاشة»، في أوائل التسعينيات، كان العالم في حالة تغير مستمر. وكان الطلاب في سن ولوج الكلية، يواجهون سوق عمل ذي تنافسية شرسة على نحو متزايد واقتصادًا بطيئًا، وقد غيَّرت أزمة الإيدز من مخاطر التجارب الجنسية – فجأة، لم تكن أسوأ عواقب ممارسة الجنس هي الحسرة والأسى أو الحمل غير المخطط له، ولكن أصبح ذلك الموت. ولكن هذا هو بالضبط سبب اعتقاد «توركل» في أن المجتمعات عبر الإنترنت بدأت تؤدي دورًا حاسمًا في حياة المراهقين. وأصرت على أن المجتمعات الافتراضية «تقدم الإذن باللعب، وتجربة الأشياء، وهذا جانب يجعلها جذابة»[26]. إذا فُهِمَ «موراتوريوم» المراهق باعتباره مرحلة حرجة من التطور الشخصي – وهي فترة من التجريب حيث يمكن للمرء أن يجرب طقوسًا ومعتقدات، وبرامج مختلفة كجزء من عملية أكبر من «البحث عن القيم الاجتماعية التي توجه الهوية» – فلقد وعدت شبكة الإنترنت بفضاء، يمكن أن تستمر فيه هذه التجارب الطائشة بأمان، حتى في فترة عدم اليقين الاقتصادي والإيدز[27].

في النهاية، وعلى رغم ذلك، فإن تطوير الإنترنت سيأخذ منعطفًا مختلفًا تمامًا – وهو الأمر الذي يضحي الآن بمفهوم موراتوريوم المراهقين على حساب العواقب أو التبعات. ويستند الموراتوريوم إلى فهم مجتمعي مشترك يفيد بأن المراهقة هي الفترة التي يجب أن يكون فيها الشباب قادرين على تحمل مخاطر معينة باسم «إيجاد أنفسهم»، وحتى على ارتكاب بعض الأخطاء خلالها. ولكن في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، تتقلص بسرعة، المساحات التي يمكن فيها تنفيذ هذا الاكتشاف الذاتي بأمان من دون عواقب.

بحلول أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، أصبحت شبكة الإنترنت فضاء مختلفا تمامًا؛ إذ مع ظهور منصات الوسائط الاجتماعية، بدءًا من فيسبوك في العام 2004، أصبحت مشاركات الأشخاص عبر الإنترنت مرتبطة على نحو متزايد بأنفسهم الطبيعية. فمنذ البداية، قد لا يكون واضحًا في ذلك الوقت، الدور الذي كانت تضطلع به منصات وسائل التواصل الاجتماعي، لكن اتضح فيما بعد أنها تركز على سد الفجوة بين الواقعي والافتراضي، وهي فجوة كانت في الأصل سمة مميزة للإنترنت. استمرت الفضاءات الخيالية في الازدهار (على سبيل المثال، في العالم الافتراضي «حياة ثانية» Second Life، ومازالت مستمرة في الألعاب عبر الإنترنت، ولكن وسائل التواصل الاجتماعي أثبتت في نهاية المطاف أنها أكثر شهرة وانتشارًا من الفضاءات الخيالية السابقة على الإنترنت. ومع سيطرة الواقع على الفضاءات عبر الإنترنت، حدث مع ذلك تحول آخر: بدأت الفضاءات عبر الإنترنت تطلب من المستخدمين التسجيل باستخدام هوياتهم الحقيقية. لقد ولَّت منذ زمن أيامُ إنشاء حسابات البريد الإلكتروني من دون التحقق من الهوية الفعلية لأصحابها. كما أصبح عدد متزايد من المواقع مرتبطًا بخدمات الدفع مقابل المشاهدة أو الدفع مقابل الاستخدام. بالنسبة إلى المراهقين، كانت كمية كبيرة من المواد الآن وراء بوابات الدفع، ولا يمكن الوصول إليها إلا بإذن من الوالدين وبطاقة ائتمان. وفي الوقت نفسه، بالنسبة إلى البالغين، بدأت جوانب الحياة اليومية العادية، مثل الخدمات المصرفية، وإدارة فواتير الخدمات تُدبّرُ عبر الإنترنت. نتيجة لذلك، لم يعد بإمكان المراهقين التعويل على الآباء الأكثر مناهضة للتطور التكنولوجي، والأكثر جهلا بعالم الإنترنت. كانت في الماضي بوابة إلكترونية غامضة إلى عالم آخر بحيث يكون باستطاعته تبني جنوسة بديلة، أو ارتداء أجنحة، أو ممارسة الجنس مع مخلوقات أسطورية، فقد أصبحت شبكة الإنترنت تبدو أكثر شبها بالحياة اليومية. وتعد تلك الفترة أيضًا بداية تراكم بصماتنا الرقمية بوتيرة أسرع بكثير، من دون علم عديد من المستخدمين في ذلك الوقت. بحلول نهاية العقد الأول من الألفية الجديدة، أصبح العالم الذي كان يُعرَف سابقًا باسم «الفضاء السيبراني» cyberspace (وهو مفهوم مستعار على نحو مناسب من صفحات الخيال العلمي)، الذي وعدنا بمساعدتنا على نسيان هويتنا، بدلاً من ذلك، عقبةً أمام إمكانية أن ننسى ونُنسى.

إعادة ترسيخ الموراتوريوم النفسي والاجتماعي

يجري الآن تعيين عدد قليل من الوظائف من دون بحث أولي - على الأقل - على الإنترنت، كما يعترف بذلك المشغلون والمتخصصون في الموارد البشرية طواعية؛ يعمد الآن عديد من المشغِّلين إلى توظيف أطراف ثالثة للبحث عن بيانات تتعلق بمرشحين للوظائف التي قد لا يمكن استخراجها بسهولة من خلال «غوغل سيرش» Google search الأولي. كثيراً ما يُرفَض المرشحون أيضًا على أساس الانطباع غير المحبب الذي تتركه بصماتهم الرقمية[28]. لكن المشغِّلين ليسوا الأشخاص الوحيدين الذين يلاحظون ذلك؛ فالأزواج المحتملون يخضعون الآن أيضًا لعمليات بحث مكثفة عبر الإنترنت، غالبًا من قبل أفراد الأسرة الممتدة، كما يخضع لهذا البحث أيضا المتقدمون لشغل كل شيء بدءا بمساحات العمل المشتركة إلى المعسكرات الصيفية. وحيث كانت مجرد المقابلة يمكن أن تكون كافية، أصبح البحث هو القاعدة العامة على نحو متزايد. فقد أصبح لدى الجميع، بطريقة ما، مجموعة من سجلاتهم محفوظة على الإنترنت[29]. ولكن مع هذا التحول، فُقِد شيء مهم للغاية – الموراتوريوم النفسي الاجتماعي الذي اعتبره بعض الشباب على الأقل في بعض السياقات، أمرًا مسلَّما به. أصبح السؤال الذي يطرح نفسه: كيف يمكننا استعادة هذا الموراتوريوم، وتوسيعه أيضا؟

إن تشريع محو البيانات هو أحد الردود، خاصة ما يتعلق بالتشريعات الموجهة للقاصرين (مثل حقوق الخصوصية للقاصرين في كاليفورنيا في العالم الرقمي). وعلى رغم ذلك، فإن مثل هذه القوانين الجزئية في حد ذاتها ربما تكون غير كافية لإعادة ترسيخ الموراتوريوم النفسي والاجتماعي للشباب؛ فالشباب في جميع أنحاء العالم ضالعون بالفعل في الحياة الرقمية بصفتهم مستهلكين ومنتجين. إن منح حقوق خاصة بمحو البيانات لبعض الشباب في بعض الولايات القضائية لن يحل المشكلة الأوسع.

ماذا لو أقيم الموراتوريوم على أسس فنية بدلا من أسس قانونية؟ يذهب فيكتور ماير شونبر Viktor Mayer-Schönberger في كتابه «الحذف: فضيلة النسيان في العصر الرقمي» Delete: The Virtue of Forgetting in the Digital Age، إلى أن الوقت قد حان «لإعادة ضبط» التوازن و«جعل النسيان مجددا أسهل قليلا من التذكر». لكن اقتراحه لا يتطلب أي حلول قانونية شاملة؛ بل يتوقف بدلا من ذلك

على عدة بدائل، بما في ذلك الحل التقني الذي يسعى إلى محاكاة النسيان البشري من خلال السماح للمستخدمين بتحديد تواريخ انتهاء الصلاحية للمعلومات المخزنة عبر الإنترنت. كما يوضح أن تواريخ انتهاء الصلاحية هذه «لا تتعلق بالنسيان المفروض، إنها تتعلق بالوعي والفعل البشري، وبدعوة البشر إلى التفكير – ولو للحظات قليلة – في المدة التي تظل فيها المعلومات التي يريدون تخزينها قيِّمة ومفيدة»[30]. للوهلة الأولى، يبدو الاقتراح معقولاً وقابلا للتطبيق، ولكن هل سيُتَبنى مثل هذا الحل على نطاق واسع؟ بمعنى آخر، هل هناك بالفعل رغبة جماعية في اختفاء المعلومات الرقمية بمرور الوقت، خاصة بين الأطفال والمراهقين؟ في هذا الصدد، يمثل «سناب شات» مثالا مقنعا على نحو خاص.

أُطلِق «سناب شات» في العام 2011 كمنصة وسائط اجتماعية، تتيح تقاسم النصوص والصور لفترة زمنية محدودة فقط. بعد عرضها، ستُحذَف «سنابات» (الصور) تلقائيًا. لقد بدا في البداية أن تلك المنصات تقدم نوعًا من الموراتوريوم الذي من شأنه تمكين الشباب من المشاركة والتواصل مع الآخرين عبر الإنترنت من دون عواقب طويلة المدى، مستهدفة في المقام الأول جيل الألفية، ولكن سرعان ما تبنتها ديموغرافية أصغر سنا، بما في ذلك عديد من الأطفال. من الناحية النظرية، مع ظهور «سناب شات»، يمكن لأي شخص مشاركة نص أو صورة سخيفة من دون أي خوف من أن تعود لتطارده (الواقع أن الصور تُخزَّن مؤقتًا بعد إزالتها من خادم الشبكة server، ولكن يصعب استردادها نظرًا إلى تغيير امتداد الملف file extension.

منذ البداية، كان يُنظر إلى «سناب شات» باعتباره إضافة مرحبا بها في سوق وسائط التواصل الاجتماعي، بل أدى ذلك إلى تبنيه من قبل بعض آباء مستخدمي وسائط التواصل الاجتماعي الأصغر سنًا كخيار «أكثر أمانًا» مقارنة بـ «إنستغرام» أو «فيسبوك». وعلى رغم ذلك، سرعان ما انتهى هذا الدعم، بعدما بدأ النقاد ينظرون إلى القدرة المضمنة للتطبيق على حذف الصور، باعتبارها ميزة كانت تعزز سلوكيات المخاطرة، خاصة بين المستخدمين الشباب. ولم يعمِّر التطبيق وقتًا طويلاً لتعرضه للهجوم باعتباره جهازًا مصممًا لإرسال الرسائل الجنسية. وتؤكد عالمة وسائل التواصل الاجتماعي دانا بويد danah boyd أن الصحافيين روجوا لهذا التصور إلى حد كبير[31].

الواقع أنه لم تثبت صحة ادعاءات التطبيق بسرعة زوال الصور والنصوص، ولا ادعاءات منتقديه بأنه استُخدِم في الأساس لإرسال الرسائل الجنسية. لقد حدَّت النسخة الأصلية لسناب شات من قدرة المستخدمين على تخزين الصور والنصوص، على الرغم من عدم اختفاء الصور ببساطة بعد اقتسامها. تعلم المستخدمون الأذكياء بسرعة كيفية تجاوز هذه القيود؛ وذلك بأخذهم لقطات شاشة للصور التي تُشارك على التطبيق ثم تُحفظ أو يُعاد نشرها على منصات أخرى[32]. كما كشفت عديد من الدراسات بشأن كيفية استخدام الأشخاص «سناب شات»، وأسباب ذلك أن شائعات الرسائل الجنسية مبالغ فيها. وفي دراسة استقصائية أُجريت في العام 2014 على أكثر من مائة بالغ، أفاد 1.6 في المائة فقط من المبحوثين باستخدام سناب شات على نحو أساسي لإرسال الرسائل الجنسية، و14.2 في المائة باستخدامه من حين إلى آخر لهذا الغرض، و23.6 في المائة (أي نحو الربع)، باستخدامه لما صنفه الاستطلاع على أنه «إرسال محتوى جنسي أو محتوى جنسي كاذب على سبيل المزاح[33]. هذا، وقد توصلت بويد في عملها بشأن المراهقين، ووسائط التواصل الاجتماعي، إلى نتيجة مماثلة حيث تقول: «عندما سألتُ المراهقين عن سناب شات، وجدت أن معظمهم استخدموا التطبيق للإشارة إلى أن الصورة لم تكن مخصصة للأجيال القادمة؛ بل اقتسموا داخل التطبيق نكاتا، وصورا سخيفة، وصورا كانت مضحكة فقط في تلك الفترة. وبدلا من عرض الصور باعتبارها إنتاجا أرشيفيا، رأوا أن إنشاء هذه الصور الرقمية وتقاسمها، يشبه إشارة سريعة الزوال. واستخدموا سناب شات للإشارة إلى هذا التوقع»[34].

يستحق سناب شات اهتمامًا خاصًا هنا بسبب علاقته الفريدة بالوقت والذاكرة. فمن ناحية، يبدو أن المستخدمين يستمتعون بـ «سناب شات» بسبب زوال محتواه بعد ذلك. ومن ناحية أخرى، فقد سارعوا إلى تخريب الطبيعة المؤقتة للمنصة. إن مستخدمي «سناب شات»، وليس مصممو «سناب شات»، من كان مسؤولا في البداية عن إيجاد طرق إبداعية لالتقاط الصور وتخزينها. في نهاية المطاف نَحَتْ الشركة تجاه المستخدمين، حيث قدمت إعدادًا مؤقتًا يسمى «اللامتناهية أو اللامحدودية»، الذي يسمح بالوصول الدائم إلى لقطات الصور[35]. إن ما يؤكده مثال «سناب شات»، يفيد برفض الشباب على الأرجح

أي تدخل مصمم لوضع تواريخ انتهاء الصلاحية على المعلومات التي ينشئونها وينشرونها على الإنترنت.

بينما تبقى أسباب هذا الرفض معقدة بلا شك، فقد يكون أحد عوامله التهاب المشاعر والحنين على نحو خاص بين المراهقين، وغالبًا ما تظهر في مجموعات من جميع الفئات. سيُقدِّر أي شخص بلغ أخيرا مرحلة المراهقة أو المراهقة وما بعدها (أو يعيش حاليًا مع واحد من هؤلاء) إصرار المراهقين كثيرًا على الاحتفاظ حتى بالمواد غير الضرورية تماما (أعقاب التذاكر، وفواتير اللعب، وممرات مصاعد التزلج، وأغطية الزجاجات، والقمصان الكبيرة، وما إلى ذلك). هذه الأشياء ليست هدايا تذكارية بالضبط، بل هي بالأحرى، على حد تعبير الناقدة الأدبية سوزان ستيوارت Susan Stewart، »أشياء تافهة – أشياء مستهلكة لا تكون قيمتها نقدية، بل منقوشة بنوع من الممارسة الجماعية أو الخبرة أو الهوية. إنها، وفق ما تقترحه ستيوارت، «هدايا تذكارية تعود إلى عصر من العصور وليس إلى الذات»، وهذا هو السبب أيضًا الذي يجعلها «تميل إلى تراكم فترة تنشئة اجتماعية شديدة، فترة المراهقة»[36]. تمكِّن هذه الأشياء المراهقين من الإيمان بوهم التمسك بالأشياء ذاتها التي لا يمكنهم تحمل التخلي عنها (على سبيل المثال، علاقة قوية، أو تجربة لا تُنسى على نحو خاص). في العصر الرقمي، لايزال المراهقون يجمعون الصور، ولكن بالإضافة إلى الصور المادية (على سبيل المثال، شرائط الصور الملتقطة في أكشاك الصور)، والتحف المادية، فإنهم الآن يجمعون أيضًا القطع الأثرية الرقمية. يشير مثال «سناب شات» إلى أن أي محاولة لوضع تواريخ انتهاء الصلاحية على البيانات – بما في ذلك حتى تلك التي حددها المستخدمون الفرديون – قد تواجه خصمًا قويًا: شعور المراهقين في كثير من الأحيان بالارتباط بالقطع الأثرية من جميع الأنواع، بما في ذلك الرقمية. بينما قد تشكل عاطفية المراهقين وحنينهم إلى الماضي تحديًا غير متوقع للنسيان، بيد أن نسيان القرن الحادي والعشرين يواجه عقبات أكبر بكثير.

3

شاشات وذكريات مقَنَّعة ومشاهير الطفولة

من الصعب التنبؤ بالتأثير طويل المدى الذي يشكله ترعرع المرء بصحبة ذكرى طفولته وشبابه إلى الأبد، وهذا راجع - جزئيا - إلى أن ذلك يمثل تجربة ذات نظائر تاريخية قليلة، باستثناء ملحوظ يخص مصير مشاهير الطفولة؛ فكثيراً ما يجري البحث واستخراج مواد متعلقة بهذا الموضوع لأجل عرضها في البرامج التلفزيونية التي تستعرض حياة المشاهير الخاصة، والمجلات الترفيهية، بحيث يمكن لأي شخص - على الأرجح - سرد قصة واحدة على الأقل بشأن وفاة أحد المشاهير الشباب. إذا كانت تمثل هذه القصص المخزون التجاري للصحف الشعبية، فمن المحتمل أنها تتبع دائمًا قوسًا سرديا يمكن التنبؤ به، وتركز على شخصية واحدة لا تتطلب مقدمة. وعادة ما

«لم يشرح فرويد على نحو كاف سبب نسياننا لمعظم أطوار ذكريات طفولتنا المبكرة، وتشويه معظم سنوات طفولتنا والمراهقة المتبقية، لكنه أدرك تماما مدى انتشار الذكريات الكاذبة»

يكون جزء لا يتجزأ من هذه الحكايات الدنيئة أيضًا افتراضا شائعا: أي إن التعرض المفرط لمثل هذه الأمور في سن الشباب أمر خطير – قد يفضي إلى مسار شبه مؤكد لتعاطي المخدرات، أو الجريمة، أو السجن أو حتى الموت المبكر. للأسف، يبدو أن هناك على الأقل بعض الصدق في هذا الافتراض.

تتمثل واحدة من الحكايات التحذيرية الأكثر تكرارًا بشأن مخاطر المشاهير في مرحلة الطفولة في حكايات الممثلين الشباب الثلاثة الذين أدوا دور مجموعة من الأشقاء في المسلسل الكوميدي في سبعينيات القرن الماضي، تحت عنوان «ضربات متباينة» Diff'rent Strokes. في هذا المسلسل الكوميدي يتبنى أرمل اسمه السيد دروموند Drummond شقيقين أمريكيين من أصل أفريقي - أرنولد Arnold وويلسون جاكسون Wilson Jackson - بعد وفاة والدتهما (خادمته). ينتقل الأولاد من هارلم Harlem إلى الجانب الشرقي العلوي للعيش مع دروموند، وابنته المراهقة كيمبرلي Kimberly في شقتهم المترامية الأطراف في شارع المنتزه. وكان المسلسل الكوميدي يوازن بين الدعابة ومواضيع أكثر جدية، تتراوح من العنصرية وتعاطي المخدرات إلى اختطاف الأطفال والاغتصاب. وفي العقود التي أعقبت إلغاء المسلسل، واصل جميع الممثلين الأطفال الثلاثة في هذه السلسلة الكوميدية تصدرهم عناوين الأخبار، ولكن ليس بوصفهم أشخاصا يزاولون مهنة التمثيل. أولاً، قام غاري كولمان Gary Coleman، الذي أدى دور أرنولد ، بمقاضاة والديه ومديره بسبب اختلاس الأموال. على الرغم من تسوية قُدِّرت بمليون دولار، تقدم كولمان لاحقًا بطلب الإفلاس، وانتهى به الأمر إلى العمل حارس أمن في مركز تجاري. وعقب ذلك عديد من حلقات العنف التي حظيت بتغطية إعلامية كبيرة، توفي كولمان متأثرًا بإصابة في الدماغ عن عمر يناهز الثانية والأربعين[1]. في هذا الوقت، كانت دانا أفلاطون Dana Plato التي قاسمته البطولة، وأدت دور كيمبرلي، قد انتحرت بالفعل. وعانت أفلاطون، مثل كولمان، ماليًا في السنوات التي أعقبت سلسلة «ضربات متباينة». وقبل وفاتها في الرابعة والثلاثين من عمرها، شغلت سلسلة من الوظائف بحد أدنى للأجور، ومنحت صورة لها لفائدة مجلة «بلاي بوي» Playboy (المستهتر)، كما صورت فيلمًا إباحيًا ناعمًا يُدعى «ضربات متباينة» Different Strokes، وسرقت متجرًا للفيديو بمسدس لعبة[2]. ويعد تود بريدجز Todd Bridges الطفل الممثل الوحيد في هذه

السلسلة، الذي بقي على قيد الحياة، وأدى دور ويليس Willis. على الرغم من أن بريدجز عاد في النهاية إلى التمثيل، فقد أظهر إدماناً على الكوكايين أفضى إلى اعتقاله في نهاية المطاف. وفي محاولة لتخطي ماضيه أخيراً، في العام 2010، نشر بريدجز مذكرات تحكي كل شيء عنه، عنْونها على نحو مناسب: «قتل ويليس»[3]. إن المشكلة التي تواجه بريدجز، مثله في ذلك مثل عديد من مشاهير الأطفال، هي أن «قتل» الشخص الذي كان يوما ما مراهقاً، أمر صعب على نحوٍ غير عادي بسبب استمرار وجود هويته السابقة (أو على الأقل وجود المراهق الخيالي الذي صوره ذات مرة).

على الرغم من انشغال الصحف الشعبية ودرايتها بمصير الممثلين الأطفال، سيكون من المضلل مع ذلك، الإشارة إلى حتمية انحرافهم جميعًا في نهاية المطاف. لكل من كولمان أو أفلاطون أو بريدجز، ثمة طفل مشهور ينتقل إلى مهنة تمثيل ناجحة في مرحلة البلوغ، أو ببساطة يغير المسارات المهنية؛ فيعيش حياة بعيدة إلى حدٍ ما عن الأضواء، سالكا مجال عمل لا صلة له بالتمثيل. إن الاختلاف بين أطفالٍ مشاهير يزدهرون باعتبارهم بالغين، وآخرين لا يزدهرون، يقوم – بلا شك – على عدد لا يحصى من العوامل، ولكن قوانين صارمة تهم فنانين أطفالا، قد تكون مسؤولة جزئيًا على الأقل عن تخفيف بعض الصراعات طويلة المدى التي ابتُلوا بها تاريخياً. إن القاصرين الذين يعملون في المسرح أو يعملون ممثلين في التلفاز أو ممثلي أفلام، يحظون بحماية بموجب مجموعة واسعة من قوانين العمل وحماية الأطفال، على الرغم من عدم تطبيق هذه القوانين في جميع الولايات القضائية – في مراكز صناعة السينما الأمريكية – بما في ذلك ولايتا نيويورك وكاليفورنيا. ثمة قوانين تنص على الموعد الذي يخول فيه للفنانين الشباب إمكانية العمل، وعلى مدة العمل المسموح بها، بالإضافة إلى ضمان التحاقهم بالمدرسة على نحوٍ مستمر (أو إكمال دبلوم المدرسة الثانوية عبر الإنترنت، أو بدعم من مدرس معين). وفي كلتا الولايتين، يجب تحويل 15 في المائة من أرباح الفنانين الشباب إلى صندوق استئماني لضمان امتلاكهم – على الأقل – بعض المدخرات في المستقبل. كما تهدف قوانين أخرى إلى حماية صحة، وأخلاق، ورفاهية العامة للفنانين الأطفال[4].

وعلى رغم ذلك، لا يستفيد كل المشاهير الأطفال حاليًا من هذه القوانين الوقائية في البلاد كلها، حتى الأطفال الذين هم في نيويورك وكاليفورنيا. ومع

انتشار وسائط التواصل الاجتماعي، أصبح الآن هناك عدد متزايد من المشاهير الشباب ممن تقع مواردهم المالية، فضلاً على صحتهم ورفاههم، خارج قوانين العمل المصممة لحماية الفنانين الشباب[5]. من المفاجئ إلى يومنا هذا ألا تحظى التأثيرات القصيرة والطويلة المدى لهذا الشكل الجديد من المشاهير الأطفال، باهتمام كبير من قبل علماء النفس والباحثين القانونيين، ومنظِّري وسائل الإعلام؛ قد يعكس هذا حقيقة أن مشاهير وسائط التواصل الاجتماعي ليس لديهم الكثير من القواسم المشتركة مع الأجيال السابقة من المشاهير. لقد اكتسب كثير منهم نجوميتهم عن غير قصد، غالبًا نتيجة لأنشطة خاصة وليست عامة. في واقع الأمر، غالبًا ما يشتهر مشاهير وسائط التواصل الاجتماعي، بما في ذلك الأطفال والرضع والمراهقون، بالسماح للناس باقتحام عوالمهم الخاصة والحميمية، بما في ذلك الفضاءات اليومية من غرفة النوم إلى طاولة المطبخ. وفي هذا الصدد، قد يكون لدى مشاهير وسائط التواصل الاجتماعي الشباب حاليا، قواسم مشتركة مع التوأم الخماسي ديون **Dionne**، أكثر مما تشترك فيه مع معظم الممثلين الشباب؛ خمس أخوات ولدن في أونتاريو **Ontario** في العام 1934، أمضين الكثير من طفولتهن خلف جدار زجاجي في مدينة ملاهٍ تديرها الحكومة، تُعرف باسم «كوينتلاند» **Quintland**، ومثل عديد من مشاهير وسائط التواصل الاجتماعي الشباب اليوم، فقد شاهدهم المتفرجون (الذين يقدر عددهم بنحو 3 ملايين على مدار عقد من الزمن) في الموقع، من خلال شاشة أحادية الاتجاه، وهن ينخرطن في أنشطة مثل اللعب وتناول الطعام. وبعد مضي عقود، عُوِّضت أخوات ديون الناجيات من قبل حكومة المقاطعة عن الإساءة التي تعرضن لها في أثناء عرضهن كأطفال[6]. ولكن ماذا سيكون مصير أطفال مشاهير وسائط التواصل الاجتماعي اليوم؟ كما تُظهر الروايات التالية، هذا سؤال يصعب الإجابة عنه، جزئيًا لأن هؤلاء المشاهير ليسوا بأي حال من الأحوال مجموعة متجانسة؛ بحيث تستلزم كيفية اكتسابهم لشهرتهم عبر الإنترنت درجات متفاوتة من الوعي، والإرادة، والتواطؤ. قد تكون العواقب القصيرة والطويلة المدى للنجومية عبر الإنترنت قوية ومشجعة على الرضع والأطفال والمراهقين، بقدر ما تكون مدمرة أيضا.

صور الأطفال وميمات الأطفال

إن «الأطفال» من بين أكثر فئات الصور شيوعًا على الإنترنت. من نواحٍ عديدة، يعد الهوس بالأطفال عبر الإنترنت مجرد امتداد لانشغال التصوير الفوتوغرافي بهم منذ فترة طويلة. وكان الأطفال والرضع موضوعًا شائعًا منذ اختراع التصوير الفوتوغرافي، وغالبًا ما يستخدمهم مصنعو الكاميرات لتسويق التقنيات الجديدة. ولكن مع ظهور التصوير الرقمي، ومنصات التواصل الاجتماعي، ازداد عدد صور الأطفال المتداولة على نحوٍ كبير، بالإضافة إلى أنواعها واستخداماتها. من الصعب معرفة عدد صور الأطفال والرضع التي تُنشر على الإنترنت كل يوم، على وجه اليقين، ولكن تشير دراسة واحدة على الأقل إلى أن ممارسة نشر صور الأطفال عبر الإنترنت هي ممارسة عالمية تقريبًا. لقد كشفت دراسة أجريت في العام 2016 على 127 أُمًّا عن أن 98 في المائة منهن حملن صورة لمولودهن الجديد على فيسبوك، و80 في المائة من هؤلاء الأمهات أظهرن الطفل في صورة صفحتهن الشخصية[7]. وفي دراسة استقصائية أجريت في العام 2015 على ألفي أب بريطاني، توصلت إلى نشر كل والد، في المتوسط، ما يقرب من مائتي صورة فوتوغرافية لأطفالهم على الإنترنت كل عام، مما يعني أن معظم الأطفال كان لديهم ما يقرب من ألف صورة متداولة عبر الإنترنت عند ولوجهم روضة الأطفال في سن الخامسة[8].

بالإضافة إلى زيادة كمية الصور الفوتوغرافية، ومقاطع الفيديو للأطفال والرضع – التي أصبحت أسهل وأقل تكلفة في التقاطها وتوزيعها منذ وصول التصوير الرقمي، وهواتف الكاميرا، ومنصات الوسائط الاجتماعية – فقد تغير محتوى هذه الصور أيضا. هذا، وقد كشف استطلاع في العام 2015، شمل عدة مئات من الأمريكيين، استخدام معظم الآباء حينها وسائط التواصل الاجتماعي (84 في المائة من الأمهات و70 في المائة من الآباء). من بين هؤلاء الآباء، حددت الأغلبية (أي 74 في المائة) أحد الوالدين على الأقل، ممن ظنوا أنه «أفرط في الحديث» عن طفله عبر الإنترنت، وأفاد 56 في المائة بأنهم واجهوا معلومات محرجة بشأن طفل ما، نشرها والد آخر. بالإضافة إلى ذلك، ذكر 51 في المائة أن الآباء الآخرين كشفوا عن مكان وجود أطفالهم على منصة التواصل الاجتماعي، في حين أشار 27 في المائة إلى أن الآباء ينشرون صورًا غير لائقة لأطفالهم[9]. بينما يتبنى بعض الآباء دائمًا، وعلى نحوٍ

مؤكد حكما سيئا – على سبيل المثال، اختيار تصوير فيلم منزلي بخصوص تجارب تدريب طفلهم البالغ من العمر عامين على استخدام المرحاض، ثم عرضه في حفلة عيد ميلاده الثالث عشر – في الماضي، لم تكن مثل هذه الحوادث شائعة نسبيًا. كان يتحتم على أحد الوالدين امتلاك رغبة قوية في تصوير حدث مثل هذا، ليتحمل عناء تحميل الفيلم في الكاميرا في الوقت المناسب لالتقاطه. ونظرًا إلى أن مثل هذه الصور كان يجب تحميضها من قبل طرف ثالث، كان هناك أيضًا احتمال أن تخضع لاحقًا للرقابة من قبل محمض أو مظهر أفلام يقظ في مصنع معالجة. وعلى النقيض من ذلك، غالبًا ما يكون حاليا لدى الآباء هاتف مزود بكاميرا في أيديهم أو جيوبهم في أثناء مشاركتهم في المهام المنزلية اليومية وتربية الأطفال. بالاقتران مع حقيقة إمكانية أن ينشر المرء الآن الصور من دون تدخل طرف ثالث، تستمر الصور العفوية وغير اللائقة للرضع والأطفال في الانتشار عبر الإنترنت. لكن، ماذا يتقاسم الآباء؟ ولماذا يقومون بهذا السلوك علما بأنهم في كثير من الحالات، يفرطون في تقاسم هذه المعلومات أو الصور؟

وقد كشفت دراسة واحدة على الأقل عن أن ظاهرة تداول الصور وحسابات الأطفال، والتي تُعرف غالبًا باسم «التقاسم» sharenting[10]، أكثر شيوعًا بين الأمهات، وخاصة الأمهات الجديدات، من الآباء. يُعزى هذا – وفق تقدير بعض الباحثين – إلى أن الأمهات عادة ما ينتهي بهن الأمر على الأرجح في المنزل؛ إلى أن ينصرفن إلى رعاية الأطفال الصغار وحدهن بين أربعة جدران؛ فكان تقاسم وسائط التواصل الاجتماعي هو إحدى الطرق لكسر العزلة. لكن، هذا لا يعني أن الآباء لا ينخرطون في عملية التقاسم هذه، والإفراط فيها على نحوٍ مماثل. في أثناء كتابتي هذا الفصل، نشر الأب والمدون جيسي ماب فيا هيل Jesse Mab-Phea Hill على فيسبوك تقريرا مكتوبًا وعديدا من الصور الفوتوغرافية بشأن حادثة كريهة الرائحة في منزله. وكان هيل على وشك الاستمتاع بفترة ما بعد الظهيرة المريحة وتناول الكعك ومشاهدة مقاطع فيديو على اليوتيوب عندما اكتشف رائحة كريهة. بعد استبعاد وقوع حادث سببه أحد كلابه، صعد الدرج للاطمئنان على طفلته الصغيرة. لكن، ما رآه بعد ذلك كان أسوأ مما كان متوقعًا: «هاهي، تقف عند حاجز الأطفال، عارية، تمسك حفاضتها، مغطاة من الرأس إلى أخمص القدمين في فضلاتها. أنا لا

أتحدث عن قدر محدود من براز يغطي جسدها هنا وهناك؛ بل إني أتحدث عن طبقات من مادة برازية بشرية تغطي ذراعيها ورجليها ووجهها وشعرها»[11]. في غيابه القصير، كانت طفلته قد نشرت البراز ليس فقط في جميع أنحاء جسدها، ولكن في جميع أنحاء غرفتها. فقام بتضمين صور لكل من ابنته والفوضى القذرة التي تركتها في غرفة نومها. ضرب تقرير حساب هيل على الوتر الحساس لعدد مذهل من الأشخاص. وفي غضون أيام، تم اقتسام منشوره أكثر من مائة ألف مرة، ونشرت المجلات والصحف في جميع أنحاء العالم (ومن المفارقات، أن تنشر ذلك أيضا مجلة «التدبير المنزلي الجيد» (Good Housekeeping) تقارير هزلية عن براز هيل. ومن أجل التوضيح، لا توجد علامات من المنشور أو الصور تفيد برغبة هيل في إلحاق أي ضرر بابنته، بل إن الأغلبية العظمى من الأشخاص الذين تركوا تعليقات ردًّا على المنشور، رحبوا باعترافه الفكاهي بشأن هذا الجانب غير الجذاب من الأبوة. لكن ماذا عن ابنته؟ كيف ستشعر عندما تكتشف في النهاية (أو يكتشف أصدقاؤها أو زملاؤها في الفصل) أن أول لحظة معترف بها على نطاق واسع في حياتها كانت طفلة صغيرة يكسوها البراز؟

بالنسبة إلى معظم الآباء، يعد نشر صور أطفالهم على الإنترنت ببساطة، وسيلة من وسائل اقتسام أفراح – وتجارب ومحن – الأبوة والأمومة مع العائلة والأصدقاء، وفي بعض الحالات، مع مجتمع افتراضي أكبر. ولكن بالنسبة إلى عدد قليل من الآباء، فإن الدافع وراء هذا التقاسم، تغذيه عوامل أخرى، بما في ذلك عوامل مالية.

يوجد الآن عدد متزايد من المشاهير الشباب الذين لا يحمي أي قانون معاملتهم وأرباحهم، بما في ذلك أطفال مثل جافين Gavin، الذي أكسبه مزاجه وتعبيرات وجهه مكانة مشهورة في عالم الميمات عبر الإنترنت. منذ العام 2013، عندما دخل جافين لأول مرة ميمات حياته في سن الثانية، حتى الوقت الحاضر، لم يكن لديه سيطرة تذكر على شهرته. وكان عمه، نيك ماستودون Nick Mastodon، البالغ من العمر ثلاثين عامًا، الذي كان معروفًا في السابق بمنشوراته المثيرة على «الفاين» Vine (تطبيق يستخدم في مشاركة فيديو)، هو العقل المدبر الأصلي وراء بلوغ جافين عالم الشهرة[12]. ومع انتشار الميمات، بدأت والدة جافين، كاتي توماس Katie Thomas، أيضًا في تعميمها. ولم يمض على جافين وقت طويل ليصبح أحد أكثر ميمات الأطفال

انتشارًا، ولكن ليس من الواضح ما إذا كان على دراية كاملة بشخصيته أو يتحكم في فوائدها. لقد صرح كل من عم جافين ووالدته علنًا بأنه يُبذل جهدٌ لتخصيص أموال لـ «صندوق الكلية» الخاص بجافين، ولكن مقدار الإيرادات التي حققها جافين فعليا على نحوٍ مباشر وغير مباشر من خلال «عمله» الميمي (بالإضافة إلى ظهوره على وسائط التواصل الاجتماعي، تبيع والدته قمصانًا تحمل صورته مقابل 20 دولارًا لكل ظهور)، ومقدار الأموال التي تُوفَّر غير معروف[13]. إن ما هو واضح هو أنه على عكس الممثل الطفل الذي يعمل على خشبة المسرح أو في موقع التصوير – على الأقل في الولايات القضائية ذات القوانين الصارمة المتعلقة بالأطفال الذين يعملون في مجال الترفية – لا توجد قوانين تحدد من يمكنه الاستفادة من أرباح جافين؛ ولا توجد أي طريقة لوضع قيود على الكيفية التي كانت عليها حياته اليومية، ومن المرجح أن تستمر في الانكشاف وتستمر في الوقت ذاته عرقلتها في المستقبل.

لكن حالة جافين ما هي إلا واحدة من أصل عديد من حالات الأطفال الموجودين في هذه الوضعية. ومنذ العام 2010، بدأ عدد متزايد من الآباء والأوصياء والأجداد، وغيرهم من الأقارب والأصدقاء في نشر مقاطع فيديو وصور للأطفال الرضع على الإنترنت. بينما تعد معظم هذه المنشورات مخصصة للعائلة والأصدقاء، يهدف بعضهم الآخر إلى جذب الانتباه أو الحصول على مكاسب مالية متواضعة. ويفترض أن هذا هو الحال بالنسبة إلى ماثيو Matthew. نشر والد ماثيو، مايك تشاو Mike Chau، وهو من سكان نيويورك وعشاق الطعام، له أكثر من ألف مراجعة على موقع «ييلب» Yelp منذ العام 2012. وقبل ولادة ابنه، سبق له ترك المراجعات الموسعة على المنصة، ولكن منشوراته التي أعقبت وصول ماثيو إلى الوجود هي المنشورات التي نال من ورائها الاهتمام أخيرًا. كما تختلف تعليقات تشاو عن معظم تعليقات «ييلب» – فهي تتضمن دائمًا صورة من صور الطفل ماثيو. بدءا بنظرات ماثيو غير المكترثة لأطباق المعكرونة الفاخرة إلى موافقته الحماسية على أخذ قطعة من كعكة الفستق مع صلصة الشوكولاتة، اكتسب ماثيو متابعة قوية على «ييلب»؛ مما يعني تودد مالكي مطاعم نيويورك الآن لوالده بانتظام، الذين يقدمون وجبات مجانية لعائلة تشاو بأكملها في محاولة للحصول على تقييم إيجابي على موقع «ييلب»[14]. لكن هل سيستاء ماثيو في نهاية المطاف من والده لاستغلال

طفله الصغير اللطيف ذي السلوك الطريف عبر مطاعم مدينة نيويورك؟ وهل سيكون قادرًا على اتخاذ إجراءات قانونية ضد انتهاك الخصوصية؟

بينما قد يجد بعض مشاهير الأطفال النشطين على وسائط التواصل الاجتماعي – مثل ابنة هيل – صعوبة في محاسبة والديهم إذا اتخذوا إجراءات قانونية في المستقبل بهذا الخصوص (يبدو أن نية هيل لم تكن خبيثة، ولم تحركها الرغبة في تحقيق مكاسب مالية)، قد يمتلك آخرون أساسا قويا جدا لبدء القضية. ولكن، إذا كان جافين قد بدأ حياته المهنية بوصفه مشهورا تقليديا للأطفال (على سبيل المثال، العمل كمسرحي أو ممثل سينمائي)، اعتمادًا على موقعه، فسُتنظَّم ظروف عمله وأرباحه منذ البداية. ولم يكن هذا الأمر ممكنا لأن عمه عرَّف به على موقع التواصل الاجتماعي «فاين». إن معظم ميمات الأطفال تبدأ في تحقيق دخل بطرق لا تتضمن أبدًا عقدًا على الإطلاق – عادةً ما يدر أحد الوالدين أو أحد الأقارب دخلاً باستخدام الإعلانات القائمة على النقر الموضوعة على موقع إنترنت شخصي أو قناة يوتيوب، حيث تُعرض ميمات الطفل. وعلى رغم ذلك، وبغض النظر عن الاعتبارات القانونية، فمن المهم مراعاة بعض التكاليف المحتملة الأخرى، التي يتعلق أحدها بما نتذكره عن طفولتنا.

يتذكر الناس على نحوٍ عام الذكريات الأكثر إيجابية أكثر من الذكريات السلبية. في الواقع كشفت بعض الدراسات عن أن البالغين يتذكرون عدد أحداث السيرة الذاتية الإيجابية ضعف عدد السلبية. علاوة على ذلك، تكون الذكريات الإيجابية أكثر شيوعًا لدى كبار السن منها لدى البالغين الصغار. وهذه أخبار سارة، لأن الذكريات الإيجابية تعزز السعادة، ويكون لدى الناس ميل إلى الازدهار عندما يمرون بمشاعر إيجابية، وليست سلبية (على سبيل المثال، الفرح مقابل الخجل أو الاكتئاب).

يقترح عالم النفس سيمون نوربي Simon Nørby عدة تفسيرات لانتشار الذكريات الإيجابية يعزيها إلى أسباب عدة: «أحد هذه الأسباب... هو وجود – على ما يبدو – الأحداث الإيجابية أكثر تكرارًا من الأحداث السلبية... قد يتمثل سبب آخر في وجود «تأثير قوي» للذاكرة فيما يتعلق بالذكريات الإيجابية، مقابل الذكريات السلبية، من مرحلة الشباب». أما السبب الثالث المحتمل، وفق نوربي،

فهو «احتمال نسيان الناس التجارب السلبية على نحوٍ انتقائي». كما يرى أن هذا النوع من النسيان، لا يمكن رفضه باعتباره مجرد فشل في الذاكرة. إن النسيان الانتقائي للتجارب السلبية، بما في ذلك تلك التي حدثت في سن الرشد، سيكون مفيدًا لأنه يرى أنه «إذا كان الأشخاص الأصحاء مشغولين بذكريات سلبية معظم الوقت، فإنهم سيشعرون بالبؤس»[15]. إذا كان الأمر كذلك، فما الخطر الذي يتربص بجميع الأطفال الرضَّع والأطفال الصغار الذين تُوثَّق تجارب طفولتهم وتُنشَر على الإنترنت بطرق تجعلهم يستمرون في الظهور مرة أخرى بمرور الوقت؟ بينما قد يكون لدى جيسي هيل، وأكثر من مائة ألف شخص آخرين ممن استمتعوا بمنشوره على فيسبوك بشأن الأبوة والأمومة، تجربة إيجابية بشأن قراءة قصته ومشاهدة الصور المصاحبة، ليس ثمة ما يضمن أن ابنته ستواجه الحادث مرة أخرى بمثل هذه الإيجابية بعد عشر أو عشرين سنة أخرى. ما هو مؤكد أنه في الماضي – ويرجع الفضل في ذلك، إلى حد كبير، إلى الميل إلى نسيان تجارب الطفولة التي يحتمل أن تكون مخزية – كان من المحتمل عدم اضطرار ابنة هيل لمواجهة هذه الذكرى على الإطلاق.

مشاهير وسائط التواصل الاجتماعي في سن المراهقة

من أجل توضيح الأمر، ليس كل المشاهير عبر الإنترنت، هم نتاج تدخل شخص بالغ – فعديد من الأطفال والمراهقين الأكبر سنًا، هم من المشاهير العصاميين الذين نَمُّوا متابعين لهم من تلقاء أنفسهم تمامًا. في العام 2015 نشرت مجلة «رولينج ستون» Rolling Stone مقالًا عن كريستيان أكريدج Christian Akridge، المعروف أيضًا باسم كريستيان ليف Christian Leave قبل أن يرتقي كريستيان إلى عالم الشهرة في تطبيق «فاين» الذي لم يعد له وجود الآن، كان يشبه إلى حد كبير أي صبي آخر يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا؛ بحيث كان شغوفا بملابس غير رسمية مجمعة على نحوٍ عشوائي كأنها ملابس لم تعد تخضع للبيع، ظلت موجودة في رفوف محلات تجارية تابعة لـ «أولد نيفي» Old Navy، كما كان على استعداد دائم لتقاسم نكتة من نكت الفضلات. كان كريستيان يشعر بالملل، ويفكر في التقدم لوظيفة بدوام جزئي في مطعم «تاكو» taco، ويهدر وقتا كبيرا على الإنترنت. غير أن مقاطع الفيديو

الكوميدية الخاصة به، أثرت على نحوٍ كبير في الناس على «الفاين»، مما مكنه من حشد أكثر من مائة ألف مشاهد في غضون أشهر، وسرعان ما تبوأ مقاما يُحسد عليه في حدث «بريس بلاي» PressPlay (يقوم خلاله بجولة حية، حيث يمكن للمعجبين من خلاله مقابلة نجومهم المفضلين على وسائط التواصل الاجتماعي شخصيًا). قد يبدو ارتداء المراهق «شورت»، وتخصصه في الفكاهة المقززة أمرا غير جذاب، غير أن عديدا من المعجبين الشباب، والفتيات المراهقات بخاصة، يفضلون مشاهير وسائط التواصل الاجتماعي مثل كريستيان، على المشاهير التقليديين. ومن خلال منشوراتهم المستمرة على تويتر ويوتيوب، وتطبيقات الوسائط الاجتماعية الأخرى، يستطيع هؤلاء المشاهير خلق وهم بوجود «علاقة حقيقية» مع المعجبين – علاقة يشعر عديد من المعجبين بأنها أكثر أصالة من العلاقات التي تربطهم بالموسيقيين المشهورين أو ممثلين. على عكس الشاب جافين أو ماثيو، من الواضح أن كريستيان يتحكم في صورته، أو تقريبًا يتحكم فيها (ذات مرة قال إن والديه جعلاه يزيل مقطع فيديو واحد يمسك فيه بيده يد صبي آخر درءا لأي تضليل أو سوء فهم بشأن ميوله الجنسية). وعلى رغم ذلك، بالنسبة إلى الجزء الأكبر، كان بلوغ كريستيان الشهرة من صنعه، وفاقت مكاسبه عيوبه؛ فبينما اختار متابعة دراسته في المنزل (لأن نجوميته على وسائط التواصل الاجتماعي سببت تخلفه عن الحضور إلى قاعة الدرس أياما عديدة)، منذ جولته في «بريس بلاي»، تمكن كريستيان من تحويل شهرته على وسائط التواصل الاجتماعي إلى مصدر دخل[16].

ولم يعد كريستيان وحده من يدعم «بريس بلاي»، بل يوجد الآن عدد كافٍ من نجوم وسائل التواصل الاجتماعي المراهقين، ممن يدعمونها وانتشار العديد من أحداث الجولات الحية المماثلة. بينما يلاحظ أن معظم المشاهير في هذه الجولات هم من الشباب، ومعظم المعجبين هم من المراهقات ومن الفتيات بمرحلة ما بعد سن المراهقة، هناك على الأقل عدد قليل من الشابات المتخصصات – مثلهن مثل نظرائهن من الرجال – في تقديم الدعابة الموجهة للمراهقات والفتيات الأخريات بمرحلة ما بعد سن المراهقة[17]. لقد أضحى لدى آلي فيتزباتريك Alli Fitzpatrick، التي بدأت عملها على «الفاين»، وأصبحت فيما بعد مشهورة على اليوتيوب، عدة ملايين من المتابعين. إن بلوغها عالم الشهرة كان من صنعها على نحوٍ تام. ولم تعلم

والدتها مارغريت Margret بأمر شهرة آلي حتى حضرت حدثًا أو نشاطا في مدينة نيويورك مع ابنتها. وعندما واجهت الأم حشدًا من الفتيات يبكين، مرددين اسم آلي، تملكتها دهشة كبيرة، وتساءلت: «هل يتحدثن عن آلي ابنتي؟»[18]. ولكن هذا النوع من المفاجأة ليس غريبًا؛ إذ غالبًا ما لا يكتشف آباء مشاهير وسائط التواصل الاجتماعي الذين لديهم مئات الآلاف أو حتى أكثر من مليون متابع، شهرة أطفالهم على الإنترنت حتى يبدأ المروجون والوكلاء في الاتصال بمنزلهم[19]. لكن «المشاهير» الشباب على الإنترنت الأكثر عرضة للخطر، ليسوا شخصيات مثل كريستيان أو آلي، اللذين نحتا شخصيتيهما بعناية، وحصلا على تقدير معتبر من قبل المعجبين والمروجين. إنهم أطفال ومراهقون اكتسبوا شهرة عن غير قصد أو رضا.

صعود التنمر السيبراني

يمكن تقفي أثر أحد أقدم الأمثلة المعروفة الآن بـ «التنمر السيبراني» cyber-bullying أو الإلكتروني في سلسلة من مقاطع الفيديو، يَظهر فيها صبي يُدعى طفل حرب النجوم Star Wars Kid[20]. صُوِّر الفيديو الأصلي في العام 2002 – قبل عامين من إطلاق يوتيوب – من قبل طالب في المدرسة الثانوية، يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا في «تروا ريفيير» Trois-Rivières، »كيبيك» Québec. في ذلك الوقت، لم يكن لدى غيسلين رازا Ghyslain Raza أي نية أن يصبح ميميا على الإنترنت، وهو مفهوم لايزال في طور الانبثاق[21]. الواقع أن رازا كان يستمتع فقط في استوديو الأفلام بمدرسته الثانوية عندما صور فيديو لنفسه، وهو يستخدم سيفا ضوئيا بدائيا، ويقلد على نحوٍ أخرق شخصية من سلسلة «حرب النجوم». وعثر زميل له على شريط الفيديو هذا، الذي تركه عن طريق الخطأ على طاولة في المدرسة، وبعد عدة أشهر، في أوائل العام 2003، حمَّله زميل آخر على الإنترنت. لم ينشر رازا الفيديو بنفسه، ولم يكن ينوي أن ينشهر على نطاق واسع. في ذلك الوقت بالذات، لم يخطر بباله – على ما يبدو – إمكانية أن يشاهد الفيديو الخاص به مئات الآلاف من الأشخاص. في النهاية، حظي الفيديو باهتمام كبير ليس فقط عبر الإنترنت، ولكن أيضا عبر وسائل أخرى غير متصلة بالإنترنت، حيث شرعت مصادر ووسائل الإعلام التقليدية في الإبلاغ عن الظاهرة الجديدة التي أصبح مقطع فيديو رازا مرادفًا لها. في

مايو 2003، على سبيل المثال، ذكرت صحيفة «نيويورك تايمز» New York Times، «منذ أن أُطلِق على شبكة الإنترنت في أواخر الشهر الماضي بمزحة من زملائه في المدرسة الثانوية الذين اكتشفوا المقطع، نُزِّل هذا الفيديو أكثر من مليون مرة. كما يُتداول عديد من المدمجات أو «ريمكسات» remixes، مع إضافة مؤثرات خاصة لجعل العصا تتوهج مثل سيف ضوئي، وتتواءم الحركة مع الموسيقى». ويتابع المقال: «إن مقاطع الفيديو القصيرة للحظات المحرجة أو المضحكة أو غير القانونية هي تعريفة شائعة على الإنترنت. لكن هذا الطفل، المعروف باسم طفل حرب النجوم، قد سافر مسافة أبعد وأسرع، وحظي باهتمام أكثر من أي وقت مضى»[22].

بالنسبة إلى رازا، كان تأثير التحول بالمصادفة إلى أول ميم على الإنترنت، يُتَداول على نطاق واسع في العالم، أمرا مدمرًا. بعد أن بدأ انتشار الفيديو على الإنترنت مباشرة، فقد رازا عددا قليلا من أصدقائه وواجه تنمرا شديدا في المدرسة. وكان التنمر شديدا إلى درجة أنه ترك المدرسة، وانتهى به الأمر إلى إكمال عامه الدراسي انطلاقا من جناح الأمراض النفسية للأطفال[23]. لكن لم تكن جميع ردود الأفعال على الفيديو سلبية، بل إن رازا اكتسب رضا معجبين كثر، الذين بدأ بعضهم حملة لجمع التبرعات عبر الإنترنت لشراء شهادة هدايا تمنح له من «آيبود» و«أمازون»، لكن هذه الهدايا لم تكن ذات عزاء كبير.

في يوليو 2003 رفع والدا رازا دعوى قضائية ضد والدي الأولاد الذين حمَّلوا الفيديو. وسُويت الدعوى خارج المحكمة. وعلى رغم ذلك، حتى بعد أن اتخذ والدا رازا إجراء قانونيا، استمر انتشار الفيديو – من دون أن يكون في مقدور رازا التحكم في الأمر في ذلك الوقت. أما في الآونة الراهنة، فحصد أكثر من 27 مليون مشاهدة على اليوتيوب، وتمت محاكاته على نحو تهكمي في كل شيء، بدءا من «ساوث بارك» South Park إلى برنامج «كولبير ريبورت» Colbert Report،[24] كما كتبت دانا بويد danah boyd، بأن الفيديو يوضح «كيف أن التشهير الجماهيري الجماعي هو نتيجة ثانوية لاهتمام الإنترنت الواسع النطاق وللتوزيع الشبكي»[25].

على مدى سنوات عديدة، نأى رازا بنفسه عن الفيديو، وحاول إعادة اكتشاف هويته. في العام 2013، عندما كان طالبا في القانون بجامعة «ماكجيل» Mc-Gill، تقدم أخيرا للحديث عن الحادثة على أمل مساعدة الأطفال الآخرين في التعامل مع

مشكلة التنمر السيبراني المتزايدة. وفي مقابلة مع مجلة «لاكتياليتي» L'actualité الناطقة بالفرنسية، وصف فترة إصدار الفيديو وما تلاها بأنها «مظلمة للغاية». ويوضح مسترسلا: «بغض النظر عن مدى محاولتي بكل ما أُوتيت من جهد تجاهل الأشخاص الذين كانوا يدعونني إلى الانتحار، لا يسعني إلا الشعور بالدونية، تماما مثل الشعور بعدم أحقيتي في العيش في هذه الحياة»[26]. ومن المفارقات أنه من خلال حديثه عن قضية التنمر السيبراني، يكون قد يئس أيضا من بلوغ أي أمل يمكنه من تجاوز وضعيته باعتباره «طفل حرب النجوم».

ومنذ العام 2003، عندما حُمِّل «طفل حرب النجوم» خلسة على الإنترنت، وأصبح متاحا للملايين، أصبح التدوير غير المقصود للصور ومقاطع الفيديو عبر الإنترنت، مشكلة متنامية، خاصة بالنسبة إلى الفتيات المراهقات، اللائي غالبا ما يقعن ضحايا لنوع معين من التنمر السيبراني. منذ العام 2010، كانت هناك عشرات التقارير بشأن انتحار فتيات وشابات بسبب عرض صور ومقاطع فيديو فاضحة لأجسادهن جرى تداولها عبر الإنترنت[27]. تضمنت بعض هذه الحالات شابات أرسلن صورا جنسية إلى أحبائهن الذين انتقموا منهن لاحقا إثر تفكك علاقتهم، وذلك عن طريق إعادة نشر الصور. وُصِفت هذه الظاهرة في البداية بـ «إباحية انتقام»، ولكن وُصفت بدقة أكبر بتعبير: «إساءة استخدام الصور الحميمية»، أو «إساءة قائمة على الصور»، أو «تقاسم غير رضائي للصور الحميمية». في حالات أخرى، وُثقت الآن في جميع أنحاء العالم، التُقطت الصور بينما كانت الشابة مغمى عليها، عادة في حفلة من الحفلات، وتعرضت للانتهاك الجنسي من قبل مشارك واحد أو أكثر. أما بالنسبة إلى عديد من الفتيات، فيبدو أن الانتحار يوفر لهن الهروب المؤكد الوحيد من الإذلال الذي تسببه التجربة. كان هذا بالتأكيد هو الحال بالنسبة إلى رحتة بارسونز Rehtaeh Parsons[28].

لم يكن لدى بارسونز أي نية لكسب الشهرة عبر الإنترنت عندما اختارت حضور حفلة منزلية صغيرة مع عدد قليل من الأصدقاء في العام 2011. في تلك الحفلة تناولت بارسونز، التي كانت تبلغ من العمر خمسة عشر عاما في ذلك الوقت وتعيش في إحدى ضواحي هاليفاكس Halifax، نوفا سكوشا Nova Scotia، مشروبات كحولية مسكرة - بما يكفي لجعلها تتقيأ - وفي وقت ما في المساء،

تعرضت للاعتداء من قبل مجموعة من الأولاد المراهقين. للأسف، لا يوجد شيء غير عادي في هذه القصة حتى الآن – ذلك بأن شرب القاصرين، والاعتداء الجنسي أمران شائعان بين المراهقين[29]. لكن في حالة بارسونز، ما حدث في ليلة الحفلة، كان مجرد بداية لمحنة أطول بكثير؛ إذ في غضون أسابيع قليلة، بدأت صور الحفلة تنتشر على الإنترنت. وفي إحدى الصور، كانت عارية من الخصر إلى الأسفل، مع ظهور شاب يعتدي عليها. صُنفت بارسونز باعتبارها «عاهرة» من قبل أقرانها على منصات مختلفة عبر الإنترنت، وسرعان ما وجدت نفسها معزولة اجتماعيا، وتواجه أفكارا انتحارية لا يمكن أن يخمدها لا الانتقال المدرسي ولا الإرشاد النفسي. ومما زاد الطين بلة، خلص تحقيق للشرطة إلى عدم وجود أدلة كافية لتوجيه اتهامات بالاعتداء على الشبان الموجودين في الصورة. وفي 4 أبريل 2013، بعد أقل من عامين على الحادث، انتحرت بارسونز. وبعد وفاتها، اتُّهم اثنان من الشبان المتورطين في الحادث (في سن يفوق الثامنة عشرة) بتوزيع المواد الإباحية للأطفال[30]. ثم اتخذت قصة «بارسونز» منعطفا مزعجا آخر.

في العام 2014، بعد ما يقرب من ثلاث سنوات من وفاة بارسونز، حكم قاضٍ كندي بعدم أحقية ذكر اسمها في الصحف، أو التلفزيون، أو الراديو، أو على أي منصة من منصات الوسائط الاجتماعية من قبل أي أحد كان – بما في ذلك الصحافيون والمواطنون العاديون. وعلى الرغم من انسجام حكم القاضي مع القانون الجنائي الكندي، الذي يؤكد أن جميع المحاكمات المتعلقة بإباحية الأطفال، تخضع لحظر النشر، فقد كان هذا منعطفا قاسيا في الأحداث. وفي الوقت الذي وصلت فيه قضية بارسونز إلى المحاكم، تبنى والداها وعديد من المدافعين عنها إرثها باعتباره جزءا من حملة للمطالبة بقوانين جديدة صارمة بشأن التنمر السيبراني. إن إخبار والديها وأصدقائها ومناصريها على نحو مفاجئ بأنهم يخالفون القانون حتى من خلال ذكر اسمها على الإنترنت، كان يبدو رديفا بإعادة إيذاء امرأة شابة كانت وفاتها نتيجة كشف سلبي على الإنترنت. في العام التالي نُشر تقرير مستقل عن معالجة القضية، بتكليف من مقاطعة «نوفا سكوشا»، بحيث أشار معد التقرير موراي دي سيغال Murray D. Segal إلى مدى اختلاف حلقة كهذه قبل ظهور الإنترنت: «منذ سنوات، كان من الممكن نسيان أخطاء المراهقين بسرعة، لكن لم يعد

الأمر كذلك حاليا. ولأن عواقب سلوك المراهقين أضحت متباينة، فلا بد من توافر قوانين متباينة أيضا»[31].

وتكشف قصص جافين، وماثيو، وكريستيان، ورازا، وبارسونز أن الأطفال والمراهقين الذين اشتهروا على الإنترنت، لا يمكن تجميعهم معا بسهولة؛ إذ يمكن حصرهم بين الأطفال الرضع والأطفال الصغار الذين قد يملكون، في أحسن الأحوال، فهما غير واضح لشهرتهم عبر الإنترنت، فمن المراهقين الذين صنعوا شهرتهم عبر وسائط التواصل الاجتماعي، وإلى ضحايا التنمر السيبراني، إنهم مجموعة متنوعة لها حاجات وحقوق مختلفة. يجب الحرص على ألا تؤدي الجهود المبذولة إلى حماية الضحايا المحتملين للاستغلال عبر الإنترنت أو التنمر السيبراني إلى تقويض حقوق هؤلاء المراهقين الذين قرروا تولي مهنهم الترفيهية بأيديهم. والواقع، أن تمثيل الشباب الآن أنفسهم، ونشرهم هذه الصور في الوقت ذاته، هو أمر يستحق التنويه. إن التمثيل الذاتي للأطفال والمراهقين لا يطرح مشكلة، ولكن التداول غير المنظم والمستمر لبعض هذه الصور ومقاطع الفيديو، يمكن أن يمثل مشكلة في ظل ظروف محددة - أي عندما يضر التداول بالـ «موراتوريوم» النفسي والاجتماعي الذي مُنح تاريخيا للمراهقين.

من المفيد هنا العودة بإيجاز إلى قضية رازا؛ إذ لو أنه أعد مقطع الفيديو الخاص به، وأخذ الشريط إلى المنزل في العام 2002، لمشاهده بنفسه على الأرجح، لربما تقاسمه مع العائلة والأصدقاء؛ بل ولربما بقي الفيديو على قيد الحياة لبضع سنوات أخرى، ليتسنى له العثور عليه لاحقا - في سن الثامنة عشرة أو العشرين - ويعيد تشغيله مرة أخرى من أجل التسلية، أو فقط التخلص منه حتى لا يكتشفه أي شخص كان. لم يكن لقرار رازا بشأن الفيديو إلا عواقب محدودة إن وجدت أصلا، لو لم يقتحم المجال الرقمي. لسوء الحظ، سجل رازا مقطع الفيديو الخاص به على أعتاب حقبة جديدة من الإنتاج والتداول الإعلامي.

انظر كيف تغيرت ظروف الإنتاج منذ العام 2002؛ فبعد أن أعد رازا الفيديو واكتشفه زملاؤه في المدرسة، كان عليهم نقله إلى صيغة جديدة، وتحميله على الإنترنت، ثم إيجاد طريقة لنشره. اليوم، سيكون الفيديو نفسه جاهزا للنشر على منصات تقاسم متعددة، وستكون القدرة على توزيعه على بعد نقرة واحدة فقط.

وبخلاف دقة الوضوح العليا التي تطبع جودة الصورة، فإنها شبيهة بجودة إنتاج الفيديو الذي يصنعه أحد المراهقين اليوم إلى حد كبير. ما تغير فعليا هو السرعة والسهولة التي يمكن بها الآن تقاسم مقاطع الفيديو، ومن ثم، حجم الجمهور المحتمل حتى لأكثر الأشكال اليومية للتمثيل الذاتي. باختصار، اختفى عمليا المكان والزمان اللذان كانا يفصلان التصوير وتحرير الصور عن عملية تداولها. يمكن للصور ومقاطع الفيديو المخصصة لنا أو لعدد قليل من الأصدقاء أن تخرج بسهولة عن سيطرة المرء، وتستمر مع مرور الوقت. بتعبير بسيط، أصبح البث الآن في متناول الجميع. لكن ما الشيء الذي تخلينا عنه نتيجة لذلك؟

إن رازا، الذي كان مراهقا أخرق مع عدد قليل من الأصدقاء في المدرسة، عانى تنمرا شديدا نتيجة لتداول الفيديو الخاص به. على المدى القصير، تخلى عن خصوصيته – أي عن حقه في فعل شيء أخرق ثم تجاوزه. وعلى المدى الطويل، فإن تداول الفيديو لم يمكنه بتاتا من نسيان الحادث. بل إن تغيير المدارس والانتقال، لم يخلصه من هذه اللحظة العابرة من حرج المراهق؛ فالمشاعر مؤلمة، والعار ليس استثناء. وعلى رغم ذلك، فإن الشيء الفريد في الخزي هو كونه عاطفة مرتبطة بشاهد ما. فيشعر المرء بالخزي أمام شخص ما[32]. ولأن الفيديو كان في حلقة مستمرة، فقد أصبح رازا عالقا على نحو دائم في الخزي والإذلال اللذين يشكلان جزءا لا يتجزأ من تجربة المراهق.

بالنسبة إلى شخص مثل بارسونز، كان هناك الكثير على المحك أكثر من مجرد فيديو أخرق. فقد أصبحت عن غير قصد ضحية لاستغلال الأطفال إباحيا، مثلها مثل عديد من الشابات الأخريات. فلقد تبعتها الصور، والشبكات الاجتماعية التي نشأت فيها هذه الصور، على الرغم من محاولات الانتقال إلى مدرسة جديدة. غالبا ما تفيد الشابات اللواتي يقعن ضحايا للإساءة القائمة على الصور بأنه لا يمر وقت طويل على انتقالهن، حتى يبدأن في تلقي رسائل ونصوص من الأولاد، يطلبون منهن إرسال صور أو مقاطع فيديو مهينة[33]. وبالنسبة إلى بعض هؤلاء الشابات، قد يبدو الانتحار الوسيلة الوحيدة المؤكدة للتخلص من هذا الوضع. وعلى المدى القصير، تُسلب هؤلاء الشابات من خصوصيتهن، ولكن على المدى الطويل، يُسلب بعضهن على الأقل من حياتهن.

إن الأطفال والمراهقين الذين يكتسبون سمعة سيئة عبر الإنترنت، على الرغم من اختلاف ظروفهم، لديهم شيء واحد مشترك: أرشيف على الإنترنت، يحتوي على توثيق لواحدة أو أكثر من حوادث سنواتهم الأولى. لقد سُلب رازا من القدرة على تقمص هوية أو دور (في هذه الحالة، هوية أو دور شخصية حرب النجوم)، كما سُلب أيضا من القدرة على قمع الحادثة أو إعادة تصورها بطريقة مقبولة مع تقدمه في السن. بالنسبة إلى الفتيات مثل بارسونز، اللائي استنتجن أن الموت وحده يمكن أن يحررهن من الصور ومقاطع الفيديو المهينة لأجسادهن المنتشرة على الإنترنت، فإن الخسارة تعد أكبر بكثير بما أنهن يفقدن القدرة على شغل دور الضحية بعد فترة عابرة. وتعد التجربة الجنسية جزءا لا يتجزأ من النمو، ولهذا ترى العديد من الفتيات يشتكين من الاعتداء عليهن جنسيا. (من بين طلاب السنة الأولى بالجامعات، على سبيل المثال، تشير 17 في المائة من النساء إلى أنهن قد تعرضن بالفعل لاتصال جنسي عن طريق القوة الجسدية أو التعجيز)[34]. وعلى رغم ذلك، في الماضي، لم تكن التجارب الجنسية للشابات، ولا الاعتداءات عليهن موثقة على نطاق واسع. وكانت ممارسة الجنس بين المراهقين – سواء أكان بالتراضي أم لم يكن كذلك – شيئا يقتصر عادة على غرف النوم والطوابق السفلية وحفلات في الأماكن البعيدة عن المدن.

بينما سمحت كاميرات «بولارويد» لبعض الصور التي تعرض تجارب واعتداءات جنسية بالتداول، كانت تمثل هذه الصور وثائق فريدة من نوعها، تشترك فيها مع اللوحات أكثر من الصور الموجودة الآن على «سناب شات» أو «إنستغرام». اليوم، لم تعد ممارسة الجنس بطريقة سيئة، واغتصاب المراهقين مجرد حوادث فردية، بل أصبحت على نحو متزايد حوادث متكررة. صحيح أن أعمال العنف تتكرر في كثير من الأحيان في أذهان الناجين على مدى سنوات بعد حدوثها، غير أن ما يُذكر عادة ليس بالضبط ما حدث، ولكن بالأحرى إعادة صياغة الحادث – وهو ما أسماه فرويد «الذاكرة المقَنَّعة». وهذا يثير سؤالا مهما آخر: ماذا يحدث لقنع الذكريات في عصر الشاشات؟

ذكريات مقنعة في عصر متعدد الشاشات

عندما نشر فرويد «ذكريات مقنعة» Über Deckerinnerungen في العام 1899، لم يكن لديه طريقة لمعرفة كيف ستصبح الشاشات في كل مكان في نهاية

المطاف، أو إلى أي مدى ستشكل هذه الشاشات التجارب المستقبلية للطفولة والمراهقة. وبالنظر إلى أن فرويد غالبا ما أشار إلى الوسائط البصرية في عصره – والتصوير الفوتوغرافي بخاصة – في كتاباته، فقد يكون مثيرا افتراض أنه كان يفكر في الشاشات باعتبارها مِرْشَحاتٍ وأسطح عرض عندما كتب هذا المقال، غير أن ثمة أدلة قليلة تدعم هذا الاستنتاج[35]. على الرغم من أن النسخة المعيارية لأعمال فرويد تترجم بـ «ذاكرة مقنعة»، فإن الترجمة الحرفية ستكون «حجب» أو «إخفاء» الذكريات.

تحدد مقالة فرويد ثلاثة أنواع مختلفة من ذكريات مقنعة. أما النوع الأول، فيتجلى في تلك الذكريات التي تخفي حدثا مختلفا وقع في الوقت نفسه. على سبيل المثال، قد يتذكر المرء سقوط فرع شجرة. على الرغم من وقوع الحادث، فإنه يحل محل حدث آخر أكثر أهمية وقع خلال الإطار الزمني نفسه (على سبيل المثال، التعرض للضرب على الرأس بملعقة خشبية). في النوع الثاني من تصنيف فرويد، تحل الذكريات اللاحقة محل ذكرى حدث من أحداث الطفولة. ونظرا إلى أن قلة من الناس يتذكرون أحداث الماضي قبل سن الرابعة أو الخامسة، فهم كثيرا ما ينقلون ذاكرة من فترة لاحقة إلى هذه الفترة السابقة. أما النوع الثالث الذي يذكره فرويد على نحو عابر، فهو «الذاكرة المقنعة التراجعية» retrogressive screen memory، تأتي الذاكرة السابقة هنا لتمثل مصدر قلق لاحق[36]. وما تقترحه الفئات الثلاث لذكريات مقنعة هو مرونة ذكريات الطفولة على نحو خاص. إن غرضها، وفقا لفرويد، لا يتعلق بدافع وثائقي بقدر ما يتعلق بحماية الذات. إن الناس يتذكرون طفولتهم من أجل استيعاب التجارب، بدلا من إعادة إنتاجها بأي طريقة دقيقة كانت.

لم يشرح فرويد على نحو كافٍ سبب نسياننا لمعظم ذكريات طفولتنا المبكرة، وتشويه معظم سنوات طفولتنا والمراهقة المتبقية، لكنه أدرك تماما مدى انتشار الذكريات الكاذبة. في «ذكريات مقنعة»، يلاحظ أنه عندما يتذكر الشخص طفولته، يميل إلى رؤية نفسه في منتصف مشهد ما، تماما مثل ما يراه مراقب خارجي: «من الواضح أن مثل هذه الصورة، لا يمكن أن تكون تكرارا دقيقا للانطباع الذي تم تلقيه في الأصل؛ لأن الشخص كان وقتها في منتصف الموقع، ولم

يكن يهتم بنفسه بل بالعالم الخارجي». إننا لا نتذكر انطلاقا من منظورنا الخاص ولكن كأننا نشاهد طفولتنا تمر، مما يدل على أن الذاكرة المحتفظ بها قد أُنتجت بعد الحقيقة نفسها، بدلا من كونها ذاكرة احتُفظ بها باعتبارها انطباعا أصليا. بينما قد يبدو أن آثار الذاكرة هذه من الطفولة «تُرجمت مرة أخرى إلى شكل بلاستيكي ومرئي»، بيد أن هناك سببا مقنعا للقول «بعدم ولوج أي استنساخ للانطباع الأصلي وعي الفرد». ولتعزيز طرحه، يلاحظ فرويد أنه «من أصل عدد من ذكريات الطفولة الخاصة بتجارب مهمة – وهي تجارب كلها متشابهة من حيث التميز والوضوح – ستكون هناك بعض المشاهد التي عند اختبارها (على سبيل المثال من خلال ذكريات البالغين)، سيتبين زيفها». وعلى رغم ذلك، لم تُخترع بالكامل: «فهي مزيفة من حيث كونها نقلت حدثا إلى مكان لم يحدث فيه... أو أنها دمجت شخصين في شخص واحد أو استبدلت أحدهما بالآخر، أو أن المشاهد ككل تعطي إشارات تفيد بأنها تركيبات من تجربتين منفصلتين». بينما قد يميل المرء إلى إيعاز مثل هذه الزلات إلى الخطأ، بيد أن فرويد يصر على وجود شيء أعمق مؤثر:

إن غياب الدقة البسيطة في التذكر، لا تضطلع بأي دور معتبر هنا، بالنظر إلى الدرجة العالية من الشدة الحسية التي تمتلكها الصور، ونجاعة وظيفة الذاكرة لدى الشباب؛ كما يُظهر الاستقصاء الدقيق أن هذه التزييفات التي امتدت إلى الذاكرة، إنما هي تزييفات مغرضة؛ أي إنها تخدم أغراض القمع، واستبدال الانطباعات المرفوضة أو غير المرغوب فيها؛ مما يترتب على ذلك، إذن، ضرورة أن تكون هذه الذكريات المزيفة أيضا، قد نشأت في فترة من الحياة أصبح من الممكن فيها أن تكون الصراعات من هذا النوع والاندفاعات نحو القمع قد جعلت لنفسها مكانا في الحياة العقلية في وقت لاحق جدا، يتجاوز الفترة التي ينتمي إليها محتواها[37].

بينما يبدو أن فرويد في بعض الأحيان يفصل بين هذه الذكريات المزيفة وذكريات الطفولة الأخرى، فقد ذهب في مرحلة ما في «ذكريات مقنعة» إلى حد اقتراح أن جميع ذكريات طفولتنا هي ذكريات مقنعة: «قد نتساءل بالفعل عما إذا كانت لدينا أي ذكريات أصلا من ذكريات طفولتنا: قد تكون ذكريات طفولتنا هي كل ما نملك. وتُظهرُ لنا ذكريات طفولتنا سنواتِنا الأولى، ليس كما كانت، ولكن

كما ظهرت في فترات لاحقة عند إثارة الذكريات. وفي فترات الإثارة هذه، لم تظهر ذكريات الطفولة، كما اعتاد الناس على القول؛ بل شُكلت في ذلك الوقت. وكان لعدد من الدوافع - مع عدم الاهتمام بالدقة التاريخية - دور في تشكيلها، وكذا في اختيار الذكريات نفسها»[38].

إن مقال فرويد يشير إلى تمكين الذكريات المقنعة الأفرادَ من السيطرة على فترة من حياتهم حينما يكون حظهم من الفاعلية محدودا، على الرغم من عدم ذكر ذلك على نحو صريح. وبالنظر إلى أن الأطفال لم يجدوا أنفسهم تاريخيا على هامش المجتمع فقط (وذلك من حيث كونهم أطفالا غير قادرين على التصويت أو حتى على اتخاذ قرارات طبية بمحض إرادتهم)، بل ولم تكن لديهم الوسائل لتوثيق صور لأنفسهم ونشرها إلى وقت قريب، فإن الفكرة تظل ذات تأثير كبير. يبدو أن فرويد يشير إلى أنه قبل فترة طويلة من تمكن الأطفال من إنشاء صور لحياتهم وتعديلها ورعايتها، كانوا يضطلعون بذلك أصلا على مستوى نفسي. في بعض الأحيان، قد تُفهم الذكريات المقنعة من حيث كونها توفر فضاء يمكن للأطفال من خلاله تعديل حياتهم والسيطرة عليها انطلاقا من سن مبكرة. في عالم لا يُمنح فيه الشباب الحقوق نفسها التي يتمتع بها الكبار، فإن الشيء الوحيد الذي يمكنهم فعله دائما هو التعديل الانتقائي لما اختاروا تذكره أو نسيان طفولتهم ومراهقتهم بالأساس. يشير فيليس غريناكري Phyllis Greenacre، أحد المحللين النفسيين القلائل الذين كتبوا بإسهاب عن الذكريات المقنعة بعد فرويد، إلى أن مثل هذه الذكريات يمكن أن تكون بمنزلة «انحراف عن التركيز من رعب لا يُطاق إلى شيء غير ضار ومألوف على نحو يدعو إلى الطمأنينة»[39].

إن مفهوم ذكريات مقنعة لا يخلو من الجدل؛ فلقد واجه تحديات من داخل مهنة التحليل النفسي، ومن مجال علم النفس على نطاق أوسع. ونظرا إلى كون البحث الذي يستند إلى أدلة، لم يُظهر بعد أن إفراغ ذاكرات مقنعة يؤدي إلى نتائج طبية مهمة (وفي بعض الأوساط، هناك شك بشأن ما إذا كانت حالات القمع والذكريات المقنعة موجودة أصلا)، فإن هذا المفهوم فقد مكانته بين المحللين الممارسين. وفي كتاب يضم مقالات بشأن مفهوم فرويد، نشر في العام 2015، لاحظ المحررون أن الذكريات المقنعة «نادرا ما تقع اليوم في صلب اهتمامات المحللين»[40].

كما يشير بعض المساهمين في الكتاب إلى أن عدم الاهتمام هذا، قد يُعزى إلى حقيقة أن تحديد ذاكرات مقنعة، لا يؤدي - على ما يبدو - إلى تقلصها[41] .

وعلى رغم ذلك، حتى لو كانت إمكانية إفراغ ذاكرات مقنعة محدودة في حل الصدمات، فإن كتابات فرويد المبكرة عن التذكر والنسيان في مرحلة الطفولة تبقى مهمة. أولا، كان يظن – على ما يبدو – أنه حتى لو كانت ذكريات طفولتنا خاطئة أو مشوهة، فإنها لا تشكل تهديدا لسلامتنا العقلية؛ ولا تتوقف السلامة العقلية للفرد على استعادة ذكرياتنا وتصحيحها. لقد قدر أن الذكريات المقنعة يمكن لها أن تمكن الشخص من تحويل رعب لا يُطاق إلى شيء غير ضار ومألوف. على سبيل المثال، لاحظ فرويد أن مرضاه غالبا ما يتذكرون أحداثا عرضية من طفولتهم (على سبيل المثال، فقدان لعبة ما أو تلفها) خلال الفترات التي حدثت فيها أحداث خطيرة ومأساوية[42]. توصل بعض علماء الأعصاب إلى أدلة تدعم هذه الفكرة، مما يدل على أن الذكريات – على ما يبدو – تُحدَّث باستمرار[43]. ولكن في عصر تنتشر فيه الشاشات الإلكترونية في كل مكان، هل ستصبح الذكريات المقنعة، مثل النسيان، الاستثناء وليس القاعدة؟ إذا كان الأمر كذلك، فهل سنفقد القدرة على تحويل الأهوال التي لا تُطاق والحوادث المخزية التي غالبا ما تكون جزءا من النمو، إلى أجزاء غير ضارة ومألوفة من الذاكرة؟ هل نحن بصدد فقدان القدرة على إنشاء ذكريات مقنعة – ذلك الموقع الصغير ولكن المهم من قوة الإرادة، الذي كان دائما مخصصا للشباب؟ هل هذه هي المقايضة عالية المخاطر التي تمكن أخيرا من اكتساب القدرة على الانخراط في كل من التمثيل الذاتي والبث؟

في أثناء عملية تبادل ذكريات مقنعة مقابل شاشات، تكون المخاطر أكبر بكثير على الأطفال والمراهقين منها على البالغين، وتكون أعلى بكثير بالنسبة إلى بعض الشباب مقارنة بآخرين. ومن المحتمل أن يخرج بعض الأطفال والمراهقين اليوم – مثلهم مثل مشاهير الأطفال في وقت سابق – ممن وثِّقت حياتهم على نحو مفرط، سالمين، في حين سيتضرر بعضهم الآخر. سيتوقف مستقبل شخص مثل جافين، الذي تم تداوله باعتباره «ميما» منذ أن كان في الثانية من عمره، إلى حد كبير على ما إن كان هناك جهد معقول يُبذل للتخفيف من الآثار السلبية أو الاستغلالية المحتملة للشهرة والاستعراض.

أما بالنسبة إلى ضحايا التنمر السيبراني، فالعواقب كانت أكثر عمقا. على سبيل المثال، كان غيسلين رازا سيستفيد من ذكريات مقنعة أكثر من استفادته من الشاشات. لن يتمكن رازا أبدا من نسيان عامه الخامس عشر المحرج؛ فمجرد كتابتك اسمه داخل أي محرك بحث، ستظهر نسخ متعددة من فيديو طفل حرب النجوم. ولم تتح لرازا قط فرصة لتحويل لحظته العابرة الحمقاء التي يمر بها، إلى ذاكرة مقنعة، ولن يفعل ذلك أبدا. ومع استمرار الأثر الوثائقي للحدث في التداول بعد أكثر من خمسة عشر عاما، تنعدم إمكانية إخفاء الحدث على نحو فعال أو السماح لذكرى لاحقة بأن تحل محل هذا الحدث، أو إعادة كتابته انطلاقا من نظرته التي اكتسبها من تجاربه خلال مرحلة البلوغ. على الرغم من أن وضع رازا كان فريدا – لأنه حدث بالتزامن مع تطوير وسائط التواصل الاجتماعي، ولأنه حظي باهتمام وسائل الإعلام التقليدية عبر الإنترنت أكثر من أي «ميم» على الإنترنت منذ ذلك الحين – فإن أي طفل أو مراهق يكبر الآن، أضحت لديه القدرة على أن يصير رازا آخر. ولحسن الحظ، ليس كل الشباب يتعرضون للتنمر السيبراني، كما كان الحال مع رازا؛ ولكن في منتصف العشرينيات من العمر، قد لا يصبحون قادرين على الاعتماد على الذكريات المقنعة التي كانت تقليديا تريحهم من مشاعر الخزي، والإذلال، والخوف التي تعد دائما جزءا من النمو. يبدو أننا مجبرون على تشويه وإخفاء ذكريات الطفولة التي لا تُطاق. لكننا نعيش حاليا في عالم يتعرض فيه هذا الدافع الوقائي لتهديد متزايد من قبل الشاشات التي تميط اللثام عن كثير من أسرار حياتنا وتطورنا المبكر.

4

عندما يغادر الأشخاص المشار إليهم بيوتهم

«إن بنية شبكات التواصل الاجتماعي، وتقنيات التعرف على الوجه، والعملية الآلية للإشارة إلى الأشخاص، وتطبيقات الواقع المعزز الناشئة، كلها تتقارب بطرق قد تحوِّل تجربة مغادرة المنزل قريبًا إلى شيء من الماضي البعيد».

إن مغادرة المنزل - سواء منزل العائلة أو المجتمع الذي ترعرع فيه الناس - بالنسبة إلى معظم الناس، تعد لحظة حاسمة. صحيح، ليس كل شخص لديه ما يهرب منه أو لديه حاجة ملحة إلى إعادة ابتكار نفسه، ولكن المؤكد أن كثيرا من الناس يفعلون ذلك. بالنسبة إلى بعض الناس، ترادف مغادرة المنزل الابتعاد عن التقاليد، في حين يراها آخرون طريقةً للهروب من بيئة مسيئة، أو من بيئة تجاوزت طبقتهم الاجتماعية. باختصار، يغادر الناس منازلهم لأسباب متعددة وأحيانًا من أجل ضمان البقاء. وعلى رغم ذلك، فإن مغادرة المنزل لم تكن كما كانت في الماضي. الواقع أن إحدى أبرز العواقب المادية لزوال النسيان قد تكون

هي التغيير العميق الذي يحدثه في فعل مغادرة المنزل الذي كان يعد في السابق أمرا عاديا.

مع توسع شبكات التواصل الاجتماعي، إلى جانب الوصول إلى المعلومات بشأن المواقع البعيدة، قد تكون مغادرة المنزل فعليًّا الآن أسهل من أي وقت مضى؛ فلدى الشباب أدوات جديدة رهن إشارتهم للبحث في حياتهم المستقبلية، إذ يمكن للشخص الذي يحلم بالالتحاق بكلية على الجانب الآخر من البلاد أو الجانب الآخر من العالم، والذي ربما أُحبِط في السابق بسبب نقص المعلومات، يمكنه الآن في غضون ساعات عبر الإنترنت التوصل، من خلال البحث، إلى المدارس المحتملة، وفرص المنح الدراسية، وحتى الدردشة مع مرشدي القبول. قد يكون هذا أحد الأسباب وراء زيادة عدد الطلاب الأجانب في الجامعات الحكومية في الولايات المتحدة إلى أكثر من الضعف خلال الفترة الممتدة بين العامين 1986 و2016[1]. لكن اختيار كلية بعيدة ليس هو الخيار الوحيد المتاح للشباب الذين يرغبون في الانتقال بعيدا، بل إن منصات عبر الإنترنت من «كريغزلست» Craigslist إلى «سبيرروم» SpareRoom، تعمل أيضًا على تسهيل اتصال المراهقين بأصدقاء جدد، وبزملائهم المحتملين في السكن، وبالوظائف في مواقع أخرى على الصعيدين الوطني والدولي. إذا رغب أحد الشباب في الهرب من بلدته الصغيرة أو ضاحيته، فلن يضطر بعد الآن إلى مواجهة الاحتمال الذي كان مخيفًا في السابق، المتمثل في ركوب حافلة أو قطار والظهور في مدينة جديدة، ليس بها مكان يتوجهون إليه سوى نُزل شباب محلي. في القرن الحادي والعشرين يمكنهم التخطيط بعناية للهرب، وإنشاء شبكة حياة وشبكة اجتماعية جديدتين قبل وقت طويل من وصولهم إلى وجهتهم المرجوة.

على الرغم من هذه الظروف، فإن الجوانب الأخرى لمغادرة المنزل - وخصوصا فعل الانفصال التام والجذري عن الماضي - أصبحت أكثر صعوبة، كما أن صعوبة الانفصال عن الماضي تؤثر في أشخاص مختلفين بطرق مختلفة للغاية، تمامًا مثل أن لتراجع النسيان رهانات مختلفة لتركيبة سكانية مختلفة. في بعض الحالات، نحن الآن جميعًا أشخاص أو موضوعات مشار إليها tagged، أشخاص لا يمكن تتبع حركاتهم بسهولة فقط، بل تذكر ذواتهم السابقة وإعادتها إلى التداول في أي وقت من الأوقات. إن الشخص الذي يريد مغادرة المنزل، وترك الماضي وراء

ظهره، يواجه الآن عقبتين جديدتين وفريدتين من نوعهما. أولاهما، وجود مشكل الاستتار والتخفي عن الأنظار في الوقت الحاضر؛ وثانيتهما مشكل ثني الماضي عن الارتباط بالحاضر. إن بنية شبكات التواصل الاجتماعي، وتقنيات التعرف على الوجه، والعملية الآلية للإشارة إلى الأشخاص، وتطبيقات الواقع المعزز الناشئة، كلها تتقارب بطرق قد تحوِّل تجربة مغادرة المنزل قريبًا إلى شيء من الماضي البعيد. لكن كيف وصلنا إلى هذه النقطة؟

لتقدير كيفية وصولنا إلى وضعنا الراهن، يحتاج المرء إلى تأمل تاريخين اثنين، الأول هو تاريخ أجهزة التتبع، وكيفية تطورها - التي كانت تُطبَّق في السابق على نحو أساسي على الحيوانات غير البشرية - على مدار القرن الماضي، وأصبحت أخيرا تحتضنها الحيوانات البشرية؛ أما الآخر فيتجلى أيضًا في تاريخ الإشارة إلى الأشخاص، ولكنه يمثل التاريخ الأحدث بكثير من تاريخ الإشارة إلى الأشخاص من خلال الصور. إذا كان من الصعب على نحو متزايد ترك الماضي وراء ظهورنا، فإن هذا يرجع إلى حد كبير إلى التقارب بين هذين التاريخين الخاصين بالإشارة إلى الأشخاص، فبينما يركز أحدهما على الأجهزة يركز الآخر على البيانات.

الشبكات الاجتماعية التي تتحرك معنا

لقد حددت الجغرافيا حدود العلاقات الاجتماعية للوجود الإنساني في معظمه؛ وحُدِّدت الشبكات الاجتماعية من حيث الموقع ومدها فقط بقدر ما يمكن للشخص أن يمشي أو يجدف أو يبحر. إن شبكاتنا الاجتماعية كانت ثابتة ثبوت ذاكراتنا، وهي عرضة للخطأ على الدوام؛ فمنذ اختراع الكتابة، كانت وسائل الإعلام الجديدة تخفف على الأقل بعض العبء الذي تحمله ذاكراتنا. من الرسائل المكتوبة إلى البرقيات والهواتف، ساعدتنا هذه الوسائط الاجتماعية في العصور السابقة على الحفاظ على العلاقات من بُعد ومع مرور الوقت.

اكتشف عدد من منظِّري وسائل الإعلام فكرة أن وسائل الإعلام لدينا، تؤثر بعمق في تفاعلاتنا وعلاقاتنا الاجتماعية. في كتابه «لا معنى للمكان» No Sense of Place الذي نُشر في العام 1986، لاحظ جوشوا ميرويتز Joshua Meyrowitz، بالاعتماد على نحو كبير على عمل أرفين غوفمان Erving Goffman ومارشال ماكلوهان

Marshall McLuhan، أن الوسائط الإلكترونية «قد غيَّرت أهمية الزمان والمكان للتفاعل الاجتماعي». وقد ردد ميرويتز بعض المزاعم التي قدمها نيل بوستمان Neil Postman قبل بضع سنوات، في عمله: «اختفاء الطفولة» The Disappearance of Childhood وربط ميرويتز، مثل بوستمان Postman، الوسائط الإلكترونية بانهيار الحدود المادية (في ذلك الوقت، كانت الوسائط الإلكترونية تشير في المقام الأول إلى الراديو، والتلفزيون، والهواتف وبدرجة أقل إلى الوسائط الرقمية الناشئة مثل أجهزة الحاسوب المنزلية). زعم أن العوالم التي كانت تقتصر في السابق على البالغين، أصبحت في متناول الأطفال. وإلى جانب انهيار الحدود المادية، التي قارنها بالعيش في منزل من دون غرف أو جدران، رأى ميرويتز، أن السلوكيات والعلاقات الاجتماعية كانت في تغيير مستمر. على سبيل المثال، في العالم المباشر المفتوح، بخلاف المناسبات الخاصة مثل حفلات الزفاف العائلية، نادرًا ما يتطلب الأمر ضرورة التنقل بين جماهير متعددة في الوقت نفسه (على سبيل المثال، العائلة والأصدقاء والزملاء). وأشار ميرويتز مثل غوفمان، إلى أننا جميعًا ممثلون اجتماعيون نضطلع بأدوارٍ مختلفة في مراحل اجتماعية مختلفة، وأن بعض هذه الأدوار تستغرق سنوات حتى تصل إلى الإتقان. لكن وسائل الإعلام الإلكترونية تعطل هذه الحدود الواضحة من خلال إعادة ترتيب المنتديات الاجتماعية التي نشغلها بطرق جديدة، مما يخلق ما أسماه «المواقف المشتركة». في المواقف الاجتماعية التي يُتوسط فيها إلكترونيًا، على سبيل المثال، قد نواجه أنواعًا مختلفة من الجماهير في آن واحد، بينما نفقد أيضًا السياق والإشارات الاجتماعية التي تتيح لنا الاستجابة لهذه المواقف. وأكد أن «المواقف المشتركة لوسائل الإعلام الإلكترونية، تدوم نسبيًّا ولا مفر منها، ومن ثم يكون لها تأثير أكبر في السلوك الاجتماعي». وعلى رغم ذلك نأى ميرويتز بنفسه عن فكرة بوستمان السابقة، لعدم اهتمامه بمحتوى الوسائط الجديدة بقدر اهتمامه بالطرق التي كانت تغير بها «إحساسنا بالمكان» أو افتقارنا إليه. لقد رأى أن الوسائط الإلكترونية تؤثر فينا ليس على نحو أساسي من خلال محتواها، ولكن من خلال تغيير «الجغرافيا الظرفية للحياة الاجتماعية»[2].

في كثير من النواحي، كانت تنبؤات ميرويتز دقيقة عندما أدرك مدى تآكل الوسائط الجديدة - بما في ذلك الوسائط الرقمية الناشئة - التي حددت يوما ما

بوضوح حدود أنواع معينة من الفضاءات الاجتماعية من قبيل منزل الأسرة والمبنى الجامعي؛ مما يجعل من الصعب على الناس الانخراط في أدوار اجتماعية مستقرة ومحددة سلفا بسياق اجتماعي معين. ما لم يكن ميرويتز يتنبأ به بالتأكيد في منتصف الثمانينيات هو أنه بحلول أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، أصبحت التفاعلات تتم وجهاً لوجه وعلى نحو مباشر (مثل تلك التي تحدث في حفل زفاف عائلي)، تتوسط فيها وسائل الإعلام الإلكترونية على نحو كبير. ومن ثم، لا تمر الآن بعض حفلات الزفاف أو حتى مراسم جنازات من دون أن يتجول المشاركون فيها، إذا جاز التعبير، للتفاعل مع أصدقاء في بيئات اجتماعية عبر الإنترنت. ويجري أيضًا توثيق مثل هذه الأحداث على نحو متزايد وحتى بثها على نحو مباشر، لتمكين أي شخص يتعذر عليه الحضور جسديًّا من تلبية الدعوة. ولم يتنبأ ميرويتز أيضًا بانهيار الوقت وضبابية الشبكات الاجتماعية الماضية والحالية التي ترافقه.

في الثقافات الإلكترونية السابقة اختُرِقت حدود منزل الأسرة جزئيًّا بواسطة تقنيات مثل الهاتف والراديو والتلفزيون، التي وفرت الوصول إلى الأشخاص والأماكن الأخرى[3]. حاليا، في القرن الحادي والعشرين نعيش في عالم لم تُفكَّك فيه جدران منزل العائلة فقط - إذا جاز التعبير - ولكن أيضًا جميع محتويات منزل العائلة - ألبومات الصور القديمة والأفلام المنزلية، والأسوأ من ذلك، القصص المحرجة، والذكريات غير المرغوب فيها - أضحت خاضعة لإعادة التداول وحتى الوجود في حلقة مستمرة.

إن تقنيات الإعلام القديمة لم تهدد قدرتنا على قطع الشبكات الاجتماعية عندما (أو إذا) سعينا إلى الاضطلاع بذلك، على الرغم من تأثيرها العميق أيضا في العلاقات الاجتماعية. إن عدم الرد على الرسائل في الماضي، قد يكون أمرا ممكننا، وتجاهل التلغراف وعدم الرد على الهواتف كان واردا. يمكن لأي شخص أن يختار التوقف عن إعادة إرسال عنوانه الجديد أو أن يقرر شطب رقم هاتفه لإبعاد المتصلين غير المرغوب فيهم عن ماضيه. من دون بذل كثير من الجهد يمكننا التحكم - في عالم الوسائط التناظرية - في الأشخاص الذين نرغب في الإبقاء على الاتصال بهم. لقد عملت عناويننا وأرقام هواتفنا عملَ علامات تعريف، لكننا تحكَّمنا فيمن يحق له الوصول إلى هذه المعلومات ومن لم يحق له ذلك، ومن يمكنه العثور علينا في الوقت الحاضر. كنا عمومًا ماثلين للْعَيَان، وعلى اتصال

دائم على النحو الذي اخترناه، وكنا نتمتع بحرية وضع أي مسافة نرغب فيها بين الماضي والحاضر.

لقد تغير هذا في القرن الحادي والعشرين، ولم يعد الانتقال بعيدًا يعني بالضرورة فقدان الاتصال، ويبقى هذا صحيحا سواء بذلنا جهدًا للبقاء على اتصال مع عائلتنا وأصدقائنا أو لم نبق على هذا الاتصال. في كثير من النواحي، يعد هذا الاتصال الجديد مريحًا. لنتأمل الاختلافات العميقة التي تفصل بين تجارب مهاجري القرن الحادي والعشرين، وملايين الأشخاص الذين فروا من أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية. يوثق الصحافيون الغربيون على نحو روتيني مهاجري اليوم الذين يزحفون على متن زوارق مطاطية مزدحمة وقوارب متسربة للاتصال لاحقا بالعائلة والأصدقاء الذين تُرِكوا وراءهم في بلدان عبر شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وإرسال رسائل نصية إليهم. ومنذ العام 2015 أصبحت صور جيل جديد من المهاجرين الذين يرسلون الرسائل النصية منتشرة في كل مكان. وكذلك الأمر بالنسبة إلى قصص المهاجرين الذين يدونون في المدونات ويغردون عن رحلاتهم عبر أوروبا. وفي تناقض بيِّن مع تجربة المهاجرين في الأربعينيات أو الخمسينيات من القرن الماضي، وحتى الثمانينيات، يمكن الآن لأفراد الأسرة ممن تُرِكوا، البقاء على اتصال دائم بأبنائهم وبناتهم، بل تتبع خطواتهم في جميع أنحاء أوروبا وحول العالم باستخدام تطبيقات التتبع، مثل تطبيق «العثور على أصدقائي عبر الآيفون» iPhone's Find My Friends، لكن بالنسبة إلى بعض المهاجرين، كان لجلب الشبكات الاجتماعية معهم عواقب غير متوقعة. أما أولئك الذين تُركوا وراءهم، فسيظلون حاضرين على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع، كما أن الوابل المستمر من الرسائل والصور ومقاطع الفيديو الآتية من أحبائهم في مخيمات اللاجئين ومناطق الحرب، يمكن أن يجعل من الصعب عليهم التعافي من صدماتهم، حتى في أثناء تنقلهم جسديًا[4]. وعلى رغم ذلك، ليس المهاجرون وحدهم من يتنقلون بكثرة ويُحضرون شبكاتهم الاجتماعية رفقتهم.

لنتأمل أكثر الطقوس الروتينية بشأن ترك المنزل من أجل الالتحاق بالجامعة. لقد كانت مغادرة المنزل بسيطة؛ فعندما غادرت المجتمع الريفي حيث نشأتُ - بعد سنوات من توقع اللحظة والقلق من عدم تمكني من البقاء على قيد الحياة

لأعيش ذلك اليوم - قُطعت إلى حد ما عن الماضي تماما. وبقيت على اتصال مع ثلاثة أو أربعة أصدقاء من المدرسة الثانوية خلال السنة الأولى من الجامعة، ولكن عندما كنت طالبة في السنة الثانية فقدت الاتصال تقريبًا مع كل شخص من مدرستي الثانوية ومجتمعي. وفي نهاية عامي الأول قررت الانتقال إلى جامعة جديدة. مرة أخرى، كان الانفصال كاملاً، وبحلول الوقت الذي تقدمت فيه للالتحاق بالدراسات العليا بعد أربع سنوات، لم أعد أملك أرقام هواتف أو عناوين أي شخص ممن كنت أعرفه في المدرسة الثانوية أو عامي الأول في الجامعة. وفي أواخر سن المراهقة وأوائل العشرينيات من عمري، كانت شبكات التواصل الاجتماعي الخاصة بي في تغير مستمر. كان الناس يأتون ويذهبون وأنا أتردد في مواقع مختلفة، وأتمثل أنماط حياة وهويات متباينة. إن قدرتي على تشكيل علاقات قوية، رومانسية وغير رومانسية، والمضي قدمًا بالسرعة نفسها، كانت تعد انعتاقا. والقدرة على تنفيذ قطيعة جذرية مع الماضي، ومع المجتمع الريفي الذي نشأت فيه بخاصة، جعلت الأمر أسهل بكثير لتطور شخصيتي.

أما اليوم، فالشخص الذي ينتمي إلى خلفية مماثلة ويغترب في ظل ظروف مماثلة، وتحدوه رغبة في إعادة ابتكار نفسه، سيواجه عقبات لم أواجهها. في الماضي، كان أمر البقاء على اتصال دائم مع الآخرين يتطلب بعض الجهد على الأقل. على سبيل المثال، عندما غادرت الجامعة، اضطررت إلى تبادل أرقام الهواتف والعناوين مع الأصدقاء القلائل الذين كنت آمل أن أبقى على اتصال بهم. يبلغ طلاب الجامعات اليوم الحرم الجامعي وبحوزتهم مزيد من العلاقات؛ إذ تتنقل معهم أيضا شبكات التواصل الاجتماعي التي أنشأوها. ولا تشمل هذه الشبكات – عادةً – الأصدقاء المقربين فقط، بل تشمل أيضًا المعارف البعيدين من المدرسة الثانوية وحتى المدارس المتوسطة والابتدائية، بالإضافة إلى الأقارب، وأصدقاء العائلة، ومئات الأشخاص الآخرين الذين التقوا بهم خلال تلك الفترة. يسافر المراهقون اليوم إلى المستقبل مع تدفق مستمر للصور والتحديثات انطلاقا من موطنهم الأصلي، لكنهم يُستَدعَون باستمرار إلى الماضي. لكي نكون واضحين، قد لا يكون هذا سلبيًّا تمامًا؛ لأنه بالنسبة إلى بعض الشباب، يمكن لوسائل التواصل الاجتماعي مساعدتهم في إدارة التحولات الحياتية، بما في ذلك الانتقال من المنزل إلى الكلية[5]. إذا كانوا يرغبون –

على رغم ذلك - في الانفصال عن الشبكات الاجتماعية القائمة، فإنهم الآن بحاجة إلى الاضطلاع بأكثر بكثير من مجرد الاستيقاظ والمغادرة.

لمغادرة المنزل (جسديًّا واجتماعيًّا)، يجب على المرء أيضًا «تقليم» شبكات التواصل الاجتماعي عبر الإنترنت عن طريق إلغاء حسابات وسائل التواصل الاجتماعي النشطة، أو على الأقل حظر بعض الأشخاص من ذلك ممن ينتمون إلى الماضي. وعلى رغم ذلك، فإن حظر عدد قليل فقط من الأشخاص (على سبيل المثال، زميل في المدرسة الثانوية أو صديق عائلة غير مهم) قد يكون غير كاف. إذا كان أشخاص آخرون في شبكة أحدهم لايزالون على اتصال بأشخاص نُفُوا أو طُرِدوا - إذا جاز التعبير - فهم حاضرون بالوكالة. على مدار سنوات عديدة من تدريس مقررات تمهيدية في الدراسات الإعلامية، طلبت كثيرًا من طلابي الجامعيين مناقشة كيفية تعاملهم مع هذه المعضلة. فبينما يفترض عديد من الطلاب عدم وجود طريقة لتنفيذ قطيعة مع الماضي، أو ببساطة عدم إظهار رغبتهم في فعل ذلك، أقابل كل عام، على الأقل، عددًا قليلاً من الطلاب ممن بذلوا جهودًا غير عادية لإنجاز هذه المهمة التي كانت بسيطة. ولا عجب في أن يكون لدى هؤلاء الطلاب - عادةً - سبب مقنع لرغبتهم في وضع مسافة على الأقل بين حياتهم الماضية والحالية؛ ذلك بأن بعض هؤلاء الشباب والشابات، يُعرَفون بكونهم غير منسجمين مع محيطهم، لكنهم ترعرعوا على رغم ذلك، في مكان يعرف تسامحا محدودا، في أحسن الأحوال، تجاههم. أما بعضهم فيأتون من مجتمعات ريفية، ليصلوا إلى مدينة نيويورك وهم يحلمون بإعادة اكتشاف أنفسهم كفنانين أو موسيقيين أو كتاب، في حين تعد بعضهن نساء شابات يطمحن بكل السبل إلى الهروب من المصائر التي تقيدهن منذ ولادتهن. كمثال على ذلك، لنتأمل في شاب واحد فقط من هؤلاء الشباب.

إن كيفن Kevin، وهو ناقد سينمائي طموح يتحدر من بلدة صغيرة في شمال ولاية نيويورك، يصورها بسخرية على أنها مكان معروف بعددها الهائل من القتلة (المدينة هي موطن لسجن شديد الحراسة)، يعد أحد الطلاب القلائل ممن التقيت بهم، وحاول «قتل» بياناته القديمة تمامًا والبدء من جديد. قال لي: «بحلول سنتي الثانية، أصبح التدفق الخاص بي على الفيسبوك غريبًا حقًا. كان لدي أصدقاء جدد من نيويورك ينشرون عن فن الأداء الغريب من جهة، وكان هناك هؤلاء الأشخاص من

مدرستي الثانوية ينشرون أشياء عن ركوب الدراجات الترابية (أو دراجات الوحول) في حفرة من الحصى، ويشيرون إليَّ من خلال صور من المدرسة الثانوية من جهة أخرى. كنت بحاجة إلى المضي قدمًا». ومن أجل «المضي قدمًا»، اتخذ كيفن إجراءً جذريًّا، يتمثل في إلغاء جميع حساباته على وسائل التواصل الاجتماعي النشطة، وفتح حسابات جديدة باسم مستعار، باستخدام عنوان بريد إلكتروني جديد. كانت تجربته، كما اتضح فيما بعد، شبه ناجحة؛ بل حتى مع حساباته الجديدة وهويته الجديدة، استمر في تلقي اقتراحات الأصدقاء التي تشير إلى الشبكات الاجتماعية التي حاول الانفصال عنها. بعد ذلك، وباندفاع إلى حد ما، ارتكب خطأً بإضافة صديق قديم واحد فقط إلى شبكته كان لايزال على اتصال به. فتح هذا القرار سيلا من طلبات الاتصال من معارفه السابقين. على الرغم من عدم معرفة أي أحد مَن هو الشخص المتصل به (بما أنه كان يستخدم الآن اسمًا جديدًا و«أفتار» avatar أو شخصية جديدة)، فقد أدى اتصالهما المتبادل الفردي إلى تشغيل خوارزميات اقترحت مزيدًا من الروابط. على الرغم من كل جهوده المبذولة، لم يكن كيفن قادرًا على الانفصال تمامًا عن شبكاته الاجتماعية القديمة، ولم يكن متفائلًا بشأن تحقيق انفصال تام عن الماضي. يقول: «تملك أمي كتاب المدرسة الثانوية الماتع هذا؛ بحيث تخرجه كل بضع سنوات، ثم تضحك، وبعد ذلك تعيده إلى صندوق في الطابق السفلي. أتمنى أن أفعل ذلك، لكنني لا أستطيع». «مازلت أحظى بالإشارة إليَّ - أعني، الإشارة إلى شخصي القديم - من خلال صور أُخذت في المدرسة الثانوية التي كنت أعرفها ثم نشرها عبر الإنترنت. أعتقد أن «كيفن» موجود هناك للأبد، وعليَّ أن أعيش معه، ومع كل الأشخاص الذين كان يحاول الهرب مهنم».

إن معضلة كيفن تمثل بوضوح لعائقين فريدين أمام مغادرة المنزل في القرن الحادي والعشرين. أولاً، تنتقل منصات التواصل الاجتماعي معنا عبر المكان والزمان؛ عندما كان الانتقال من مكان إلى آخر يعني الحفاظ على العلاقات الاجتماعية أمرا صعبا، مع انتشار منصات التواصل الاجتماعي مثل الفيسبوك، لم تعد المسافة الجغرافية تشكل تهديدًا كبيرًا. ثانيًا، تعمل عملية الإشارة إلى الأشخاص tagging، وخصوصا عملية الإشارة الآلية إلى الصور، على تغيير جذري في كيفية إحضار الماضي إلى الحاضر.

لمحة تاريخية موجزة عن الموضوعات المشار إليها

لتقدير معنى أن تكون موضوعًا مشارا إليه tagged، مثل كيفن، من المفيد التفكير بإيجاز في تاريخ عملية الإشارة هذه. حتى وقت قريب، كانت عملية الإشارة إلى شخص ما ممارسة مادية مقصورة حصريا تقريبًا على الحيوانات وليس البشر.

خذ، على سبيل المثال، تاريخ الإشارة إلى الطيور؛ على مدى عدة قرون تساءل الناس في المناطق الشمالية عما يحدث للطيور كل شتاء. هل طارت إلى مكان أكثر دفئًا، أم تحولت إلى نوع مختلف، أم أسْبتت مثل الثعابين والضفادع؟ كانت أنماط هجرة الطيور لغزًا كبيرًا بما يكفي لجذب انتباه العلماء من أرسطو إلى هوميروس Homer إلى بلني الأكبر Pliny the Elder، في «تاريخ الحيوانات» History of Animals، ادعى أرسطو هجرة بعض الطيور، بينما يختبئ بعضها الآخر، بما في ذلك الحمام، وطيور السنونو، وطيور الحدأة ببساطة في جحور[6]. وفي القرن العشرين تحديدا استمرت هجرة الطيور في إرباك علماء الأحياء، حيث بدأت المحاولات المنهجية لتتبع الطيور في أوائل القرن التاسع عشر، عندما بدأ علماء الأحياء في اصطياد الطيور ووضع علامة عليها بوضع شريط صغير حول ساق واحدة[7]. وعلى رغم ذلك، فقد أسفرت هذه الطريقة عن بيانات محدودة، لأنه أُعيد اكتشاف نسبة صغيرة فقط من الطيور. ولم يكتشف علماء الأحياء مقاربة أفضل حتى منتصف القرن العشرين باستخدام القياس من بُعد. نشأ القياس من بعد (telemetry) في القرن التاسع عشر باعتباره تكنولوجيا سلكية، وحُسِّنت بصفتها أداة مراقبة لاسلكية خلال الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب اعتمد القياس من بعد على موجات الراديو لنقل المعلومات بشأن الأشياء، ومن ثم عن الكائنات الحية الموجودة في مواقع بعيدة. ونظراً للتقنيات الحالية القائمة على نظام تحديد المواقع GPS يمكن القول بأن تقنية القياس من بعد (telemetry) هي مقدمة لهذه التقنيات، فقد سمحت لعلماء الأحياء بالحصول على البيانات من بعد، والأهم من ذلك، تتبع المخلوقات في أثناء التنقل[8].

وإذا افترضنا أن الطيور، والأسماك، وحتى الثدييات لا تملك أي فهم للخصوصية، ومن ثم لا داعي للحفاظ عليها، فإن الجهود المبذولة لتحديد تحركات الحيوانات غير البشرية وتتبعها، ظلت تشكل أمرا مسلما به. منذ منتصف القرن العشرين،

أسفرت هذه الممارسة أيضًا عن رزم من البيانات بشأن المكان الذي تذهب إليه الحيوانات، وما تفعله على مدار العام. لكن وضع علامات على الحيوانات البرية، لا يمثل سوى نوع واحد من العلامات – نوع يركز على نحو أساسي على توليد المعرفة العلمية. ومنذ التسعينيات لم يتخذ وضع العلامات أشكالًا جديدة فقط، بل أصبح مدفوعًا بحوافز تمتد إلى ما هو أبعد من الرغبة في توليد المعرفة.

في منتصف التسعينيات بدأ الأطباء البيطريون على نحو روتيني في زرع الرقائق أو الشرائح الدقيقة في الحيوانات الأليفة، مثل القطط والكلاب، حيث تحتوي هذه الرقائق الإلكترونية الصغيرة، التي يجري إدخالها تحت الجلد مباشرة، على معلومات تعريفية عن الحيوان الأليف. بينما جرى تمييز الحيوانات الأليفة سابقًا بطرق أخرى (على سبيل المثال، بالعلامات أو الوشم)، فإن الرقائق الدقيقة، التي كانت تكلف من 15 إلى 45 دولارًا لكل حيوان أليف في ذلك الوقت، كانت مقبولة على نطاق واسع باعتبارها طريقة أكثر فاعلية لتحديد الحيوانات الأليفة التي تجولت بعيدًا عن المنزل[9]. نتيجة لذلك، بدأ مئات الآلاف ممن يملكون حيوانات أليفة، ولم يحلموا مطلقًا بوضع رقائق لأطفالهم أو أزواجهم أو آبائهم المسنين، في وضعها لقططهم وكلابهم. على الرغم من عدم تمكن المرء حتى الآن من تتبع قطته وهي تتجول في الحي في الوقت الفعلي (وإن أصبح هذا ممكنًا الآن باستخدام تقنيات تعتمد على نظام تحديد المواقع العالمي GPS، بما في ذلك أجهزة التتبع ذات الأسعار المعقولة التي تُثبَّت على طوق حيوان أليف)، فإن برامج الرقائق الدقيقة قدمت بعض الضمانات، إذ في حالة اختفاء القطة، من المرجح أن يُعثَر عليها وإعادتها. لكن الانتقال إلى الرقائق الدقيقة للحيوانات الأليفة المنزلية كان له تأثير آخر؛ ذلك بأن كثيرا من الناس ينظرون إلى حيواناتهم الأليفة باعتبارها جزءًا من العائلة. على عكس الصقور البرية، وطيور الدراج، وثعالب الماء، والذئاب التي ظل علماء الأحياء يضعون عليها علامات ويتتبعونها عقودا من الزمن، تعيش الحيوانات الأليفة معنا، بل إنها تأكل في مطابخنا وتنام في أَسِرَّتنا. يشير قبول وضع الرقائق الدقيقة في الحيوانات الأليفة إلى تحول نحو قبول أوسع لتتبع - على الأقل - الكائنات الحية التي نهتم بها كثيرا، إذا كان ذلك لا يشمل الأشخاص بعد[10]. بمعنى آخر، عندما بدأنا في وضع الرقائق الدقيقة على حيواناتنا الأليفة، انتقل التتبع الإلكتروني من مجرد ممارسة

تعتمد على البيانات (أي ممارسة تركز على جمع المعلومات لأغراض البحث) إلى ممارسة عاطفية (تركز على تتبع الحيوانات الأليفة المحبوبة). ليس من المستغرب إذن أنه بحلول أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، أن بدأ بعض الناس يفكرون في أن وضع الرقائق الدقيقة لأحبائهم من البشر قد يكون فكرة جيدة أيضًا.

في العام 2002 تصدرت عائلة من جنوب فلوريدا عناوين الصحف في جميع أنحاء العالم عندما اختارت أن تُزرع رقائق صغيرة في أذرعها. كان الدافع وراء القرار هو ابن العائلة، ديريك Derek، البالغ من العمر أربعة عشر عامًا، الذي أقنع والديه بأن عمليات الزرع كانت أداة أمان منقذة للحياة. أوضح أفراد الأسرة لاحقًا لـ CBS News أن والد ديريك كان يعاني كثيرا من المشاكل الصحية، وشعروا بأمان أكبر عندما علموا أنه في حالة الطوارئ سيتمكن المستجيبون الأوائل من التعرف عليه[11]. على الرغم من نياتهم الحسنة على ما يبدو، في ذلك الوقت، كان قرار وضع رقائق دقيقة لأنفسهم محل تساؤل من قبل بعض علماء الأخلاق الطبية وقد تعرضوا للسخرية من قبل وسائل الإعلام وعامة الناس. بعد فترة وجيزة من إعلان عائلة جاكوبس قرارها، نشر الصحافي والروائي ليف غروسمان Lev Grossman، الذي كان آنذاك كاتب التكنولوجيا الرئيس لمجلة «تايم» Time، مقالًا جريئا عن العائلة تحت عنوان «لقاء مع شيبسون» Meet the Chipsons، تساءل أشخاص آخرون، بمن فيهم خبير الخصوصية ريتشارد سميث Richard Smith، على نحو متشكك عما إذا كان قرار الأسرة وضع الرقائق الدقيقة مجرد حيلة دعائية[12].

على الرغم من موافقة وكالة العقار الفدرالي FDA على زرع رقائق «فيريتشيب» VeriChip تحت الجلد في أجساد أفراد عائلة جاكوبس، لم تُتَبَن الرقائق الدقيقة للبشر على نطاق واسع. بعد أكثر من خمسة عشر عامًا ظلت هذه الممارسة – وحتى فكرة الممارسة نفسها – تلقى استقبالا باردا بين الناس[13]. ومرد هذا على الأرجح إلى أن روايات الخيال العلمي مثل «روبوكوب» Robocop (الشرطي الآلي) و«نيورومانسر» Neuromancer، قد عززت فكرة أن وضع الرقائق الإلكترونية في جسم البشر هو مرادف لفقدان الخصوصية والفردية والإرادة، والسيطرة. ولكن في ظل المقاومة المستمرة لفكرة زرع الرقائق الدقيقة، كيف نفسر حقيقة أن عديدا من الأشخاص في العالم يسمحون لأنفسهم بهذا النوع من التمييز والتعقب بطرق أخرى، غالبًا عن طريق الاختيار؟

بعد فترة وجيزة من وضع الرقائق في عائلة جاكوبس طواعية، أدى التطور التكنولوجي غير ذي الصلة إلى جعل عملية تمييز البشر أكثر انتشارًا، ولكنه أيضًا أقل وضوحًا. وبعد عقود من التطوير في السياق العسكري والتنظيم المفرط، سُمح أخيرًا للأجهزة التي تدعم نظام تحديد المواقع العالمي GPS بالاستخدام غير العسكري، مما خلق إمكانيات جديدة للمدنيين لتتبع بعضهم بعضا أيضًا[14]. عندما أُطلقت الهواتف الذكية التي تدعم نظام تحديد المواقع العالمي من قبل الشركات المصنعة للهواتف المحمولة، حُدد الآباء باعتبارهم سوقا مستهدفا واضحا. وكانت هذه النماذج من الهواتف مكلفة، بحيث كان على الوالد في كثير من الأحيان أن يدفع رسوما في كل مرة يسجل فيها الدخول للتجسس على طفله من بُعد. وعلى ذلك، وجدت هذه الأدوات سوقًا لسببين: الطلب من قبل الآباء الذين طالما حلموا بالقدرة على تتبع أطفالهم، واستعداد الأطفال والمراهقين لحمل الهاتف المحمول طواعية أينما ذهبوا[15]. أغرقت أجهزة «آبل آيفونز» السوق، وأصبحت تطبيقات مثل تطبيق «العثور على أصدقائي» (التي سمحت للأشخاص بتحديد موقع الأصدقاء الذين وافقوا على مشاركة موقعهم) شائعة، وانخفضت تكلفة الهواتف المجهزة بالتتبع، وبدأ عديد من الأشخاص في تتبع أحبائهم ليل نهار. أما بالنسبة إلى الأطفال الصغار جدًا غير القادرين على حمل هواتفهم الخاصة، فقد ظهرت أجهزة أخرى قائمة على نظام تحديد المواقع العالمي في السوق، وغالبًا ما تكون متخفية في شكل ساعات أو إكسسوارات جذابة في شكل أزهار أو روبوتات[16]. يمكن القول إن هذا التغيير – بدلا من النفور البالغ من التتبع الإلكتروني – هو ما أدى إلى إبطاء الانتقال إلى البشر ذوي الرقائق الدقيقة المزروعة. وعلى ذلك، فإن الأجهزة المجهزة بنظام تحديد المواقع العالمي، لم تكن هي الأشياء الوحيدة التي جعلت من البشر موضوعات مميزة خلال العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين؛ فقد بدأ الكثير منا أيضًا في تمييز نفسه، وذلك بالإشارة إلى شخصه أو إشارة بعضنا إلى بعض عبر الإنترنت من خلال نشر صور. إن الإشارة إلى الأشخاص من خلال الصور، بدلا من تتبع الأجهزة أو الرقائق المزروعة، هي ما قد يشكل في النهاية أكبر عقبة أمام أي شخص يرغب في الابتعاد عن الماضي، وعدم البقاء مكبلا بقيود ماضيه.

أصول الإشارة على الصور

في منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، اعتمد جوشوا شاتشر Joshua Schachter، مؤسس موقع على الإنترنت بعنوان «ديليشس» Delicious (لذيذ) (الذي يسمى في الأصل del.icio.us)، على استعارة وضع العلامات لمساعدة من هم ليسوا خبراء للاطلاع على مفهوم البيانات الوصفية أو التعريفية metadata. بعد ذلك بقليل، اعتُمدت أيضًا «عملية وضع العلامات» (أو عملية الإشارة إلى الأشخاص بنشر الصور) – مصطلحا وممارسة – من قِبل موقع تقاسم الصور «فليكر» Flickr[17].

يُقصد بمصطلح البيانات الوصفية أو التعريفية، تلك البيانات التي تصف بيانات أخرى. في العالم التناظري، كانت البيانات الوصفية أمرًا مهمًا على نحو عام بالنسبة إلى المتخصصين فقط (على سبيل المثال، مفهرسو المكتبات)، لكن هذا لا يعني أن الأشخاص العاديين لم يستخدموا البيانات الوصفية من قبل. إن ملاحظة مكتوبة بقلم الرصاص على ظهر صورة عائلية قديمة، تشير إلى الشخص الموجود في الصورة، ومكان وزمن التقاطها هي مثال على البيانات الوصفية. بالطبع، قد كانت الملاحظة الموجودة على ظهر صورة من صور عمتك وهي جالسة على ضفاف البحيرة القريبة من منزلها عبارة عن بيانات وصفية لم يرها نهائيا، على الأرجح، غير شخصك. مع استمرار انتشار البيانات الرقمية في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين – ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى شعبية منصات الوسائط الاجتماعية التي مكنت أي شخص من نشر كتاباته أو نشر الصور أو تحميل مقاطع الفيديو – أصبح من الواضح وجود حاجة إلى نهج جديد جذري للبيانات الوصفية. كان تجميع الصور الرقمية أمرًا بسيطًا وغير مكلف، لكن البحث عن مثل هذه الصور واسترجاعها على أساس محتواها لم يكن كذلك. ونظرًا إلى أن مجموعات الصور الشخصية للأشخاص، بدأت تنمو بوتيرة أسرع بكثير مما كانت عليه في الماضي (ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى حقيقة أن تكاليف التحميض لم تعد عقبة)، أصبحت إمكانية الاسترجاع مشكلة ملحة على نحو متزايد[18]. وقد تجلى أحد الحلول لمشكلة كيفية إدارة الكميات الهائلة من المحتوى المتداول عبر الإنترنت في وضع أدوات البيانات الوصفية في أيدي المستخدمين – باختصار، لتحويل الجميع إلى مُفهرس indexer. ما حدث بعد ذلك

كان طريقة ذكية لمعالجة أزمة متنامية في إدارة المعلومات، ومبادرة ديموقراطية مؤثرة. كان الأمل معلقا على إمكانية أن يكون التحدي المتمثل في تنظيم كل هذه البيانات أكثر قابلية للإدارة من خلال تمكين الجميع من إضافة البيانات الوصفية إلى القطع الأثرية الرقمية، ومن خلال تمكين هذه البيانات الوصفية من أن تكون مرئية للآخرين، وحتى الغرباء منهم. وربما لأن مفهوم البيانات الوصفية غامض إلى حد ما، سرعان ما اعتُمد مفهوم عملية التمييز أو وُضعت العلامات التي يسهل فهمها. ولكن كان هناك اختلاف عميق واحد على الأقل بين مشاريع البيانات الوصفية السابقة، وتلك التي تتكشف الآن على منصات مشاركة الوسائط. واعتمدت البيانات الوصفية تاريخيًا على التصنيفات المعمول بها لتصنيف البيانات (على سبيل المثال، عناوين موضوعات مكتبة الكونغرس)؛ على النقيض من ذلك، اعتمد التمييز الرقمي على ما وصفه مهندس المعلومات توماس فاندر وال Thomas Vander Wal لأول مرة في العام 2004 باسم «الفهرسة الجماعية» folksonomies[19].

ظاهريًا، لا شيء يمكن أن يبدو أقل تهديدًا وأقل شؤمًا من فهرسة جماعية. تستحضر الكلمة صورة الأشخاص الودودين الذين يجتمعون معًا لفهم عالم غني بالمعلومات من منظورهم الخاص. في البداية، كانت هذه هي الطريقة التي تعمل بها الفهرسة الجماعية. وعموما، تتكون الفهارس الجماعية من كلمات رئيسة أو علامات يمكن اختيارها بحرية وإرفاقها بأي مصدر معلومات. في مواقع مثل «فليكر»، غالبًا ما تضمنت جهود وضع العلامات المبكرة ببساطة إضافة معلومات أساسية مثل أسماء الأشخاص أو الأماكن أو الأحداث إلى صورهم. وبطبيعة الحال، يتجلى جمال الفهرسة الجماعية في أن الناس أحرار أيضًا في إرفاق مزيد من العلامات أو الإشارات الخاصة بهم وحدهم بصورهم، وبمرور الوقت، أقدم كثير من الناس على الخطوة نفسها. اعترف شاشتر بأن «المعلومات التي تحصَّل عليها [من خلال العلامات] ستكون دائمًا غير كاملة ومبهمة إلى حد ما. لكن قد يكون لدى مجموعة من الأشخاص ممن يضعون العلامات «على ما يرام»، في الواقع قيمة صافية أعلى من منظمة رسمية تطلعك على كيفية تنظيم المعلومات»[20].

عندما نستعيد أحداث الماضي، يبدو من المحتمل أن الأشخاص بدأوا بسرعة في الإشارة إلى الأشخاص من خلال نشر الصور على مواقع مشاركة الوسائط مثل

«فليكر» في منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، لأنها كانت ماتعة وسهلة، ولأن معظم المستخدمين اعتبروها غير ضارة تمامًا. إذا أشار شخص ما إلى أخته أو صديق، فمن المفترض أن تكون طريقة مفيدة لضمان أنه يمكنهم استرداد الصورة لاحقًا أو أن يتمكن الآخرون من التعرف على الأشخاص الموجودين في الصورة في الأشهر أو السنوات أو العقود القادمة. وبدأت عملية الإشارة إلى الأشخاص من خلال الصور الرقمية باعتبارها امتدادا لممارسة – كتابة ملاحظة على ظهر الصورة – كانت بالفعل مألوفة وواسعة الانتشار. ولكن ما حدث بعد ذلك لم يكن مجرد استمرار للممارسة العريقة المتمثلة في إضافة البيانات الوصفية إلى الصور.

عندما أصبح موقع «فليكر» شائعًا في الفترة الممتدة ما بين منتصف وأواخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، لم تبد عملية الإشارة إلى الأشخاص عبر الصور وكأنها انتهاك للخصوصية أو تهديد للنسيان. في ذلك الوقت، كان معظم مستخدمي «فليكر» قد صُدموا عندما اكتشفوا أن عملهم التطوعي (الإشارة إلى الأصدقاء والعائلة من خلال الصور) قد يكون له عواقب أوسع. ولم نكتشف - إلا في وقت لاحق فقط – أن هؤلاء المستخدمين كانوا يساعدون في إرساء الأساس لعالم لا تعتمد فيه عملية الإشارة إلى الأشخاص على ذكريات البشر القابلة للخطأ، ولكن تُجرى بواسطة آلات ذكية. ولكن توصل بعض الناس، برغم ذلك، إلى هذا بالفعل؛ إذ لاحظ الصحافي كلاي شيركي، في العام 2005، أن «إستراتيجية الإشارة إلى الأشخاص – ذات صيغة التوسيم الحر، بغض النظر عن القيود الفئوية - تبدو كأنها وصفة لكارثة، ولكن كما أوضحت لنا شبكة الإنترنت، يمكنك استخراج قدر مذهل من القيمة من مجموعات البيانات الفوضوية»[21]. وقد ثبت أن تنبؤات شيركي دقيقة على نحو مخيف، ولكن في نهاية المطاف، لم يكن «فليكر» هو الذي سيقود التطور فيما بعد.

بحلول العام 2010 كان فيسبوك قد تجاوز «فليكر» وجميع الشركات الأخرى عبر الإنترنت ليصبح أكبر مستودع في العالم للصور الرقمية. وفي وقت مبكر، كانت عملية وضع العلامات على منصة التواصل الاجتماعي الشهيرة مشابهة لما أُنشئ على المواقع المنافسة، مثل «فليكر». ولكن مع إضافة ما يقدر بـ 100 مليون علامة إلى الرسوم البيانية على فيسبوك كل يوم، كانت الشركة في وضع جيد لبدء طرح

تجربتها الأولى في عملية الإشارات الآلية[22]. وفي هذا الوقت أيضًا بدأ المستهلكون في التخلي عن هواتفهم القديمة، واقتناء هواتف مزودة بكاميرات جديدة، مما أدى إلى ارتفاع حاد في عدد الصور الملتقطة والمتداولة. وقدرت شركة أبحاث السوق «إنفوترادز» InfoTrends أنه في الفترة ما بين العامين 2010 و2015، تضاعف عدد الصور الملتقطة في جميع أنحاء العالم ثلاث مرات، حيث ارتفع من 350 مليارا إلى 1 تريليون سنويًا[23]. سيكون للتقارب بين عملية الإشارة بالصور والاعتماد الواسع النطاق للهواتف المزودة بكاميرات آثار بعيدة المدى، خاصة على تطوير التعرف الآلي على الوجه.

كانت ممارسة فيسبوك لعملية الإشارة الآلية (عملية الإشارة التلقائية) تعاونية في البداية؛ ستقدم المنصة ببساطة اقتراحات بشأن الطريقة التي قد يرغب المستخدم في تمييز صورة ما بها. إذا سبق لك أن اضطلعت بعملية الإشارة إلى أفضل صديق لك، «ميرا» Mira، في عديد من الصور، فقد يقترح فيسبوك الإشارة إلى «ميرا» في صورة جديدة إذا كان نظام التعرف على الوجه الخاص بها قد حدد الوجه الجديد على أنه وجهها. رحب عديد من مستخدمي فيسبوك بعلامات الإشارة المقترحة هذه. وبدلا من الاضطرار إلى قضاء عدة دقائق في الإشارة إلى الأشخاص من خلال الصور الجماعية، يمكنك الآن تقاسم بعض أعمال الإشارة إلى الأشخاص مع روبوتات فيسبوك شبه الذكية. بينما كان مهندسو الشركة مسؤولين جزئيًا عن إتقان سمة عملية الإشارة التلقائية، سواء أعجبك ذلك أم لا، كذلك كان الحال بالنسبة إلى مستخدمي فيسبوك. ولم يكن لدى فيسبوك أكبر مخزن للصور الرقمية فقط، بل بفضل حماس المستخدمين المبكر لعملية الإشارة إلى الأشخاص، فقد جمع أيضًا أكبر مخزن للصور ذات العلامات في العالم. وضع هذا المزيج من الأصول الأساس لتقنيات التعرف على الوجه التي تُعرِّض الآن قدرتنا على التحكم في رؤيتنا في الحاضر والماضي للخطر.

على الرغم من صعوبة تحديد اللحظة الدقيقة التي بدأت فيها النظر إلى عمليات الإشارة بالصور واعتبارها شيئا يمكن أن يهدد حقوق الخصوصية الفردية، فإن علامات الإنذار المبكرة بدأت في الظهور في العام 2011. في صيف ذلك العام، حذر مسؤول حماية البيانات الألماني من أن سمة منصات عملية الإشارة الآلية عبر

الصور، يمكن أن تنتهك قوانين الخصوصية الأوروبية[24]. وفي الوقت نفسه بدأت المحاكم الأمريكية في التعامل مع أدوات التعرف على الوجه الجديدة على فيسبوك. وفي العام 2012 سحب فيسبوك القابس لفترة وجيزة على وظيفة عملية الإشارة التلقائية الخاصة به. وعلى رغم ذلك، في الوقت نفسه، اشترت فيسبوك شركة Face.com، وهي شركة إسرائيلية استأجرها فيسبوك سابقًا للمساعدة في تطوير برمجيات التعرف على الوجه[25]. وخلال عام، عمل فيسبوك على تحسين سمة التعرف على الوجه، وبحلول أوائل العام 2013 أُعيد تسجيل مستخدمي فيسبوك تلقائيا، على الأقل أولئك الذين يعيشون في الولايات المتحدة، ضمن تجربة عملية الإشارة التلقائية الجديدة والمحسَّنة.

منذ ذلك الحين، استمر فيسبوك، جنبًا إلى جنب مع اللاعبين الكبار الآخرين في ميدان التكنولوجيا، بما في ذلك «غوغل»، في تحسين تقنيات التعرف على الوجه. لقد أنجزت هذه الشركات شيئًا يعِدُ بتغيير رؤيتنا، ليس فقط في الوقت الحاضر، ولكن أيضًا في الماضي. هذه هي الفترة التي تبدأ فيها الحلقة التالية من حلقات تاريخ عملية الإشارة.

لم يعد مجرد وجه آخر ضمن الحشد

عندما أصبحت تقنيات التعرف على الوجه أكثر ذكاءً، حدث أمران، وحدثا بسرعة فائقة. بادئ ذي بدء، أصبح التعرف على الوجه المستند إلى الجماهير منتشرا في كل مكان. ولم يعد المحققون الخاصون، الأشخاص الوحيدين الذين لديهم الأدوات اللازمة لفحص أو مسح الحشود الكبيرة، وتحديد الأشخاص بدقة. وبالنظر إلى عملية الإشارة إلى وجوهنا على فيسبوك الآن، فقد زادت على نحو كبير فرصة إجراء تطابق صحيح – حتى في صورة أُخذت ضمن حشد من الناس – خلال العقد الماضي. لقد حظي هذا النوع من التعرف على الوجه باهتمام كبير في وسائل الإعلام، ويرجع ذلك إلى حد كبير الآن إلى إمكانية الإشارة بسهولة إلى شخص ما تلقائيًا في صورة لم يكن لديه أي فكرة عن التقاطها. على سبيل المثال، إذا التقط الأب صورة لطفله في زاوية شارع مزدحم ثم نشر الصورة على فيسبوك، فقد يُشار أيضًا إلى الوجوه المجهولة في الخلفية. قد يجد الشخص نفسه مشارا إليه في لحظات خاصة إلى شخص

غريب تمامًا - وهي ظاهرة تجعل من البديهي أيضًا مكان وجود كل شخص، أكثر وضوحًا[26]. لكن مشاهد الشوارع ليست الأماكن الوحيدة التي يمكن الإشارة إليها على الإنترنت؛ فالنشطاء يواجهون احتمالا مزعجا يتمثل في الإشارة إليهم من خلال الصور التي التقطت في الاحتجاجات. بينما كانت هناك بعض المحاولات للتحايل على تقنيات التعرف على الوجه (على سبيل المثال، من خلال تطوير مواد الملابس، وحتى طلاء الوجه المصمم لإرباك الخوارزميات)، تبقى احتمالية رصد الشخص في مظاهرة ما، أكبر بكثير من أي وقت مضى[27]. قد تكون المخاطر كبيرة خاصة بالنسبة إلى الشباب، الذين من المرجح أن يحضروا أحداث الاحتجاج، واضعين أجسادهم في الخطوط الأمامية. وعلى رغم ذلك، فإن تقنيات التعرف على الوجه الآلية لها تأثير آخر لا يتعلق بالفضاء (على سبيل المثال، أن تُرصد وسط حشد من الناس)، بل يتعلق بالوقت والتاريخ.

اضطلعت برمجيات التعرف على الوجه التجاري المبكر بعمل جيد نسبيًا في التعرف على أصدقاء الفرد أو أفراد أسرته في الوقت الحاضر، ولكنه لم يتمكن دائمًا من التعرف على الأشخاص أنفسهم في الصور القديمة، خاصة تلك التي مُسحت ضوئيًا وحُمِّلت ونُشرت عبر الإنترنت. ومع تحسن تقنيات التعرف على الوجه، أصبحت عملية الإشارة إلى الأشخاص من خلال الصور الفوتوغرافية القديمة أكثر دقة[28]. يمكن الآن تمييز الصور الرقمية القديمة، وحتى الصور من المصادر المطبوعة القديمة التي حُولت إلى رقمية (على سبيل المثال، الكتب السنوية للمدارس الثانوية). أما بالنسبة إلى عديد من الأشخاص، وخصوصا المهتمين بتاريخ العائلة، فإن تطوير الأدوات التي يمكنها التعرف تلقائيًا على الأشخاص في الصور القديمة، سيكون بلا شك تطورًا مرحبًا به. ولكن ماذا عن الأشخاص الذين أُشير إليهم على نحو متردد مثل تلميذي كيفن، الذي قدمته في وقت سابق في الفصل؟

أما بالنسبة إلى أي شخص يرغب في مغادرة المنزل وإنشاء مسافة مريحة، إن لم تكن كاملة، بين حياته الحالية وحياته الماضية، فإن تقنيات التعرف على الوجه تشكل عقبة رئيسة. للمضي قدمًا، يجب عليهم «إدارة» الشخص الذي تركوه وراءهم على نحو فعال، الذي قد يكون الآن عُرضة لعملية الإشارة إليه تلقائيًا من خلال صوره - وقد تشمل حتى تلك التي التُقطت قبل عشرين عامًا.

إذا كان هذا الأمر قد لا يبدو مدمرًا، فلنفكر في المقابل التناظري. بينما تستمتع بيوم عادي في العمل، إذ تصل خدمة توصيل الشحن UPS، ويفتح زملاؤك الصندوق الذي يحتوي على خمسة كتب سنوية قديمة للمدرسة الثانوية، وعشرات من ألبومات الصور العائلية. فجأة، يبدأ جميع زملائك في العمل يتأملون في صور مهينة أخذتها في «بار ميتزفه» bar mitzvah(*) في الصف السابع، ويسألونك عن تسريحة الشعر التي كانت لديك في ذلك الوقت الذي كنت فيه رئيسًا للنادي العلمي في مدرستك. بينما قد يبدو ذلك سخيفًا، في الواقع، بيد أن هذا الاحتمال المرعب أصبح الآن في متناول اليد حيث يتجاوز التعرف على الوجه الحاضر، ويصل إلى الماضي لتحديد وسحب الصور التي لم يُشر من خلالها إلى شخص ما، من قبل. بالنسبة إلى أي شخص ولد قبل التسعينيات، فإن هذا التقارب بين الماضي والحاضر سيُقلِّل منه من خلال حقيقة أن طفولته قد تكشفت في عصر التصوير الفوتوغرافي التناظري (ما لم تُرقمن تلك الصور السابقة). وعلى ذلك، فإن لدى الأشخاص الذين ولدوا منذ ذلك الحين، وضعا مختلفا تمامًا، نظرًا إلى وجود احتمال أكبر بأن تكون حياتهم موثقة في الوسائط الرقمية بدلا من الوسائط التناظرية منذ البداية.

إن مشكلة ترك المنزل، إذن، في عصر وسائل التواصل الاجتماعي ذات شقين. أما الشق الأول، فتوجد حقيقة بسيطة تتجلى في كوننا نعيش في عصر يُرجح فيه أن تسافر فيه شبكاتنا الاجتماعية معنا إلى موقعنا التالي. وبخصوص الشق الثاني، يمكن جذب ذواتنا الماضية إلى شبكاتنا الاجتماعية الحالية عن طريق التعرف على الوجه. يسارع المدافعون عن عملية الإشارة الآلية من خلال الصور، التي تشمل شركات التواصل الاجتماعي المرتبطة أرباحها بتقنيات التعرف على الوجه، إلى الإشارة إلى أن المستخدمين ليسوا أشخاصا من دون نصير. نظرًا إلى أن فيسبوك يود تذكير المستخدمين من خلال منحهم خيارات مريحة، مثلا إذا كان الشخص لا يريد أن يشار إليه بصوره الخاصة تلقائيًا أو بواسطة آخرين، فيمكنه ضبط إعداداته حتى لا تظهر الصور التي أُشير إليها في الموجز الخاص بك. بالطبع، لا يمكنك في الواقع

(*) هي شعيرة من شعائر تحتفل فيها الأسر من الديانة اليهودية ببلوغ أطفالهم سن البلوغ، ووفقا للديانة اليهودية فإن الوالدين يتحملان خطيئة أبنائهما حتى يبلغوا سن البلوغ حينها يصبح الأطفال بالغين ومسؤولين عن أفعالهم. [المحررة].

منع الآخرين من الإشارة إليك أو إغلاق وظيفة الإشارة الآلية في المنصة. وعلى نحو مماثل، فإن العبء في إنستغرام يقع على المستخدمين الذين لا يرغبون في أن يُشار إليهم ليتسنى لهم التحكم - إن لم يكن منع - في عملية الإشارة إليهم سواء أكان ذلك تلقائيًا أم بواسطة مستخدمين آخرين. وعلى ذلك، فإن أي شخص قضى وقتًا على منصة وسائط اجتماعية يعرف أن هذه القواعد تتغير باستمرار، وأن فكرة التحكم في كيفية وتوقيت الإشارة إليه، يمكن أن تسبب له الإرهاق وحتى اليأس. أما بالنسبة إلى شخص مثل كيفن، الذي يريد فقط أن يترك الماضي وراء ظهره، فإن عبء إدارة ذاته في الماضي - والحفاظ على أصدقائه القدامى ومكتسباته - هو مشروع وإلهاء مستمران، وإن محاولة صُنع شاب ما هوية جديدة في مكان جديد لا ينبغي أن تكون مثقلة به.

الفائزون والخاسرون

في القرن العشرين قدم كتاب «الخيال العلمي» نسخًا من المستقبل البائس حيث يجوب البشر العالم بشرائح أو رقائق دقيقة مزروعة في أدمغتهم. وعلى ذلك، فإن ألبوم الصور اليومي، الذي يبدو مألوفا وغير ضار - عكس الرقائق الدقيقة - هو ما يجعلنا، في نهاية المطاف، مرئيين تمامًا في الحاضر والماضي، ويهدد قدرتنا على أن ننسى ونُنسى. إن الفائزين هنا واضحون: شركات التكنولوجيا، وتحديدا تلك التي تملك مخازن كبيرة للبيانات، بما في ذلك فيسبوك وغوغل[29]. ولكن من هم الخاسرون؟

أود أن أقترح أن الأشخاص الذين يخسرون الكثير من هذه التطورات التكنولوجية الحالية، هم من سيكسب أكثر من وضع مسافة على الأقل بين ذواتهم الحالية وبين الماضي. في الوقت الذي نرى فيه أن كثيرا من الناس لديهم سبب وجيه للبقاء على اتصال عميق بالماضي، نجد أيضا آخرين يستفيدون من نبذ الماضي وراء ظهورهم. أما بالنسبة إلى كثير من الشباب، فتظل القدرة على ترك الماضي وراءهم أمرًا ضروريًا. قد تتطلب تجارب أخرى - تجربة نمو المرء فقيراً، على سبيل المثال - من الناس أيضًا «إعادة ابتكار» ذواتهم. قد لا يحتاج المرء إلى فك الارتباط مع الأصدقاء والعائلة القدامى تمامًا، ولكن قد يتطلب التنقل الاجتماعي للفرد تحديدًا إستراتيجيًا لماضيه.

إن الأشخاص الذين سيدفعون أعلى ثمن لقاء وصولنا إلى عالم غني بالبيانات حيث لا تُميَّز الصور الفوتوغرافية فقط، بل تُميز في نهاية المطاف أنواع أخرى من الكائنات المادية بطبقات لا تُعد ولا تُحصى من البيانات هم، إذن، من كان لديهم في السابق أكبر قدر من المكاسب من كونهم قادرين على القيام برحلة ما في مكان وزمان آخرين وإعادة ابتكار ذواتهم[30]. ولكي نكون واضحين، هذا لا يعني أن عملية الإشارة إلى الأشخاص والتعرف على الوجه ضاران تمامًا. وكما توضح اللقاءات مع التقنيات السابقة، لا يمكن الاستهانة بعمليات إعادة نشر التقنيات الإبداعية والخيالية التي غالبًا ما تكون مدفوعة سياسيًا. لكن التاريخ يشير أيضًا إلى أن اللقاءات مع تقنيات الوسائط الجديدة تتشكل في كثير من الأحيان من خلال هوية الفرد وموقعه المادي. أما الأشخاص الذين لم يحظوا نهائيا بامتياز إضفاء الطابع الرومانسي على المنزل - أولئك الذين قد يعتمد بقاؤهم حتى على الرحيل، ووضع بعض المسافة بين الحاضر والماضي - فمن المرجح، على ما يبدو، أن يكونوا أكثر عرضة لخطر انتهاء الأمر بهم في الجانب الخاسر من هذه المعادلة التكنولوجية.

5

سعيًا وراء تحقيق الاختفاء الرقمي

لم يكن الاختفاء سهلا قط - بل لم يكن كذلك حتى في عصر الطباعة. خذ على سبيل المثال قصة دانييل كولوبيرت Danielle Collobert؛ فوفق ما ورد، شعرت الكاتبة الفرنسية التجريبية بالأسف الشديد بشأن كتابها الأول، الذي نُشر في العام 1961، لدرجة أنها حاولت استرداد جميع النسخ المتداولة. وكانت ترغب - مثلها مثل عديد من الكتّاب - في نسيان كتابها الأول، ولكن للاضطلاع بذلك، كانت بحاجة إلى التأكد من أن الآخرين سينسونه أيضًا[1]. وفي نهاية المطاف، تتوقف قدرة المرء على النسيان على رغبة الآخرين في عدم تذكيرنا بالشيء ذاته الذي نأمل محوه. كانت كولوبيرت تظن أن عملية المحو أو الحذف هي أمر تتكلف به بمفردها، وهو ما كان لها في نهاية المطاف.

«عندما تصبح المصالح الخاصة راسخة مستثمرة في علاقاتنا الاجتماعية، لم يعد نسيان بعضنا بعضا تحت سيطرتنا بالكامل»

تخيل الآن لو أن كولوبيرت كانت قد وُلِدت في أواخر التسعينيات، وليس في العام 1940، وبدأ النشر (أو النشر الذاتي) عبر الإنترنت. ولكن لما ولدت في عصر مختلف، ربما كان لديها مزيد من الأعمال المبكرة حيز التداول، ربما بما في ذلك «أدب الصبا» juvenilia، غير أن أمر استردادها قد يكون قصة مختلفة تمامًا. وعلى عكس كاتب ينتمي إلى فترة سابقة، والذي ربما كان يعلم بعدم وجود سوى ثلاثمائة أو ثلاثة آلاف نسخة من كتابه الأول المتداول، فإن الكاتب الطموح اليوم هو من ينشر قصائده على إنستغرام، وهو لا يملك ربما أدنى فكرة عن المكان الذي سافرت إليه أعماله. قد يرى المرء أنه لم يتغير كثيرٌ انطلاقا من فترة كولوبيرت إلى فترة إنستغرام بما أن كولوبيرت لم تتمكن، في الواقع، من إتلاف جميع نسخ كتابها الأول (من الواضح أن نسخة واحدة على الأقل قد نجت، لأن الكتاب أعيد نشره بعد وفاتها)[2]. وعلى رغم ذلك، فإن شيئا واحدا على الأقل قد تغير، وهو بالضبط ما كنا نعدُّه من المسلمات: القدرة على معرفة عدد نسخ النص المتداولة، والقدرة المناسبة على تخيل استردادها على الأقل. وبالطبع، إن الكتب الأولى ليست هي الأشياء الوحيدة التي قد يرغب المرء في محوها.

في محادثة بشأن موضوع كتابي، اعترف لي أحد الزملاء بفهمه على وجه التحديد لماذا قد يكون المحو الرقمي خطوة مستحبة. اتضح أن زميلي مر بمرحلة مشينة يريد محوها من تاريخه لكنها موثقة رقميا. وهو أستاذ يعمل في حرم جامعي تقدمي في مدينة نيويورك. يمكن للمرء أن يتخيل أنه لو اختار العمل في مجال مختلف (على سبيل المثال، مجال السياسة، أو تطبيق القانون، أو التعليم من مرحلة رياض الأطفال إلى الصف الثاني عشر)، فلربما كان تاريخه مصدر قلق أكبر بكثير. وقد يرغب في نسيانه على نحو عاجل، ويرغب في أن ينساه الآخرون في الوقت ذاته. ولكن إذا كان زميلي يريد محو تلك المرحلة المشينة الخاصة به، فهل سيكون ذلك ممكنًا؟

سواء أكنت تأمل في أن تنأى بنفسك عن المنشورات السابقة في العالم الرقمي أم لا، فإن عملية محو البيانات ليست بالأمر السهل. ومن ثم، فإن مسألة أن تنسى وتُنسى، تطرح تحديًا أيضًا. بينما قد توجد طرق ترفع من منسوب فرص تحقيق شكل من أشكال الاختفاء الرقمي، يبدو من غير المرجح إمكانية وجود أي شيء أكثر من الاختفاء الجزئي.

إن السبب الحقيقي الذي يجعل الاختفاء الرقمي أمرًا صعب التحقيق الآن أو في أي وقت في المستقبل، لا يرجع ببساطة إلى كوننا نعيش جميعًا في حضور بصماتنا الرقمية وظلالنا الرقمية. بل إن الرغبة الفردية في الاختفاء تتعارض أيضًا مع الأجندات التكنولوجية والاقتصادية على حد السواء. ظاهريًا، يبدو أن حذف عمل منشور رقميا بصفة نهائية، لن يكون له أي تأثير في مستقبل التكنولوجيا. وعلى نحو مماثل، قد يفتقر العمل المنشور رقميا إلى إمكانات لتوليد الدخل أو قد يكون لديه إمكانات محدودة أصلا. لكن كل هذه الأجزاء الصغيرة من البيانات، التي ينتج كل منها مزيدا من البيانات، لها قيمة كبيرة. إنها محركات لكل من التكنولوجيا واقتصاد القرن الحادي والعشرين. وهذا يعني أن النسيان – ذلك المورد المدمج البديهي الذي كان بحوزة جميع البشر – أصبح الآن ضد مصالح شركات التكنولوجيا، وعلى نطاق أوسع، أي شركة تسعى إلى استخدام البيانات لتحسين منتجاتها أو خدماتها. ولم يعد الصراع الحقيقي صراعًا بين النسيان والذاكرة، بل بين النسيان والقيمة المتزايدة للبيانات، بما في ذلك البيانات التي لم تكن ذات يوم تحمل أي قيمة جوهرية على الإطلاق. لعدة أسباب، يتأثر الأطفال والمراهقون بهذا التحول بطرق مختلفة بدرجة كبيرة وبدرجة مختلفة عن البالغين.

الفضاء الرقمي، والوقت الرقمي، والمُوراتُوريُوم النفسي الاجتماعي

يعتقد المحلل النفسي إريك إريكسون في ضرورة منح الشباب قليلا من التراخي، لأن المراهقة وحتى سن الرشد هما فترتا استكشاف شخصي مكثف. كما رأينا في الفصل الثاني، لاحظ إريكسون أن معظم الثقافات قد منحت الشباب تاريخيًّا مُوراتُوريُوما نفسيًا اجتماعيًا، عندما أُعفُوا من عواقب تجاربهم. وقبل انتشار منصات التواصل الاجتماعي، والتوثيق غير المسبوق للطفولة والمراهقة الذي نشهده الآن، كانت تتمتع نسبة أعلى من الشباب بحرية التجربة والإخفاق فيها، والمضي قدمًا مع قليل من العواقب (على الرغم من أنني أحذر من أن القدرة على فعل ذلك تختلف دائمًا وفق العرق والطبقة والجنوسة). لقد أدت وسائل الإعلام الرقمية، كما اقترحت سابقًا، إلى تآكل هذا المُوراتُوريُوم النفسي والاجتماعي إلى حد كبير. ولكن هل يمكن إعادته من خلال عملية من عمليات محو البيانات؟ في الحقيقة، بُذلت

بعض المحاولات لتأسيس مثل هذه العملية من الناحية التشريعية، لكن ممارسات الوسائط الرقمية تقوض باستمرار مثل هذه المحاولات.

من المؤكد أن كثيرا من الناس يعتقدون في ضرورة أن يكون الأطفال والشباب قادرين على ارتكاب الأخطاء من دون أن يراقبها العالم. الواقع أن ثمة عددا من الدول حول العالم (ولكن ليست الولايات المتحدة) لديها قوانين تحظر نشر أسماء الجناة الشباب في وسائل الإعلام[3]. فالمنطق يقتضي ضرورة أن يكون القاصرون قادرين على الوقوع في الخطأ والمضي قدما نحو حياة الكبار سالمين من الأخطاء المقترَفة في فترة شبابهم عند إصدار الأحكام. تعكس هذه القوانين فهمًا مجتمعيًّا ضمنيًّا يقضي بضرورة السماح للشباب بنوع من المُوراتُوريُوم الاختياري للعواقب. كما يوجد الآن دعم متزايد للتشريعات التي من شأنها أن تمنح الشباب حقوقًا خاصة مماثلة فيما يتعلق بمحو البيانات، لكن هذه الجهود تواجه تحديات كبيرة[4].

يتمثل أحد تحديات تشريع محو البيانات الذي قُدِّم إلى الاتحاد الأوروبي في اعتماده على التمييز بين المواطن العام والمواطن الخاص. تتطلب المادة 17 من النظام الأوروبي العام لحماية البيانات، أن يوازن مراقبو البيانات (الكيانات التي تجمع البيانات) حقَّ الفرد في أن يُنسى مقابل «المصلحة العامة» في البيانات عند النظر في منح طلب محو البيانات[5]. من ناحية، هذا منطقي تمامًا. إذا كان جارك المجاور يحمل طقوس العربدة، وأحد الضيوف ينشر بعض الصور على الإنترنت، ثم يطالب الجار بحذفها، فهذا يبدو طلبًا شرعيًّا. لا يوجد سبب يدفعك إلى معرفة كيفية اختيار جارك قضاء وقت فراغه. من ناحية أخرى، إذا صادف أن كان جارك المجاور هو العمدة، ودعا مسؤولين حكوميين آخرين إلى الحفلة، فقد يكون الوصول إلى هذه المعلومات أمرًا مهمًّا، لأنها قد تخبرك بشيء عن سوء تقدير رئيس البلدية أو إساءة استخدام السلطة. لكن هذا يثير سؤالين مهمين. في العالم الرقمي، كيف يفصل المرء بين الشخصيات العامة، والمواطنين العاديين؟ وماذا عن الأطفال والمراهقين الذين أصبحوا شخصيات عامة؟

مع انتشار مواقع التواصل الاجتماعي، أصبحت مسألة تحديد الشخصية العامة من عدمها أمرًا صعبًا بشكل متزايد. إن الوسيلة نفسها هي التي تملك القدرة على تحويل الأشخاص العاديين إلى شخصيات عامة، والنهوض بذلك بمعدل سريع

على نحو مذهل. هذا بالضبط ما حدث لرازا غيسلين، الذي تحول إلى طفل حرب النجوم – على ما يبدو – بين عشية وضحاها بعد ما نُشر مقطع الفيديو الخاص به على الإنترنت. بالنسبة إلى رازا، كان التحول إلى «ميم» على الإنترنت تجربة مدمرة. لو قُدِّر له أن ولد في فرنسا وليس في كيبيك، ولو بقي هناك باعتباره شخصا بالغا، فهل سيكون الآن قادرًا على طلب إلغاء فهرسة كل إشارة سابقة إلى اسمه المرتبط بـ «طفل حرب النجوم»، حتى لا يظهر في عمليات البحث على الإنترنت؟ وهل يمكنه طلب إزالة كل نسخة من فيديو «طفل حرب النجوم»، بما في ذلك عمليات إعادة الإنتاج المتعددة بواسطة «المعجبين»، من مجالات «غوغل» جميعها؟ أم أن الصعود إلى عالم الشهرة بالرغم من أنه لم يكن بإرادته يقف سدا منيعا أمام قدرته على فعل ذلك؟ يمكن للمرء أن يجادل بسهولة في أن قصة «رازا» تحظى باهتمام عام لأسباب متنوعة، بما في ذلك حقيقة أن فيديو «طفل حرب النجوم»، يُشار إليه على نحو متكرر باعتباره المثال الأول لميمات الإنترنت المنتشرة على نطاق واسع. قد يقول المرء إنه لا ينبغي محو الأدلة عبر الإنترنت لقصة «رازا» لأن الدليل نفسه جزء مهم من تاريخ الإنترنت. الواقع أنه يبدو أن ذكر قصته في جميع محطات هذا الكتاب، يدعم مثل هذا الاستنتاج. وهذا يقودنا إلى سؤال آخر: كيف يمكن للمرء أن يُقيِّم طلبًا مشابهًا من شخص بالغ نمَّى عن قصد شهرة على الإنترنت عندما كان مراهقًا؟ على عكس رازا، بذل كريستيان أكريدج Christian Akridge، المعروف لدى معجبيه على الإنترنت باسم كريستيان ليف Christian Leave، جهدًا كبيرًا لبناء قاعدة المشاهير والمعجبين به على الإنترنت. ولم يكن ضحية، بل استفاد – بالأحرى – ماليًّا وغير ذلك من شهرته على مواقع التواصل الاجتماعي. إذا بدأ يندم تدريجيا خلال خمسة أعوام أو خمسة عشر عامًا أخرى على الشهرة القصيرة التي اكتسبها في سن المراهقة، فهل يُسمح له بمحو آثار حياته السابقة على الإنترنت بأثر رجعي؟

تشير هذه الأمثلة الافتراضية إلى أنه بالنسبة إلى ضحايا الشهرة عبر الإنترنت، وحتى بالنسبة إلى مشاهير وسائط التواصل الاجتماعي الذين شكلوا هويتهم بأنفسهم طبقا لأعراف المجتمع، قد لا يشكل التمييز بين المواطن الخاص والشخصية العامة أساسا مهما على نحو خاص لتحديد من ينبغي (أو لا ينبغي) له الاستفادة من قوانين محو البيانات. أولا، تجعل منصات وسائط التواصل الاجتماعي من

الصعب تحديد الشخصية العامة. كما توضح أمثلة أكريدج، وعدد لا يحصى من مشاهير وسائط التواصل الاجتماعي (صغارًا وكبارًا على السواء)، أصبح من الممكن الآن أن تصير شخصية عامة من دون وكيل وحتى من دون مغادرة المنزل. كما يمكن للمرء أن يكتسب شهرة عامة من مكان خاص، حتى انطلاقا من غرفة نومه. بينما أدت بعض الظواهر الإعلامية السابقة (على سبيل المثال، تلفزيون الواقع) أيضًا إلى تآكل الحدود بين العام والخاص، فإن وسائط التواصل الاجتماعي تفعل ذلك بطريقة أكثر انتشارًا، ويتورط الشباب فيها على نطاق أوسع[6]. أما الاعتبار الثاني الذي لا يقل أهمية، فيتمثل في المدى الذي تدمج فيه البيئات عبر الإنترنت تجربة الوجود في الأماكن العامة مع الفعل الترويجي. تلاحظ دانا بويد «وجود فرق كبير بين الوجود في الأماكن العامة وأن تصبح عاما»، حيث «يريد المراهقون التجمع في البيئات العامة للتواصل الاجتماعي، لكنهم لا يريدون بالضرورة الإعلان عن كل تعبير صوتي. وعلى رغم ذلك، نظرًا إلى أن الوجود في جمهور مُشَبَّك – على عكس التجمع مع الأصدقاء في حديقة عامة – غالبًا ما يجعل التفاعلات مرئية أكثر... إذ يمكن أن مجرد المشاركة في وسائل التواصل الاجتماعي، يخفي الوضوح بين هاتين الديناميتين»[7]. بينما يتأثر البالغون أيضًا بضبابية الحدود بين المواطنين والشخصيات العامة، تبقى المشكلة بالنسبة إلى الأطفال والمراهقين أكثر حدة.

في العالم الرقمي، من المرجح أن يصبح الشباب شخصيات عامة أكثر من أي وقت مضى. ومن المرجح أيضًا أن تصبح أنشطتهم أمورًا تهم المصلحة العامة. لأول مرة في التاريخ، أصبح لديهم إمكانية الوصول إلى التقنيات اللازمة لإنتاج تمثُّلات حياتهم وتوزيعها. لكن ما لم يتغير هو وضعهم الاجتماعي والاقتصادي؛ إذ لايزال الأطفال والمراهقون الذين تقل أعمارهم عن ثمانية عشر عامًا غير قادرين على التصويت، وغير قادرين على اتخاذ قرارات بشأن تعليمهم ورعايتهم الطبية، ويخضعون لحظر التجول وأنواع أخرى من القيود المادية. فحياتهم لاتزال محصورة إلى حد كبير في المجال الخاص والأوساط المؤسسية الخاضعة للعقوبات، مثل المدارس، على الرغم من حصولهم على وصول غير مسبوق إلى الأدوات اللازمة لتوثيق حياتهم وبثها على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع. يمكن أن تكون حياتهم عامة جدًا، لكنهم يفتقرون إلى عديد من الحقوق والحريات الأساسية الممنوحة للبالغين[8].

حتى لو كان هناك اتفاق مجتمعي على ضرورة أن تكون البصمات الرقمية التي يتركها الشباب أسهل في التنظيف من تلك التي يتركها الكبار، ونستطيع التمييز بسهولة بين الشخصيات العامة والمواطنين العاديين، فمن المحتمل أن تعيق وتيرة وسائط التواصل الاجتماعي مثل هذه الجهود. ومن المفيد هنا العودة إلى قضية رحته بارسونز.

لقد تدمرت حياة بارسونز عندما التُقطت صورة فاضحة لها في حفل من تنظيم المراهقين، ثم تدوولت على الإنترنت. بينما كان انتحارها أيضًا نتيجة تحقيق شابته مخالفات إجرائية، فإن السرعة التي تدوولت بها الصورة الفاضحة كانت عاملا مهمًا. لو كانت الصورة من نوع «بولارويد» وليست رقمية، لما انتشرت على نطاق واسع أو بسرعة. في هذه الحالة، من الواضح كيف تعمل سرعة وسائط التواصل الاجتماعي ضد فكرة المُوراتُوريُوم على العواقب. وفي كل الأحوال، فإن المُوراتُوريُوم الذي كان يدور في ذهن إريك إريكسون يعتمد على نسيان الأحداث الحالية وعدم ترحيلها إلى المستقبل.

وفي نهاية المطاف، تذكرنا حالة بارسونز - مقارنة بالوسائط التناظرية - بأن الوسائط الرقمية لا تَرحم و«لا تُنسى». بينما هناك دائمًا فاصل زمني بين لحظة الإنتاج ولحظة البث في عالم الوسائط التناظرية، فالأمر مختلف مع الوسائط الرقمية التي غالبًا ما يحدث الإنتاج والبث فيها في وقت واحد أو تقريبًا في وقت واحد. لم يعد المراهقون في الواقع يوثقون حياتهم الاجتماعية لإنتاج مواد للذكرى memory objects تمكنهم من الوصول إليها في المستقبل، بل يختبرون العالم الاجتماعي عبر منصة وثائقية. تندمج التفاعلات الاجتماعية عبر الإنترنت مع توثيق هذه التفاعلات، لكن هذا أيضًا يخلق مخاطر جديدة للشباب. فعلى عكس المتنزه، أو المقعد الخلفي للسيارة، أو غرفة الاستجمام في الضواحي، إن ما يُكشف عنه عبر الإنترنت للشباب هو، في بعض النواحي، بالفعل جزء من السجل العام. حتى لو اتفقنا بوصفنا مجتمعا على النظر في الاتجاه الآخر، فإن الظروف التي نفعل فيها ذلك، في الواقع، قد تآكلت بشدة. إن الفضاء الرقمي والوقت الرقمي كلاهما يعملان ضد إمكانية المُوراتُوريُوم النفسي والاجتماعي للشباب.

بغض النظر عن حقيقة أن كل شيء يبدو الآن مكدسًا ضد الشروط المطلوبة لمثل هذا المُوراتُوريُوم، فإن هناك عاملا آخر لا يمكن تجاهله. لا تكسب الاقتصادات التي

تحركها التكنولوجيا إلا قليلا من دعم حق الشباب في النسيان وحقهم في أن ينساهم الناس. وبالنظر إلى أن الأطفال والمراهقين يمثلون ما يقرب من ثلث مستخدمي الإنترنت في العالم، فإن مشاركتهم واستعدادهم لتوليد البيانات، والاستمرار في إنتاجها، أصبحت الآن ذات أهمية اقتصادية كبيرة[9]. وعليه، فمن المحتمل أن تنجح الجهود الحالية لمنح الأطفال والشباب شكلاً من أشكال الاختفاء الرقمي فقط إلى الحد الذي يمكن فيه استغلال رغبتهم في النسيان وفي أن ينساهم الناس، وتسليعها.

نزع حيازة البيانات

لتقدير سبب احتمال أن تحدد مصالح الشركات مستقبل الاختفاء الرقمي، ومن ثم مستقبل النسيان، نحتاج إلى تحديد موقع الاختفاء والنسيان في المشهد التكنولوجي والاقتصادي الحالي لدينا.

على مدى عقود، تصاعدت المخاوف بشأن المراقبة؛ وعلى رغم ذلك، فقد ثبت أن معظم هذه المخاوف لا أساس لها من الصحة. وفي أواخر القرن العشرين، كانت المراقبة مرادفة للتقنيات المرئية. لقد توقع الناس ذات مرة أنه في القرن الحادي والعشرين سنعيش في عالم تنتشر فيه الكاميرات في كل مكان. أما اليوم، فتنتشر فيه كاميرات الفيديو، لكن آلاف الساعات من لقطات الفيديو المسجلة كل يوم، لا تمثل سوى جزء صغير من البيانات التي تُجمع عن الأشخاص. وربما لا تكون الطريقة أو عدد المرات التي نراها فيها هي التي تشكل أكبر تهديد لخصوصيتنا، بل البيانات التي لا يمكننا رؤيتها على الإطلاق، وغالبًا لا ندرك أنها موجودة.

تتمثل الأصول الأكثر قيمة التي تحتفظ بها شركات التكنولوجيا في مخازن البيانات الخاصة بها. لقد أصبحت البيانات الآن موردًا أساسيًا مثلها في ذلك مثل الخشب والحديد في القرن التاسع عشر. وهذا هو السبب في أن المنصة الرقمية التي لم تُسيَّل بعد يمكن أن تصل قيمتها إلى الملايين، وفي حالة «إنستغرام»، يمكن أن تصل قيمتها إلى مليار دولار[10]. بينما يعد الإعلان بالتأكيد مصدرًا للإيرادات الفورية، تعتمد قيمة هذه الشركات، عادةً، على قدرتها على إنشاء البيانات واستخدامها لإنتاج مزيد من البيانات، فضلا عن المنتجات أو براءات الاختراع. وتصف المنظرة الإعلامية جودي دين Jodi Dean هذه الظاهرة بـ «الرأسمالية التواصلية». ترى

دين أنه في ظل الرأسمالية التواصلية، التي أصبحت الآن البنية الاقتصادية المهيمنة في جميع أنحاء العالم المتقدم، فإن الشيء الوحيد المهم حقًا هو التداول. أما المحتوى المحدد لأي مساهمة فهو أمر ثانوي أمام التداول نفسه. بمعنى آخر، فالرسائل التي تُرسَل، والشخص الذي يرسلها وتاريخ إرسالها، ومسألة ما إذا سُمِعت أو رُدَّ عليها، هي أمور لا علاقة لها بالموضوع. وبقدر ما تُنتَج البيانات، سيستمر النظام الاقتصادي الحالي في الازدهار[11].

من المفيد هنا إجراء مقارنة بشأن تبني النشطاء لوسائل التواصل الاجتماعي، مثل أولئك الذين تجمَّعوا معًا عبر الإنترنت وشخصيًا ضمن حركات مثل «الربيع العربي»، و«حركة احتلوا» **Occupy movement**، وحركة «حياة السود مهمة» Black Lives Matter. في الماضي اعتمد النشطاء أيضًا على التقنيات التي تنتجها الشركات التي ربما لم تقاسم أهدافها السياسية. على سبيل المثال، كان الهدف من تطوير شركة «زيروكس» لتقنيات التصوير الجاف أو الزيروغرافي في منتصف القرن العشرين، هو تسهيل أنواع معينة من الأعمال المكتبية؛ لكن تبين أن التصوير الجاف كان هدية غير مقصودة لعدة أجيال من النشطاء، الذين اعتمدوا عليه لإنتاج ملصقات ومنشورات غير مكلفة. بينما لم يكن المديرون التنفيذيون والباحثون في شركة «زيروكس» ومصنعو آلات النسخ الآخرون ربما غافلين تمامًا عن الطرق التخريبية التي كانت تُستخدَم بها الآلات المكتبية التي كانت من صنعهم، لم يكن لديهم من ناحية أخرى أي فكرة عما كان يُنسخ على أجهزتهم. علاوة على ذلك، نظرًا إلى أن النشطاء غالبًا ما يعيدون إنتاج موادهم على آلات النسخ الخاصة بأرباب عملهم، لم يستفد المصنعون أيضًا على نحو مباشر. نتيجة لذلك، كانت هناك احتمالات قليلة أمام هؤلاء المصنِّعين لاسترداد أي شيء من استخدام النشطاء لآلاتهم. اليوم، عندما يستخدم النشطاء منصات من قبيل فيسبوك، وتويتر وإنستغرام، يمكن لتلك الشركات استرداد كثير من العائدات. كل تغريدة، وكل تحديث على فيسبوك، وكل صورة منشورة على إنستغرام، تولِّد بيانات يمكن بدورها تشغيلها لأغراض لا علاقة لها بمحتوى هذه الرسائل، والصور، ومقاطع الفيديو الأصلية. هذه هي قوة الرأسمالية التواصلية، التي – على حد تعبير دين – «تستوعب كل ما نضطلع به» و«تحوِّل ليس فقط

تفاعلاتنا الوسيطة، ولكن جميع تفاعلاتنا إلى مادة خام لرأس المال»[12]. وهكذا «تُنزع حيازة بياناتنا».

لطالما اعتمدت الرأسمالية على التراكم عن طريق نزع الملكية. ويحدث هذا الشكل من التراكم، على سبيل المثال، عندما تشجع مؤسسة خاصة، العمالَ على الدفع في صندوق معاشات تقاعدية لكنها تدهم الصندوق بعد ذلك، وتترك الموظفين خالي الوفاض[13]. كما أن نزع حيازة البيانات يوسع منطق الرأسمالية المتأخرة(*)، ولكن في هذه الحالة يتوسع هذا المنطق ليقتحم شيئا آخر - أي البيانات؛ وهذا يشمل الآن البيانات التي ننتجها من خلال تفاعلاتنا الاجتماعية المستمرة. أحيانًا يكون نزع حيازة البيانات واضحًا – على سبيل المثال، عندما يتعين علينا تجديد كلمات المرور الخاصة بنا، أو تحديث معلومات بطاقة الائتمان الخاصة بنا لمتجر من المتاجر عبر الإنترنت – ولكنه غالبًا ما يتخذ أشكالا أقل وضوحًا. تُنزع حيازة البيانات أيضًا عندما تعمد الشركات إلى جمع مجموعات بيانات مختلفة ودمجها واستخراج بيانات أخرى منها (على سبيل المثال، مجموعات البيانات بشأن أنواع المنتجات التي نشتريها في أي يوم من أيام الأسبوع، وعدد المرات التي نبحث فيها عن الأعراض الطبية الخاصة بنا) لإنتاج منتجات وخدمات جديدة، يمكن بيعها إلينا مرة أخرى. ونظرًا إلى أن الكميات الصغيرة من البيانات نادرًا ما تكون لها قيمة كبيرة، فإن نزع ملكية البيانات يعد أيضًا تجربة جماعية. وعلى رغم ذلك، فإن ما هو متاح، هو طريقتنا في الوجود معًا. يجري التنقيب في تفاعلاتنا بعضنا مع بعض لمصلحة الشركات الخاصة[14]. وسيتعين علينا التغلب على هذا الشكل الجديد من أشكال نزع الحيازة إذا ما أردنا أن يكون لدينا أي أمل في الحفاظ على القدرة على أن ننسى ونُنسى في المستقبل.

مهمة التذكر

أن تَنسى وتُنسى ليس هو الشيء نفسه، لكنهما مرتبطان ارتباطًا وثيقًا. وغالبًا ما يُنظَر إلى النسيان باعتباره عملية عصبية أو نفسية. إن أدمغتنا قادرة على منع

(*) مصطلح استُخدِم أول مرة من قبل الاقتصادي الألماني فيردر سومبارت وفي العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين أُعيدَ استخدام هذا المصطلح في الولايات المتحدة لوصف التناقضات والظلم والأزمات التي تحدث بسبب ممارسات تطوير الأعمال التجارية الحديثة. [المحررة].

الوصول إلى بعض المعلومات (على سبيل المثال، المعلومات التي لم تعد ذات صلة أو مهمة) حتى نتمكن من التركيز على مزيد من المعلومات الحالية وتكون ذات صلة فعليا[15]. أما أن نُنسى فهي قصة مختلفة. إنها، في النهاية، عملية تقع بالكامل على عاتق الآخرين. لكن في بعض الأحيان تتعطل قدرتنا على النسيان بسبب فشل الآخرين في النسيان. إذا صادفنا صديقًا قديمًا في الشارع وقد أحضر معه شخصًا معينًا أو تجربة مشتركة قد نسيناها (ربما لأنه كان شيئًا لا نحتاج إلى تذكره، أو شيئًا سلبيًا نرغب في نسيانه)، فإن نسياننَا بدوره سيتوقف. وهذا يعني أنه يمكن أن تكون منسِيًّا من دون أن تَنسى، ولكن تحقيق النسيان من دون أن تُنسى أمر صعب للغاية؛ فالنسيان في نهاية المطاف هو أمر اجتماعي. لهذا تطرح وسائط التواصل الاجتماعي تهديدا لمستقبل الناسي والمنسي.

إذا كنا - كما ذهبت إلى ذلك دين - نعيش الآن في عالم تخدم فيه علاقاتنا الاجتماعية، المنفعةَ الخاصة للآخر – حيث يجري «تحليل التفاعلات الاجتماعية للأنماط السابقة، والاحتفاظ بها في المستقبل من أجل الحصول على بعض الميزات التنافسية» – فلا بد أن يُنظر إلى مسألة كوننا منسيّين باعتبارها مشكلة[16]. عندما تصبح المصالح الخاصة مستثمرة في علاقاتنا الاجتماعية، لم يعد نسيان بعضنا بعضا تحت سيطرتنا بالكامل. لنتأمل، على سبيل المثال، الاستثمار المفرط لمنصة مثل منصة فيسبوك، وما تتمتع به من إمكانات لضمان ألا نَنسى ولا نُنسى حتى من قبل أولئك الذين لم نتحدث إليهم منذ عقود.

عندما اشتركت أول مرة في منصة فيسبوك (ليس قبل العام 2008، ولأنني ببساطة، انتقلت أخيرا إلى بلد جديد)، كنت أعتزم البقاء على اتصال بأشخاص كنت أعرفهم من قبل، وأتواصل معهم على نحو منتظم. في البداية، كانت جهات الاتصال الخاصة بي أصدقاء تركتُهم من فوري، إلى جانب عدد قليل من الزملاء الجدد. ولكن مع مرور الوقت بدأ عدد متزايد من المعارف من الماضي ينسجون «صداقة» معي. كان هؤلاء أشخاصًا مثل مايك، أحد معارفي القدامى، الذي التقيت به أول مرة في مهرجان درامي في المدرسة الثانوية. وبعد مهرجان عطلة نهاية الأسبوع، انقطع الاتصال بيني وبينه بما أنه كان يعيش على مسافة ثلاث ساعات بالسيارة، وفي منتصف الثمانينيات، حاول عدد قليل من المراهقين الحفاظ على العلاقات عبر

هذه المسافات البعيدة. وعلى رغم ذلك، انتقل إلى جامعتي بعد خمس سنوات، وأصبحنا أصدقاء أخيراً. وبعد التخرج فقدنا هذا الاتصال مرة أخرى – أي إلى أن حلت منصة فيسبوك. وعندما أصبح مايك صديقا على فيسبوك بعد نحو خمسة عشر عامًا، تساءلت عن السبب. لم يتحدث أحدنا إلى الآخر منذ أكثر من عقد، وبحلول ذلك الوقت، لم يكن لدينا شيء مشترك سوى الماضي. بالطبع، كل شخص تقريبًا على فيسبوك لديه مايك أو عشرات المايكات. هؤلاء هم الأشخاص الذين لا نمانع في إعادة الاتصال بهم، لكنهم أيضًا أشخاص من المحتمل ألا نفكر فيهم أبدًا مرة أخرى، إذا لم ينشئ فيسبوك بنية تمكننا من إعادة الاتصال بعضنا ببعض – لأن ذلك يُستثمر في تواصلنا المتجدد والمستمر.

عندما اخترت في النهاية إلغاء تفعيل حسابي على فيسبوك في العام 2011، حدث شيء غريب آخر؛ ففي أثناء قيامي بذلك، طُلب مني إلقاء نظرة على صور جميع الأشخاص الذين قد أفتقدهم إذا أقدمت على هذه الخطوة الجريئة. كان وجه مايك أحد الوجوه التي تومض على شاشتي، وكذلك تومض وجوه وأسماء عشرات الأشخاص الذين لم أكن أعرفهم على الإطلاق. وبحلول ذلك الوقت، كان لديَّ ما يقرب من سبعمائة «صديق» – معظمهم من الأشخاص الذين قابلتهم في أثناء حضور المؤتمرات أو الأحداث الأدبية، أو الأشخاص الذين لم أقابلهم مطلقًا، ولكن كان لدي نوع من التواصل المهني معهم – وبينما لم يكن لدي أدنى سبب لتذكر هؤلاء الأشخاص، اتضح لي أن فيسبوك كان له داعٍ من وراء هذه الذكرى. وعلى رغم ذلك، فإن السبب وراء استثمار المنصة – التي جمعت الملايين من الأصدقاء القدامى والأقارب البعيدين، وحتى الغرباء معًا – في الحفاظ على علاقاتنا قائمة، لم تكن له علاقة بالمشاعر إلا قليلا. كما يستثمر فيسبوك كل المنخرطين فيه ممن يتذكرون ولا ينسون لسبب بسيط. وعندما يتقاسم صديقي القديم مايك صورًا لأطفاله معي وأنا أضغط على زر «الإعجاب»، وعندما «يعجب» مايك بمنشوراتي بشأن كتاب قادم وأحال الرابط إلى خمسة أصدقاء مشتركين قدامى آخرين، فإننا نولّد البيانات ونعزز مزيدا من الاتصالات، وهو أمر جيد لفيسبوك. وإذا اختار كل «الكيتات» Kates والمايكات في العالم نسيان التذكر، فلن تصير منصة فيسبوك الشركة التي هي عليه اليوم.

اليوم، تفقد منصة فيسبوك شعبيتها بين المراهقين والشباب، التي وصفها كثيرون منهم لي باعتبارها «وسائط التواصل الاجتماعي لكبار السن». فهم يفضلون على نحو عام إنستغرام وسناب شات. وعلى رغم ذلك، فإن جميع المنصات الثلاث تحركها مجموعة مماثلة من الأهداف. بينما تريد فيسبوك مني «الإعجاب» بصور صديقي القديم لأطفاله، طوَّر إنستغرام وسناب شات طرقًا أخرى لضمان إنشاء المستخدمين مزيدا من البيانات باستمرار. قدم سناب شات، على سبيل المثال، ميزة تسمى سلسلة متتالية من السناب snapstreaks في العام 2016. ويتحقق «سناب ستريك» ما، عندما ترسل لقطات مباشرة ذهابًا وإيابًا إلى صديق لمدة ثلاثة أيام على الأقل. وإذا أنجزت أنت وشخص آخر يتفاعل معك عبر «سنابات» هذه المهمة، فسيظهر رمز تعبيري يشبه اللهب بجوار أسمائنا الخاصة بنا لتأكيد أن لديك «سناب ستريكس». كما يظهر رقم بجوار رمز تعبيري للهب يذكرك بعدد الأيام التي استمر فيها اتصالك عبر «سناب ستريكس». إذا ظهر رمز تعبيري للساعة الرملية، فهذا تذكير كئيب ينذر بدنو انتهاء سلسلة السناب ستريكس[17]. بينما قد يبدو هذا تافهًا، بالنسبة إلى المراهقين، يمكن أن يكون ضغط الحفاظ على السلسلة قائمة أمرا مجهدا. أفادت الصحافية ماري تشوي Mary Choi، التي رافقت خمس فتيات مراهقات في عالم وسائط التواصل الاجتماعي، عبر استخدام منصة سناب شات: «لدى المراهقين الذين أتحدث إليهم في أي مكان من «ستريكين» إلى 12 «ستريك» في الوقت نفسه. وجميعهم يقول إن الأمر يبدو كأنه عمل روتيني، لكن يعد المستوى المثالي للتواصل مع شخص قد لا تشعر بأنك قريب منه بما يكفي للتفاعل معه عبر إرسال الرسائل النصية. معظم الرسائل عبارة عن صور غير محببة لوجوه مُقرَّبة، تتطلب بذل جهد مثل رمز من الرموز التعبيرية، ولكنها تبدو أقل عمومية للغاية... عمل «السنابات» لشخص ما، لتخبره أنك تفكر فيه، ولكن ربما ليس بهذه القوة»[18]. وعلى رغم ذلك، فإن بعض المراهقين يستثمرون على نحو كبير في الحفاظ على «سناب ستريكس». بينما كنت أكتب هذا الكتاب، سألت عديدا من المراهقين والمراهقات والشباب في سن الكلية عن سبب حفاظهم على «السناب ستريكات» القصيرة هذه. قال بعضهم إنها

كانت ببساطة طريقة سهلة للبقاء على اتصال بالأصدقاء والمعارف، بما في ذلك أولئك الذين قد لا يرغبون في إجراء محادثة فعلية معهم، لكن آخرين وصفوا عملياتهم بكونها «آثارا مرئية» أو «دليلا» على صداقاتهم وعلاقاتهم الرومانسية. من الواضح أن «سناب ستريكس» تغذي رغبة المراهقين القوية في أن يكونوا على اتصال مع أقرانهم على أساس دائم، ولكن أيضًا، وربما الأهم من ذلك، أنها تدعم «الاستمرارية» المطلوبة لأي شكل ناجح من أشكال الرأسمالية التواصلية.

تكلفة النسيان

إن النسيان الآن يأتي بتكلفة باهظة - ليس بالنسبة إلى الأفراد الذين كانوا يمتلكون ذكرياتهم الخاصة، بل إلى مجموعة متزايدة من الكيانات الخاصة التي تستثمر في ذاكرتنا، وفي رفضنا الجماعي للنسيان على نحو موسع. إذن، ما مستقبل النسيان في عالم يحمل فيه النسيان الآن عواقب اقتصادية كبيرة؟ ما الثمن الذي سيدفعه أطفال اليوم والشباب في نهاية المطاف؟

ما المشكلة؟

خلال فترة العمل على هذا الكتاب، أتيحت لي عديد من الفرص لتقديمه. وحيثما فعلت ذلك، سيسأل أحد أعضاء الجمهور على الأقل: «ألن نتكيف ببساطة؟ ألن تُحَلَّ هذه المشاكل من خلال تعديل التوقعات والسلوك مع مرور الوقت؟». غالبًا ما واجهت شعورًا قويًا بالتفاؤل بشأن المستقبل - توقعًا خياليًّا تقريبًا يفيد بأننا سنصبح أقل انشغالا بالبصمات الرقمية للآخرين، وأكثر حكمة بشأن ما نضعه على الإنترنت في المقام الأول.

قد يكون هذا صحيحًا. في العام أو العامين الماضيين أدى عدد من انتهاكات البيانات البارزة، والفضائح المتعلقة بإصدار بيانات خاصة، إلى تقليل بعض الأشخاص استخدامهم لوسائط التواصل الاجتماعي. وبعد الكشف عن سماح فيسبوك لشركة الاستشارات «كامبريدج أناليتيكا» Cambridge Analytica بالوصول إلى بيانات أكثر من 80 مليون مستخدم، على سبيل المثال، اختار الآلاف من المستخدمين حذف حساباتهم على فيسبوك[19]. وعلى رغم ذلك، فهل سيبقى جميع هؤلاء المستخدمين

على نحو دائم خارج المنصة، وهل ستؤدي هذه الاحتجاجات إلى تحول أوسع في كيفية تفاعل الأشخاص عبر الإنترنت، هذه أمور لم نشهدها حتى الآن. من الممكن أن تخفف شكوك المستهلكين المقترنة بمحو الأمية الإعلامية على نطاق واسع من بعض تأثيرات العيش في عالم تتراكم فيه البيانات بوتيرة أسرع بكثير مما كانت عليه في الماضي. لكن مازلت أواجه صعوبة في الاعتقاد بفرضية «المستقبل البديل». تتجاهل هذه النظرة المتفائلة تمامًا حقيقة استثمار الشركات الخاصة على نحو متزايد في حياتنا الخاصة، وفي البيانات التي ننتجها. للاحتفاظ – على الأقل – بشكل من أشكال النسيان، من المرجح أن يحتاج النسيان نفسه إلى من يضبطه، وتحقيق عائد من ورائه أو تسييله، واستخدامه لتوليد البيانات.

الدفع مقابل الحذف

إن إحدى الطرق التي يمكن من خلالها تحويل البيانات إلى نقود، تتم من خلال نموذج «الدفع مقابل الحذف» المشابه للنظام الذي تستخدمه بعض وكالات تحصيل الديون. في نظام الدفع مقابل الحذف يوافق محصل الديون على إزالة دين من استعلام ائتماني credit report الفرد بمقابل، وعادةً ما يُسدد دفعة واحدة. إن وكالات التحصيل مخوَّل لها حذف حسابات التحصيل من الاستعلام الائتماني عندما تتلقى المدفوعات، على الرغم من أن معظم مكاتب الائتمان مستاءة من هذه الترتيبات. يمكن أيضًا الدفع مقابل الحذف مع الدائنين الأصليين، ولكن على عكس وكالات التحصيل، ليس لدى هؤلاء الدائنين دافع كبير للانخراط في هذه الممارسة. تشتري معظم وكالات التحصيل الديون بخصم (على سبيل المثال، إذا كنت مدينًا بمبلغ 325 دولارًا لشركة الهاتف المحمول، فقد تشتري الوكالة الدين مقابل 225 دولارًا فقط، وتراهن على جني الأموال عن طريق استرداد الدين بالكامل). وكلما قلَّ عدد الموارد التي تنفقها الوكالة في مضايقتك لسداد ديونك، زاد معدل عائد الاستثمار، مما يوفر حافزًا لتقديم عروض الدفع مقابل الحذف[20].

يمكن إنشاء مثل هذا النظام في مناطق أخرى من الحياة التي يمكن فيها أن يتأثر المرء سلبًا بأنواع معينة من المعلومات المتبقية في التداول. كما يمكن للتاريخ الرقمي للشباب، على سبيل المثال، أن يضر بفرصهم في الالتحاق بالجامعة أو الحصول على

وظيفة. بينما يمكن الحفاظ على معدل تراكمي مرتفع، واجتياز امتحانات القبول، وتطوير مجموعة قوية من الأنشطة الموازية كانت كافية في السابق للالتحاق بمدرسة مرغوبة، في العصر الرقمي، يواجه الخريجون في المدارس الثانوية الآن عقبة أخرى – عقبة تاريخهم الرقمي. لقد كشفت دراستان حديثتان عن أن نحو ثلث مسؤولي القبول بالجامعات، بحثوا عن المتقدمين عبر الإنترنت، وفحص ما يصل إلى الثلثين صفحاتهم على فيسبوك. كما أفاد 30 إلى 40 في المائة بالعثور على مواد تركت انطباعًا سلبيًا[21]. وفي العام 2017 ذكَّر حادثٌ في جامعة هارفارد المتقدمين للكلية بالتأثير العميق الذي يمكن أن تحدثه سمعتهم الرقمية. وفي هذه القضية التي حظيت بتغطية إعلامية كبيرة، ألغت جامعة هارفارد العروض المقدمة لعشرة من طلاب المدارس الثانوية بعد أن أسهموا بـ «ميمات» مسيئة لمجموعة خاصة على فيسبوك للطلاب المقبولين[22].

يدرك عديد من المراهقين خضوعهم لمراقبة مسؤولي القبول في الكلية وأرباب العمل المستقبليين. وردا على ذلك، يعمد هؤلاء الشباب إلى «تجميع بيانات هويتهم عبر الإنترنت وتحريرها وتنظيمها»[23]. أما بالنسبة إلى أولئك الذين يحتاجون إلى المساعدة، فيضيف عدد متزايد من مستشاري البعثات الجامعية الآن خدمات بأسماء مثل «إدارة البصمة الافتراضية»، و«فحص البصمة الافتراضية وتنظيفها» إلى قائمة العروض المتاحة. ونادرًا ما تكون هذه الخدمات قادرة على حذف المخلفات الرقمية غير المرغوب فيها. وبدلا من ذلك فإنهم يساعدون المتقدمين في إنشاء مواقع ذات حركة مرور عالية – على سبيل المثال، صفحات «لينكدإن» LinkedIn المنسقة بعناية – التي تميل إلى احتلال مرتبة عالية في عمليات البحث عبر الإنترنت. وعلى رغم ذلك، فمن الممكن في المستقبل أن تظهر فئة جديدة من الوسطاء للمساعدة في التفاوض على عمليات الحذف – على غرار خيار الدفع مقابل الحذف لتاريخ الائتمان – لتعقيم السمعة الرقمية للشباب. وسيستفيد كل من الوالدين والأبناء الذين لديهم وسيلة لشراء مثل هذه الخدمات. أما بالنسبة إلى أولئك الذين لا يستطيعون تحمل مثل هذه الخدمات، فمن المرجح أن يخلق عقبة أخرى للتغلب عليها في الطريق إلى التعليم العالي.

الحذف عبر تبادل البيانات

غالبًا ما رُحِّب بمنصات التواصل الاجتماعي باعتبارها منصات تقدم الديموقراطية على أساس تمتعها بالحرية. بالطبع، لا يمكننا اعتبارها «مجانية» إلا إذا أغفلنا قدرتها على إشراكنا جميعًا في أنشطة توليد البيانات بالمجان. تلتقط الرأسمالية التواصلية القيمة من الأشياء التي كانت غير ملموسة في السابق، بما في ذلك حنيننا (على سبيل المثال، من خلال مواقع الأنساب، من قبيل Ancestry.com) والرومانسية (على سبيل المثال، من خلال مواقع المواعدة، مثل OkCupid)، ولكن إذا كان هذا هو الحال، فلماذا لا يمكن لهذا الاقتصاد الجديد أن يأخذ قيمة انطلاقا من رغبتنا في النسيان ورغبتنا في أن نُنسى؟

في بعض النواحي توجد بالفعل محاولات لفعل ذلك. نظرًا إلى أن أي شخص ألغى تفعيل حسابه على فيسبوك، أو أي حساب آخر على وسائط التواصل الاجتماعي، يعرف مسبقا، أنه لإتمام العملية، يجب على الشخص أولا الرد على استبيان ما. نتيجة لذلك، تولد عملية التعطيل نفسها بيانات مهمة يمكن تشغيلها لتحسين أداء المنصة التي يُتَخلّى عنها. لكن هذا حدث مرة واحدة. هل يمكن أن تصبح القدرة على إلغاء تنشيط أو حذف بعض تفاصيل معينة من البيانات عملية قائمة مستمرة في الحصول على القيمة بمرور الوقت؟ هذا ليس بأي حال من الأحوال سيناريو مستقبليا لا يمكن تصوره.

يمكن العثور على جزء من «استمرارية» نزع ملكية بياناتنا، كما تشير جودي دين Jodi Dean إلى ذلك، في الطلبات المستمرة لتحديث معلوماتنا الشخصية (على سبيل المثال، عن طريق الموافقة على التغييرات في سياسة خصوصية «آبل» أو عن طريق التحديث المستمر لكلمات المرور الخاصة بنا). ظاهريًا، تصب هذه المطالب في مصلحتنا (لتزويدنا بالمعلومات، أو لجعل حساباتنا أكثر أمانًا)، لكنها لحظات لتوليد البيانات في الوقت نفسه. يمكن للمرء أن يتخيل بسهولة سيناريو من السيناريوهات، قد يُحتَفظ فيه بأنواع معينة من الاختفاء الرقمي – على سبيل المثال، إلغاء تفعيل حساب وسائط التواصل الاجتماعي أو محو تعليق تُرِك على موقع في الإنترنت – فترةً محددة فقط، وبعد ذلك يتعين على المرء تجديد الطلب.

مثل هذا النظام سوف ينطوي على بعض المقايضات. إذا أراد طالب في المدرسة الثانوية بشدة حذف صورة نهائيًا من منصة معينة لأنها قد تضر بآفاق القبول في الكلية، في ظل هذا السيناريو، يمكن للطالب طلب الحذف، ولكن في المقابل، سيتعين عليه تقديم أنواع أخرى من البيانات الشخصية – وهي عملية يمكن نظريًا أن تكون لأجل غير مسمى. وبدلا من سيناريو الدفع مقابل الحذف، حيث يدفع المرء لطرف ثالث لحذف ما يريد حذفه أو على الأقل إدارة البصمة الرقمية للفرد (على سبيل المثال، عن طريق إنشاء مواقع إنترنت ذات حركة مرور عالية تنقل المعلومات المدانة إلى أبعد الحدود في أي بحث)، فإن صاحب البيانات قد يكون قادرا على الحصول على حذف رقمي من خلال التبادل المستمر للبيانات. على سبيل المثال، قد يوافق المرء على تقاسم بيانات معينة عن نفسه على نحو دائم (على سبيل المثال، بيانات جهاز تحديد المواقع GPS من هاتف محمول ما) مع وسيط، قد يوافق على دفع مبلغ لمالك المجال أو لكيان آخر لحذف المعلومات التي تدين هذا الفرد، مثل صورة محرجة ما أو مسألة ذكرها في منشور عبر الإنترنت. ويمكن للوسيط نظريًا أن يعرض على مالك المجال بضع مئات أو بضعة آلاف من الدولارات لحذف الصورة المعنية أو حذف ذكرها، وسيدفع صاحب البيانات للوسيط من خلال تقاسم بيانات جهاز تحديد المواقع الشخصية الخاصة به ليس مرة واحدة فقط، ولكن لسنوات بعد ذلك، أو حتى مدى الحياة. سيستفيد الوسيط من خلال قدرته على بيع البيانات (وبيانات الآلاف من الزبائن الآخرين) للشركات التي تجمع البيانات وتدمجها وتنقب فيها لتطوير منتجات أو خدمات جديدة.

التعفف الرقمي

يعد التعفف الرقمي من الحلول النهائية المحتملة لمشكلة البصمة الرقمية المستمرة[24]. من الناحية النظرية يمكن لأي شخص اختيار عدم وجود أي حضور له في وسائط التواصل الاجتماعي على الإطلاق، ومن ثم لا ينشئ صفحة شخصية رقمية. لسوء الحظ، هذا الحل الواضح إلى حد ما، معيب أيضا بطبيعته. ومن ناحية، يمكن للبصمة الرقمية التي يخلقها المراهق في أثناء نموه أن تؤثر سلبًا في كليتهم وفرص العمل. ومن ناحية أخرى، ونظرًا إلى أن الجميع من مستشاري

القبول بالجامعة إلى أرباب العمل المستقبليين ينظرون إلى – وفي كثير من الحالات يبحثون عن - بصمتهم الرقمية، فإن خيار الانسحاب ببساطة ليس حلا. في عالم يكون فيه الحضور عبر الإنترنت أمرًا ذا قيمة عالية، وغالبًا ما يُستخدم باعتباره وسيلة للتحقق من الادعاءات المقدمة في سياقات أخرى، مثل المقابلات، فإن السعي إلى التعفف الرقمي سيكون له ثمن باهظ. وقد يكون عدم وجود بصمة رقمية أمرا ضارًا مثله مثل وجود بصمة ترسم صورة غير جذابة. ببساطة، إن التعفف الرقمي التام ليس حلا قابلا للتطبيق.

على مدار أكثر من عقدين من البحث بشأن تأثيرات منصات الوسائط الرقمية، أصبحت أقدر حقيقة أنه كلما قُدِّمت منصة جديدة، تنشأ حتمًا مخاوف بشأن تأثيرها في حياة الشباب. لقد أدركت أيضًا أن التأثيرات الفعلية غالبًا ما تكون مختلفة على نحو مفاجئ عما توقعه الناس. في منتصف التسعينيات، عندما كانت شبكة الإنترنت تصل أول مرة إلى عديد من المنازل العائلية، ذكَّر هنري جينكينز Henry Jenkins المعلمين وأولياء الأمور وواضعي السياسات بأنه «لا يمكننا تعليم الأطفال كيفية الانخراط في التفكير النقدي من خلال حرمانهم من الوصول إلى المعلومات الصعبة والصور الاستفزازية»[25]. ويصدق الشيء نفسه على الفترة الراهنة؛ إذ من غير المحتمل أن تكون عملية تقييد وصول الأطفال إلى منصات الوسائط الجديدة خطوة مفيدة للأطفال أو حتى للبالغين.

بدلاً من اعتبار النسيان الرقمي مشكلة طفل أو مراهق، أقترح أن نعتبرها مشكلة مجتمعية أوسع تؤثر في الشباب بطرق فريدة وعميقة. سيتأثر الشباب على نحو خاص بتراجع النسيان ليس لكونهم مستهلكين للوسائط الرقمية، بل لأنهم منتجون للوسائط الرقمية. ركَّزت حالات الهلع السابقة بشأن الوسائط الجديدة، مثل السينما والتلفزيون، على حقيقة أن الأطفال كانوا متلقين سلبيين للرسائل التي تنقلها هذه الوسائط، غير أن ذلك لم يكن صحيحًا بالكامل، وليس صحيحًا اليوم بكل تأكيد.

إن الأطفال والمراهقين يتعرضون لكثير من المخاطر في المناقشات الحالية بشأن النسيان على وجه التحديد، لأنهم يضطلعون بدور رئيس في الاقتصاد الرقمي المعاصر باعتبارهم مستهلكين ومنتجين. ولكن على عكس منتجي وسائل الإعلام

البالغين، لايزال الأطفال مهمشين بطريقة واحدة لافتة للنظر على الأقل: لا يمكنهم فتح حساب «غوغل أدسانس» Google AdSense، وكسب المال من آراء زوارهم، ونقراتهم[26]. لقد أصبح الشباب منتجين إعلاميين مشاركين على نحو كامل، لكن مع استثناءات قليلة، مازالوا لا يمتلكون وسائل الإنتاج. إنهم جزء لا يتجزأ من توليد البيانات، وهو بالضبط ما يشكل دافعا للاقتصاد الرقمي. كما تقوم قيمة عديد من الشركات، وخاصة منصتي الوسائط الاجتماعية مثل سناب شات وإنستغرام إلى حد كبير على العمالة الرقمية المجانية للمستخدمين، الذين يعد كثير منهم منقبين. ولكن قدرة هؤلاء الشباب على الاستفادة على نحو مباشر من الاقتصاد الرقمي مقيدة بشدة على أساس أعمارهم فقط.

خاتمة

النسيان والحرية والبيانات

إلى عهد قريب، كان من الممكن أن ننأى بأنفسنا عن أكثر الأجزاء إحراجًا وإيلامًا في طفولتنا ومراهقتنا؛ بل إن أجهزة الوسائط الشخصية في القرن العشرين ذاتها، من كاميرات «بولارويد» إلى كاميرات الفيديو، لم تهدد إلا بالنزر اليسير قدرتنا على نقل ذكريات مختارة فقط من ذكريات شبابنا. تتلاشى الصور، وتتقادم التنسيقات، ويمكن محو معظم أشكال الوسائط التناظرية أو إتلافها. والآن، بعد عقدين من عصر الإعلام الرقمي، أصبحت القدرة على ترك طفولتنا وسنوات المراهقة وراء ظهورنا، وجعل الآخرين ينسون ذاتنا الصغيرة، في خطر شديد – ولكن ليس لأننا فقدنا الرغبة في أن ينساها الآخرون في بعض الأحيان.

أدت مجموعة من التغييرات التكنولوجية والاقتصادية إلى تعريض الناسي والمنسي للخطر.

«تلاحظ الصحافية «نانسي جو سيلز» أنه: كلما زاد عدد المستخدمين النشطين، تمكنت شركات التواصل الاجتماعي من جمع مزيد من البيانات المتعلقة بهم، وزاد تقييمهم لها، ومن ثم أمكنهم بيعها لشركات أخرى».

بالنسبة إلى الشباب، كانت هناك أيضًا سلسلة من المقايضات عالية المخاطر. وقد حقق الأطفال والمراهقون أخيرًا شيئًا لم يكن من الممكن الحصول عليه سابقًا: القدرة على تمثيل حياتهم من منظورهم الخاص وتقاسم هذه التمثلات مع العائلة والأصدقاء، أو مع ملايين الغرباء. ولم يكن لدى الشباب في أي فترة تاريخية أخرى القدر نفسه من القوة لتمثيل الذات وتوزيع المعلومات. ولكن لم تتحقق هذه الحرية – التي بدأت الآن في الظهور على نحو كامل – من دون مقابل.

وإلى وقت قريب، كان الأطفال والمراهقون يفتقرون إلى الوصول الواسع إلى تقنيات صنع الصور والبث، لأن هذه التقنيات كانت إما باهظة الثمن وإما يصعب استخدامها. علاوة على ذلك، حتى لو كان الطفل أو المراهق قادرًا على شراء كاميرا «براوني» أو «بولارويد»، وكان قادرًا على أن يصبح مصورًا فوتوغرافيًا خبيرًا، فإن تكاليف التحميض (أي تظهير الأفلام)، والنسخ، والتوزيع تظل باهظة. لجعل تقنيات وسائل الإعلام وقنوات التوزيع متاحة على نطاق واسع، حتى للأطفال والمراهقين، يجب أن تتغير البنية الاقتصادية بأكملها للإنتاج الإعلامي، وهذا بالضبط ما حدث منذ أواخر التسعينيات.

وإلى حدود الساعة، حققت شركات التكنولوجيا إيرادات على نحو أساسي، من خلال تطوير الأجهزة (مثل الكاميرات) والخدمات (على سبيل المثال، معالجة الأفلام) وبيعها أو – في حالة أجهزة الحاسوب – عن طريق بيع منتجات الأجهزة والبرمجيات. وفي الفترة الراهنة، تحقق مزيد من الشركات إيرادات إما جزئيًا وإما فقط من أرباح البيانات التي ينتجها المستخدمون ببساطة عن طريق الاتصال بالإنترنت[1]. بينما يفتقر معظم الأطفال والمراهقين إلى الموارد اللازمة لشراء هواتف محمولة جديدة أو أجهزة أخرى باهظة الثمن بانتظام، يملكون في الوقت ذاته شيئين لا يملكهما كثير من البالغين؛ ويتعلق كلاهما بالموارد التي تتوق شركات التكنولوجيا إلى استغلالها: الوقت، والرغبة الشديدة في البقاء على اتصال دائم مع أقرانهم.

من الطبيعي أن يبحث المراهقون عن دور لهم في المجتمع، وهو البحث الذي يدفعهم إلى تكوين روابط عميقة مع مجموعتهم الاجتماعية[2]. تشير الأدلة القطعية إلى أن المراهقين يتوقون بشدة إلى إثبات هوية اجتماعية وتحقُّقِها. نحن نعيش الآن في عصر يمكن فيه ضبط هذه الرغبة الجامحة في الترابط والتحقق المستمر

وتسليعها. هذه الرغبة، التي دفعت المراهقين ذات مرة إلى التحدث على الهاتف على مدى ساعات أو التسكع في المركز التجاري مع أصدقائهم، تدفع الآن المراهقين إلى الاتصال عبر الإنترنت، ومن ثم الانخراط في أنشطة توليد البيانات، مما يعني أن شركات التكنولوجيا لديها سبب وجيه لوضع مجموعة كاملة من تقنيات الاتصال في أيدي الشباب، وللتأكد من أنهم يستخدمون هذه التقنيات كلما كان ذلك ممكنا. تلاحظ الصحافية نانسي جو سيلز Nancy Jo Sales أنه: «كلما زاد عدد المستخدمين النشطين، تمكنت شركات التواصل الاجتماعي من جمع مزيد من البيانات المتعلقة بهم، وزاد تقييمهم لها، ومن ثم أمكنهم بيعها لشركات أخرى»[3].

بينما استفاد الأطفال والمراهقون من قدرتهم المكتشفة حديثًا على التعبير عن أنفسهم، فإنهم يدفعون فعليا وسيواصلون دفع ثمن السيطرة التي اكتسبوها على الأدوات اللازمة لتمثيل الذات وبث النصوص والصور التي صنعوها بأيديهم. هذه الخسائر اجتماعية ونفسية على حد السواء، وقد تتخذ في النهاية أشكالًا أخرى.

أولاً، نظرًا إلى أن مزيدا من حياة الشباب تحدث في فضاءات افتراضية (ومع تسجيل مزيد من الأحداث التي تحدث شخصيًّا في وقت واحد وإعادة تداولها عبر الإنترنت)، فإن القدرة على تحمل مخاطر المراهقين العادية تواجه عقبات جديدة. إن اللحظات الحمقاء أو المحرجة، التي هي ببساطة جزء من النمو، تحمل عواقب لم تكن تحملها في الماضي. لقد تآكل المُوراتُوريُوم النفسي والاجتماعي - الذي كان يمنح في السابق بعض المراهقين على الأقل تصريحًا مؤقتًا يجنبهم المعاناة من عواقب أفعالهم.

إن الشباب لا يفقدون فقط بعضًا من قدرتهم على استكشاف هويات جديدة وتجربتها من دون عواقب؛ بل هم بصدد فقدان أيضًا القدرة على تحرير ذكريات طفولتهم ورعايتها وفق ما يشير إلى ذلك سجل سنواتهم الأولى. إن ذكريات الطفولة، وفقًا لفرويد، ليست ذكريات حقيقية، بل هي «ذكريات مقنعة» - أي تفاصيل ذكريات عُدِّلت من خلال تجارب حياتنا اللاحقة. ونحن نشق طريقنا نحو عصر يجري فيه «التحقق من حقائق» ذكريات الطفولة على نحو متزايد، إذا جاز التعبير، من خلال كتلة متزايدة باستمرار من البيانات القابلة للبحث، فهل سيقدر لهذه الذكريات المقنعة أن تبقى على قيد الحياة؟ هل هذا ثمن آخر غير ملموس ندفعه

للحصول على وصول أكبر إلى تقنيات الوسائط التي تتيح لنا صنع الصور ونشرها؟ إذا كان الأمر كذلك، فسيخسر بعض الأطفال والمراهقين أكثر بكثير من غيرهم، خاصة أولئك الذين يرغبون في نسيان الصدمات أو الأحداث المخزية في ماضيهم.

تتعلق المقايضة الثالثة بالتنقل: أي القدرة على الطيران، ومغادرة المنزل، والمضي قدمًا. في الماضي، إذا كان شخص ما قد تجاوز حجم شبكته الاجتماعية، فيمكنه ببساطة التوقف عن الرد على المكالمات الهاتفية، وقطع الاتصال عن الأشخاص في هذه الشبكة. في أوائل القرن الحادي والعشرين، لم يعد انسحاب المرء من شبكةٍ اجتماعيةٍ ما مهمةً سهلة. بمعنى ما، نحن نحمل الآن شبكاتنا الاجتماعية معنا أينماً ذهبنا. بالإضافة إلى ذلك، أصبحت المعلومات التي كانت موجودة في ألبومات الصور والأدراج غير المرغوب فيها الآن متصلة بالشبكة، وأُشير إليها بتقاسمها مع أشخاص آخرين. في الماضي، إذا دمرت صورة فوتوغرافية، فمن المحتمل أنك لن تراها مرة أخرى أبدًا، حتى إن صادف أن كانت بحوزة صديق قديم نسخة مطابقة أخرى في دُرجه. حاليا، يمكن أن تتربص بنا الصور القديمة التي في حوزة أشخاص آخرين، مثل نسخ بالمسح الضوئي لصفحات الكتاب السنوي للمدارس الثانوية، في الوقت الحاضر سواء أرحبنا بهذه العمليات التطفلية من الماضي أم لم نرحب بها. وسواء اخترنا البقاء في المنزل أو اخترنا مغادرته، وسواء اخترنا البقاء على اتصال مع أشخاص من الماضي أو اخترنا القطع معهم، يمكن للماضي الآن أن يتسلل بسهولة أكبر إلى الحاضر؛ فلا الفضاء ولا الوقت يشكلان حاجزا كبيرا.

سيخسر بعض الأطفال والمراهقين أكثر من البالغين، على الرغم من أن المقايضات الموصوفة هنا ستؤثر في الجميع. بالإضافة إلى ذلك، يعد الشباب أقل تجهيزًا من الكبار لإدارة صراع حقهم في النسيان وحقهم في أن يُنسوا. إذا تطور نظام تتطلب فيه القدرة على الاختفاء الرقمي نوعًا من التبادل المباشر للأموال – كما هو وكما تُوقِّع ذلك في الفصل الخامس – فإن الشباب، المهمشين اقتصاديًّا، سيكونون أقل قدرة على الوصول إليه. سيحتاجون إلى الاعتماد على حُسن نية والديهم وحُسن تقديرهم للمساعدة في تمويل طلبات الحذف هذه. وعلى رغم ذلك، من الممكن أيضًا أن يدفع الآباء مقابل حذف جوانب معينة من هوية أطفالهم عبر الإنترنت ضد رغبات أطفالهم، على سبيل المثال. إذا اتخذ الاختفاء الرقمي شكلا مختلفًا، وكان

علينا توفير مزيد من البيانات لتأمين حذف البيانات الموجودة، وغير المرغوب فيها، فقد يكون لدى الشباب أيضًا ما يخسرونه أكثر من البالغين. قد يجدون أنفسهم عالقين في حلقة لامتناهية، وهم يعانون ضغط تقاسم البيانات وتوليدها لإدارة بصماتهم الرقمية الصعبة للغاية. كلما كان الشخص أصغر سنًا عندما يدخل في مثل هذا الترتيب، كانت إدارة موضوع/ أصحاب البيانات data subject أكثر تعقيدًا وصعوبة.

إن النسيان، كما رأينا عبر هذا الكتاب، ليس ظاهرة سلبية بالكامل؛ في الواقع، بل هو ضرورة في بعض الأحيان. وللنسيان وظيفة على الرغم من سمعته السيئة؛ فهو يمكن أن يساعد المرء على المجازفة، واستكشاف هويات جديدة، واحتضان أفكار جديدة؛ كما يمكن أن يساعده على النمو. ويمكن أن يكون النسيان سندا مناسبا للتغلب على صراع الخجل أو دواء سحريا لصدمة شديدة. أن تنسى وأن ينساك الآخرون بهذا المعنى هما عمليتان مرادفتان للحرية. إن عدم تقيُّد المرء بذكريات ماضيه – أو بما هو أسوأ من ذلك، بأن يُذَكَّرَ انطلاقا من ذكريات شخص آخر – هو أن تتمتع بحرية إعادة تخيل الذات في الحاضر والمستقبل. ولأن النسيان والحرية مرتبطان بخاصة، فإن لنهاية النسيان نتيجة عظيمة، خاصة بالنسبة إلى الشباب.

الهوامش

Withe

تصدير المترجم

(1) https://www.theguardian.com/us-news/2014/dec/03/sasha-and-malia-obama-why-criticising-the-first-children-is-off-limits

[المترجم].

(2) يُستَمد تصور الموراتوريوم من نظرية النمو النفسي التي يقول بها إريك إريكسون، إذ تقوم هذه النظرية بوصف عملية الأطفال الصغار وهم يحاولون العثور على هويات جديدة لهم بالتزامن مع تقدمهم في السن. [المترجم].

المقدمة

(1) أفادت دراسة أجرتها غوغل في العام 2016، لُخِّصت في مدونة الشركة في الذكرى السنوية الأولى لإصدار صور غوغل، بأن 200 مليون مستخدم لصور غوغل حمَّلوا 24 مليار صورة شخصية في فترة الاثني عشر شهرًا السابقة.

(https://www.blog.google/products/photos/google-photos-one-year-200 -million/).

وعلى رغم ذلك، فإن العثور على بيانات دقيقة عن عدد الصور الشخصية التي التقطتها الفئة العمرية، يعد أكثر صعوبة. وجدت دراسة واحدة على الأقل أن الشباب، وخاصة الشابات، يأخذون وينشرون مزيدا من صور السيلفي. راجع تحقيق السيلفيسيتي SelfieCity، وهو مشروع واسع النطاق، جمع بيانات بشأن عدد الصور الشخصية ونوعها التي التُقِطت في خمس مدن رئيسة في جميع أنحاء العالم.

http://selfiecity.net.

(2) Danielle Wiener-Browner, "Narcissistic Babies Can't Stop Taking Selfies," Atlantic, Jan. 28, 2014.

(3) John Schwartz, "Caution: Children at Play on the Information Highway," Washington Post, Nov. 28, 1993, A01.

(4) U.S. Department of Health and Human Services, Physical Activity and Health: A Report of Health of the Surgeon General (Atlanta: U.S. Department of Health and Human Services, Centers for Disease Control and Prevention, National Center for Chronic Disease Prevention and Health Promotion, 1996); J. O. Hill and J. C. Peter, "Environmental Contributions to the Obesity Epidemic," Science 280 (1998): 1371–1374; R. Kraut, M. Patterson, V. Lundmark, et al., "Internet Paradox: A Social Technology That Reduces Social Involvement and Psychological Well-being?" American Psychologist 53 (1998): 1017–1031; Kaveri Subrahmanyam, Robert E. Kraut, Patricia M. Greenfield, and Elisheva F. Gross, "The Impact of Home Computer Use on Children's Activities and Development," Children and Computer Technology 10, no. 2 (2000): 123–144.

(5) Schwartz, "Caution."

(6) Telecommunications Act of 1996, S.652, 104th Cong. (1996).

(7) Henry Jenkins, "Empowering Children in the Digital Age: Towards a Radical Media Pedagogy," Radical Teacher no. 50 (Spring 1997): 30–35.

(8) Neil Postman, the Disappearance of Childhood (New York: Delacorte Press, 1982), 85.

(9) وقد طرح علماء آخرون النقطة نفسها. رأى فيليب أرييس Philippe Ariès أنه بعد اختراع الحرف المتحرك، نُقل الأطفال فعليًا من عالم الكبار الذي كان لديهم إمكانية الوصول إليه من قبل، ثم وُضعوا في المدارس، حيث جُرِّدوا من إرادتهم.

Ariès, Centuries of Childhood: A Social History of Family Life, trans. Robert Baldick (New York: Vintage, 1962), 413.

كتبت إليزابيث آيزنشتاين Elizabeth Eisenstein، بناءً على هذا الادعاء: «بقدر ما أدت الطباعة إلى أشكال جديدة من التقدم المعرفي التراكمي والتغيير التدريجي، فقد وسعت أيضًا الفجوة بين الثقافات المتعلمة والثقافات الشفهية بطريقة تضع الكبار الذين يقرأون جيدًا على مسافة متزايدة من الطفل الصغير غير المتعلم».

Eisenstein, the Printing Press as an Agent of Change: Communications and Cultural Transformations in Early Modern Europe (Cambridge: Cambridge University Press, 1979), 432.

(10) Ariès, Centuries of Childhood, 150–151; Teresa Michals, Books for Children, Books for Adults: Age and the Novel from Defoe to James (Cambridge: Cambridge University Press, 2014), 36.

(11) Postman, the Disappearance of Childhood,

(12) المرجع نفسه، ص149-150.

(13) Hirsch, "The Generation of Postmemory," Poetics Today 29, no. 1 (2008): 103–128.

تربط المؤرخة ماريان هيرش Marianne Hirsch مثل هذا الشوق بـ «ما بعد الجيل» – أي أطفال نجوا من الهولوكوست، الذين نُظِّمت طفولتهم من قبل الأبورياس aporias التي غالبًا ما تصاحب الإجهاد اللاحق للصدمة.

Hirsch, "The Generation of Postmemory," Poetics Today 29, no. 1 (2008): 103–128.

(14) ترى «هيرش» في «جيل ما بعد الذاكرة» The Generation of Postmemory أن التصوير الفوتوغرافي أدى دورًا كبيرا في تجربة أطفال ما بعد جيل الهولوكوست. وتشير إلى أن تقنية التصوير الفوتوغرافي، التي تعد بالوصول إلى الأحداث التي لم يشهدها أحد على نحوٍ مباشر، كانت بمنزلة جسر بين جيل الهولوكوست والجيل الذي تلاه.

(15) Julia Creet, "The Archive as Temporary Abode," in Memory and Migration: Multidisciplinary Approaches to Memory Studies, ed. Julia Creet and Andreas Kitzmann (Toronto: University of Toronto Press, 2011), 280–298.

(16) منذ الثمانينيات من القرن الماضي، حوّل الألمان، وبدرجة أقل، الأشخاص من أصل ألماني في جميع أنحاء العالم انتباههم إلى التعامل مع علاقات آبائهم وأجدادهم بالحزب النازي. ويستخدم بعض الألمان كوكبة الأسرة Familienaufstellung، وهو شكل من

أشكال العلاج الجماعي، للتعبير عن تورط عائلاتهم في الهولوكوست.
Burkhard Bilger, “Where Germans Make Peace with Their Dead,” New Yorker, Sept. 12, 2017.

(17) Hirsh, “The Generation of Postmemory”.

(18) في هذا الكتاب، تشير «دراسات الذاكرة» إلى المجال الحديث نسبيًا الذي نشأ في العلوم الاجتماعية والإنسانية منذ التسعينيات. ويهتم هذا المجال إلى حد كبير بالذاكرة الجماعية بدلاً من الذاكرة الفردية، التي تعد المحور الأساسي للحقل الأكثر رسوخًا لدراسات الذاكرة التجريبية القائمة على العلوم التطبيقية. كما تتضمن دراسات الذاكرة في العلوم الاجتماعية والإنسانية أخلاقيات وسياسات محددة. في العدد الافتتاحي من دراسات الذاكرة في العام 2008، أكدت سوزانا رادستون Susannah Radstone أن أبحاث الذاكرة «تدخل في صميم عديد من القضايا في طليعة النقاش والنضال السياسيين المعاصرين» لدرجة أنها معنية بالوجود المستمر للماضي في الحاضر.
Radstone, “Memory Studies: For and Against,” Memory Studies 1, no. 1 (2008): 31–39.

(19) للحصول على نظرة عامة على هذا العمل، انظر:
Jeffrey K. Olick, the Sins of the Fathers: Germany, Memory, Method (Chicago: University of Chicago Press, 2016).

(20) Paul Ricoeur, Memory, History, Forgetting, trans. Kathleen Blamey and David Pellauer (Chicago: University of Chicago Press, 2004), 413.

(21) يجب أن أشير إلى أنه في حين أن النسيان يحمل في الأغلب دلالة سلبية في دراسات الذاكرة في العلوم الاجتماعية والإنسانية (بسبب تركيز المجال على الصدمات الجماعية والأفعال التعويضية)، فإنه غالبًا ما يُنظر إليه من منظور إيجابي في علم النفس التجريبي. للاطلاع على وجهات نظر النسيان باعتبارها وظيفة ضرورية ومفيدة، انظر:
Benjamin C. Storm, “The Benefit of Forgetting in Thinking and Remembering,” Current Directions in Psychological Science 20, no. 5 (2011): 291–295; Michael C. Anderson and Simon Hanslmayr, “Neural Mechanisms of Motivated Forgetting,” Trends in Cognitive Psychology 18, no. 6 (2014): 279–292; Blake A. Richards and Paul W. Frankland, “The Persistence and Transciences of Memory,” Neuron 94, no. 6 (2017): 1071–1084.

(22) Shoshana Felman and Dori Laub, Testimony: Crises of Witnessing in Literature, Psychoanalysis, and History (New York: Routledge, 1992), 67.

(23) المرجع نفسه: 122-123.

(24) Matthew Brunwasser, “A 21st-Century Migrant’s Essentials: Food, Shelter, Smartphone,” New York Times, Aug. 25, 2015, A1.

(25) عرضت سلسلة نُشرت في صحيفة «نيويورك تايمز» New York Times في العام 2016 قصصًا عن الوافدين السوريين الجدد إلى كندا، إذ كشفت عن زوجين كانا مرتبطين بحياتهما السابقة لدرجة عدم قدرتهما، في بعض الأحيان، على النوم أو أداء مهمات أساسية – ليس بسبب الصدمة، ولكن بسبب الوجود الرقمي للأشخاص الذين أُجبروا على تركهم وراءهم.

Jodi Kantor and Catrin Einhorn, "What Does It Mean to Help One Family?" New York Times, Sept. 8, 2016.

(26) arbie Zelizer, Remembering to Forget: Holocaust Memory through the Camera's Eye (Chicago: University of Chicago Press, 1998).

(27) Maggie Schauer, Frank Neuner, and Thomas Elbert, Narrative Exposure Therapy: A Short-Term Treatment for Traumatic Stress Disorders, 2nd ed. (Cambridge, MA: Hogrefe Publishing, 2011).

(28) Sigmund Freud, "Remembering, Repeating and Working-Through," in the Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud, vol. 12, ed. J. Strachey (London: Hogarth Press, 1994), 151.

(29) Jorge Luis Borges, "Funes the Memorious," in Labyrinths: Selected Stories and Other Writings (New York: New Directions, 1964), 63–64.

(30) Sigmund Freud, "Childhood and Concealing Memories," in Psychopathology of Everyday Life, trans. A. A. Brill (New York: Macmillan, 1915), 63.

(31) إن مفهوم «فرويد» عن القمع لايزال غير مقبول عالميًّا، على الرغم من القبول الواسع التي حظيت به نظرياته في بعض التخصصات. في مقال صدر في العام 2006 عن القمع، أشار ماثيو إرديلي Matthew Erdelyi إلى أن علماء النفس العلميين غير متأكدين مما إذا كان القمع «حقيقة واضحة من حقائق الحياة العقلية أو أسطورة صريحة (وخطيرة)». كما يؤكد إرديلي نفسه أن القمع حقيقة، مشيرًا إلى أن الدراسات المختبرية والسريرية، قد عثرت على دليل يفيد بتجاهل الناس بعض الذكريات في أثناء تفصيلهم في ذكريات أخرى، ويفعلون ذلك لمجموعة من الأسباب.

Matthew Hugh Erdelyi, "The Unified Theory of Repression," Behavioral and Brain Science 29, no. 5 (2006): 499–511.

وقد ظهر مقالان ينتقدان عمل إرديلي في العدد نفسه من المجلة؛ انظر:

Simon Boag, "Can Repression Become a Conscious Process?" and Harlene Hayne, Maryanne Garry, and Elizabeth F. Loftus, "On the Continuing Lack of Scientific Evidence for Repression," Behavioral and Brain Science 29, no. 5 (2006): 513–514, and 521–522.

For a more extended argument against the concept of repression, see

ومن أجل الاستزادة بخصوص الحجج المقدمة ضد مفهوم القمع، انظر:

Lawrence Patihis, Scott O. Lilienfeld, Lavina Y. Ho, and Elizabeth F. Loftus, "Unconscious Repressed Memory Is Scientifically Questionable," Psychological Science, 25, no. 10 (2014): 1967–1968.

(32) Donna J. Bridge and Joel L. Voss, "Hippocampal Binding of Novel Information with Dominant Memory Traces Can Support Both Memory Stability and Change," Journal of Neuroscience 34 no. 6 (2014): 2203–2213.

(33) Freud, "Childhood and Concealing Memories," 64.

(34) ثمة أدلة متزايدة على أن فقدان ذاكرة الطفولة يحدث في جميع المجموعات الديموغرافية. على سبيل المثال، حققت دراسة أجريت في العام 2005 في ذكريات موضوعات بحثية، تتراوح أعمارهم بين ستة أعوام وتسعة عشر عامًا. لقد كانت هناك اختلافات قليلة في البنية والتوجه الاجتماعي (على سبيل المثال، ما إذا كانت الذاكرة فردية أم ذاكرة من تجربة مشاركين آخرين)، أو طبيعة الأحداث التي استُرجعت، على الرغم من قدرة الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ستة وتسعة أعوام على تذكر الأحداث التي وقعت قبل عشرة أعوام إلى تسعة عشر عامًا.

Carole Peterson, Valerie V. Grant, and Lesley D. Boland, "Childhood Amnesia in Children and Adolescents: Their Earliest Memories," Memory 13, no. 6 (2005): 622–637.

(35) Arnold van Gennep, The Rites of Passage, trans. Monika B. Vizedom and Gabrielle L. Caffee (New York: Routledge, 2004), 81.

(36) European Commission, Factsheet on the "Right to be Forgotten" Ruling (C-131 / 12), https://www.inforights.im/media/1186/cl_eu_commission _factsheet_right_to_be-forgotten.pdf.

من المدهش إلى حد ما، عدم وجود الكثير من المؤلفات بشأن النسيان رقميًّا بخلاف المؤلفات القانونية الموسعة التي نُشرت، خاصةً استجابةً للائحة حماية البيانات العامة للاتحاد الأوروبي، التي تتضمن لغة لحماية «حق المواطنين في النسيان». للاطلاع على أفضل عرض شامل للنسيان الرقمي، راجع:

Viktor Mayer-Schönberger, Delete: The Virtue of Forgetting in a Digital Era, paperback ed. (Princeton: Princeton University Press, 2011).

الفصل الأول

(1) Philippe Ariès, Centuries of Childhood: A Social History of Family Life, trans. Robert Baldick (New York: Vintage, 1962); Jenifer Neils and John H. Oakley, Coming of Age in Ancient Greece: Images of Childhood from the Classical Past (Hanover, NH: Hood Museum of Art, 2003).

(2) لاحظ فيليب أرييه Philippe Ariès أن الصور العائلية، لم تبدأ اهتمامها بالطفل إلا بحلول القرن السابع عشر،

Centuries of Childhood 46-47.

(3) في «قرون من الطفولة» Centuries of Childhood، يزعم أرييس Ariès أن مفهوم الطفولة ظهر أول مرة في أوائل القرن السادس عشر. وانتُقدت هذه الأطروحة على نطاق واسع. بينما استشهد عديد من النقاد بأخطاء أرييس المَنهجية، لاحظ آخرون أنه فشل في الالتفات إلى الاختلافات الطبقية. كما لاحظ لورانس ستون Lawrence Stone، على سبيل المثال، أن كتاب أرييس هو في الواقع تاريخ للمدارس الفرنسية، والآباء، والأطفال من الطبقة العليا والمتوسطة، الذي يفتقر إلى السياق التاريخي الضروري للزمان والمكان والطبقة والثقافة. إنه كتاب رائد ورائع، لكن الآن ثمة اتفاق بشأن خلل كبير يطال منهجيته واستنتاجاته:

Stone, “The Massacre of the Innocents,” New York Review of Books, Nov. 14, 1974.

(4) Cecile M. Jagodzinski, Privacy and Print: Reading and Writing in Seventeenth- Century England (Charlottesville: University Press of Virginia, 1999), 12.

(5) Elizabeth Eisenstein, the Printing Press as an Agent of Change: Communications and Cultural Transformations in Early Modern Europe (Cambridge: Cambridge University Press, 1979), 431.

(6) Michel Foucault, Discipline and Punish, trans. Alan Sheridan (New York: Vintage, 1977), 192.

(7) Helmut Gernsheim and Alison Gernsheim, the History of Photography: From the Camera Obscura to the Beginning of the Modern Era (New York: McGraw-Hill, 1969), 119, 234.

(8) المرجع نفسه، ص234.

(9) حتى الأطفال الذين ماتوا وهم أطفال صُوِّروا في كثير من الأحيان. الواقع أن التصوير الفوتوغرافي للرضع والأطفال بعد الوفاة كان ممارسة منتشرة في القرن التاسع عشر. انظر:

Beth Ann Guynn, “Postmortem Photography,” in Encyclopedia of Nineteenth-Century Photography, ed. John Hannavy (New York: Routledge, 2008), 1165.

(10) Kodakery, a Magazine for Amateur Photographers:

ظهر هذا العمل أولا في العام 1913. كما أن كل المراجع الواردة فيه، تشير إلى النسخة المنشورة في تورونتو من قبل: Canadian Kodak, Co., Limited.

(11) Todd Gustavson, Camera: The History of Photography from Daguerreotype to Digital (New York: Sterling Innovation, 2009), 140 (quotation), 162

(12) أخبر إيستمان Eastman موظفيه ذات مرة: ما نفعله خلال ساعات العمل يحدد ما لدينا في العالم. وما نفعله في ساعات اللعب يحدد ما نحن عليه. يشير هذا القول المأثور إلى أن إيستمان لم يقدِّر اللعب فقط، بل ربما نظر إليه باعتباره شيئا يمكن تحويله إلى مورد ثمين، انظر:

Elizabeth Brayer, George Eastman: A Biography (Rochester, NY: University of Rochester Press, 2006), 346.

(13) لم يكن الـ«براوني» مجرد نموذج ناجح للكاميرا، ولكنه كان يمثل مقاربة مبتكرة للتسويق. في وقت مبكر، أدرك إيستمان كوداك قيمة إنتاج الأجهزة بأحجام مضغوطة وألوان متعددة. وقد أُصدِرت كاميرا «براوني ستار فلاش» Brownie Starflash ذات الحجم الصغير في العام 1957 في مختلف الألوان، بما في ذلك الأسود والأحمر والأبيض والأزرق، والمستوحاة بخاصة من فكرة «كوكاكولا»، تمامًا مثل ما حصل مع جهازي «آيبود» iPod و«آيفون» iPhone من إنتاج شركة «آبل».

(14)جوستافسون، كاميرا، 153.

(15) Hazen Trayvor, “Step-in’ Pictures,” Kodakery 10, no. 8 (June 1923), 5.

(16) "The School Bell," Kodakery 10, no. 12 (Oct. 1923), 5.

(17) Sigmund Freud, "Screen Memories," in The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud, vol. 6, ed. J. Strachey (London: Hogarth Press, 1960), 43–52.

(18) Gustavson, Camera, 142.

(19) U.S. Department of Labor, Bureau of Labor Statistics, "Union Scale of Wages and Hours of Labor, 1907 to 1912," Bulletin of the United Sates Bureau of Labor Statistics 131, Aug. 15, 1913, https://fraser.stlouisfed.org/files/docs/publications /bls/bls_0131_1913.pdf.

(20) Some early children's cameras came with development kits, including the Ensign Mickey Mouse camera (ca. 1935) and the Kookie Kamera by Ideal Toy Corporation (ca. 1968). Gustavson, Camera, 162–163.

جاءت بعض كاميرات الأطفال الأولى بمجموعة تطوير، بما في ذلك كاميرا بشعار ميكي ماوس Ensign Mickey Mouse (ca. 1935)، وكوكي كاميرا Kookie Kamera من إنتاج شركة أيديال توي كوربورايشن (ca. 1968).

(21) Quoted in Eric Zorn, "Reeling O America at Its Weirdest," Chicago Tribune, Jan. 13, 1986, A1.

(22) Monique Mattei Ferraro and Eoghan Casey, Investigating Child Exploitation and Pornography: The Internet, the Law and Forensic Science (New York: Elsevier, 2005), 14.

(23) Gustavson, Camera, 306.

(24) Peter Buse, The Camera Does the Rest: How Polaroid Changed Photography (Chicago: University of Chicago Press, 2016), 31.

(25) المرجع نفسه، ص31، 34 (اقتباس).

(26) المرجع نفسه، ص7.

(27) في تاريخه المتعلق بكاميرا بولارويد، يشير كريستوفر بونانوس إلى وجود أدلة على أن كاميرات بولارويد قد استخدمت لتوثيق أشياء كان من الممكن أن تخضع للرقابة، بما في ذلك الصور المثلية، والصور التي تصور ثقافات الفِتش أوالوثنية، والمواد المستغلة للأطفال إباحيا.

Bonanos, Instant: The Story of Polaroid (New York: Princeton Architectural Press, 2012), 73.

(28) Buse, The Camera Does the Rest, 69.

(29) المرجع نفسه، ص103.

(30) المرجع نفسه، ص31.

(31) جمَّعت بعض المبادرات، مثل أرشيف الأفلام المنزلية الأمريكية الأفريقية (http://aahma.org/)، قواعد بيانات مركزية للأفلام المنزلية على نحو مركز. أما بعضها الآخر، مثل أرشيف الأفلام المنزلية بجامعة ماساتشوستس لويل Massachusetts Lowell (http://libguides.uml.edu/UMLHomeMovieArchive)، فيضم مجموعات عامة من الأفلام المنزلية.

(32) يقدم فيلم JFK لمنتجه أوليفر ستون Oliver Stone في العام 1991، مثالاً على كيفية

استخدام أنواع مختلفة من الوسائط للإشارة إلى الذكرى وذكريات الماضي في الفيلم

(33) Patricia R. Zimmermann, "Introduction," in Mining the Home Movies: Excavations in Histories and Memories, ed. Karen L. Ishizuka and Patricia R. Zimmermann (Berkeley: University of California Press, 2008), 22.

(34) Patricia R. Zimmermann, Reel Families: A Social History of Amateur Film (Bloomington: Indiana University Press, 1995), 153.

(35) Frederick T. Hollowell, "'Love by Proxy': The First Amateur Motion Picture Production," Amateur Movie Makers 1, no. 1 (Dec. 1926): 16.

(36) في العام 1923 بلغت تكلفة كاميرا سيني كوداك مودل 125 دولارا؛ كما بلغت تكلفة مجموعة كاملة، ضمت كاميرا، وحاملا ثلاثي القوائم، وجهاز ربط، وجهاز عرض، وشاشة، 325 دولارًا:

Libby Bischof, "A Region Apart," in Amateur Movie Making: Aesthetics of the Everyday in New England Film, 1915–1960, ed. Martha J. McNamara and Karan Sheldon (Bloomington: University of Indiana Press, 2017), 42.

(37) مقتبس من كتاب:

Zimmermann, Reel Families, 134.

(38)المرجع نفسه، ص134.

(39) Gerald Stanley Lee, "Slow Movies for Quick People," Amateur Movie Makers 2, no. 2 (Feb. 1927): 99.

(40) Zoe Beloff in conversation with Niels Van Tomme, "Dreamland: The Intimate Politics of Desire," Art Papers (July / Aug. 2010): 31.

(41) Zimmermann, Reel Families, 113.

(42) David Buckingham, Rebekah Willett, and Maria Pini, Home Truths? Video Production and Domestic Life (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2011), 9–10.

(43) تؤكد الباحثة في الدراسات الإعلامية سوزانا باسونن أن كاميرات الفيديو ومسجلات أشرطة الفيديو، غيرت إنتاج الفيديوهات الإباحية المحلية، مما أدى إلى ما تصفه بـ «الموجة الأولى من إباحية الهواة». وإن تقنيات التصوير الرقمي المبنية على هذا، جلبت إنتاج الهواة إلى اتجاهات جديدة في التسعينيات، والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين:

Paasonen, Carnal Resonance: An ect and Online Pornography (Cambridge, MA: MIT Press, 2011), 72.

(44) Steven A. Booth, "Electronics," Popular Mechanics (May 1987): 60.

(45) Sadie Benning, Me & Rubyfruit (1989).

(46) Stephen Hayman, "Photos, Photos Everywhere," New York Times, July 29, 2015.

(47) Rose Eveleth, "How Many Photographs of You Are Out There in the World?" Atlantic, Nov. 2, 2015.

(48) يستخدم هذا الكتاب أمثلة على نحوٍ حصري تقريبًا من أمريكا الشمالية وأوروبا. ويعكس هذا جزئيًّا حقيقة أن التقنياتٍ الرقمية لا يمكن الوصول إليها على نحو متساوٍ عبر المناطق. وفقًا لتقرير اليونيسف الصادر في العام 2017، كان 96 في المائةً من الشباب (من خمسة عشر إلى أربعة وعشرين عامًا) في أوروبا متصلين بالإنترنت، مقارنة بنسبة 40 في المائة فقط في إفريقيا. وعلى نحوٍ عام، يمثل الأطفال والمراهقون الذين تقل أعمارهم عن 18 عامًا، ثلث مستخدمي الإنترنت حول العالم، والشباب هم الفئة الديموغرافية الأكثر ارتباطًا في العالم: 71 في المائة منهم متصلون بالإنترنت، مقارنة بـ 48 في المائة من إجمالي السكان:

United Nations Children's Fund (UNICEF), "Children in a Digital World," The State of the World's Children 2017, "Key Messages," p. 1, https://www.unicef.org/publications/files/SOWC_2017_ENG _WEB.pdf.

(49) Patricia G. Lange and Mizuko Ito, "Creative Production," in Hanging Out, Messing Around, and Geeking Out, ed. Mizuko Ito, Sonja Baumer, Matteo Bittanti, et al. (Cambridge, MA: MIT Press, 2010), 291.

الفصل الثاني

(1) European Commission, Factsheet on the "Right to be Forgotten" Ruling (C-131 / 12), https://www.inforights.im/media/1186/cl_eu_commission _factsheet_right_to_be-forgotten.pdf.

(2) Viviane Reding, "The EU Data Protection Reform 2012: Making Europe the Standard Setter for Modern Data Protection Rules in the Digital Age," address given at the Innovation Conference Digital, Life, Design, Munich, Jan. 22, 2012, http://europa.eu/rapid/press-release_ SPEECH-1226-_en.htm.

(3) تتضمن المادة 38 من اللائحة العامة لحماية البيانات في الاتحاد الأوروبي البيان التالي: «يستحق الأطفال حماية خاصة فيما يتعلق ببياناتهم الشخصية، لأنهم قد يكونون أقل وعياً بالمخاطر، والعواقب، والضمانات المعنية، وحقوقهم فيما يتصل بمعالجة بياناتهم الشخصية. يجب أن تنطبق هذه الحماية المحددة، على وجه الخصوص، على استخدام البيانات الشخصية للأطفال لأغراض التسويق أو إحداث ملفات هوية الأشخاص أو المستخدمين، وجمع البيانات الشخصية فيما يتعلق بالأطفال عند استخدام الخدمات المقدمة مباشرة إلى الطفل. لا ينبغي أن تكون موافقة صاحب المسؤولية الأبوية ضرورية في سياق الخدمات الوقائية أو الاستشارية المقدمة مباشرة إلى الطفل». راجع «لائحة (الاتحاد الأوروبي) 679/2016 للبرلمان والمجلس الأوروبيين بتاريخ 27 أبريل 2016 بشأن حماية الأشخاص الطبيعيين فيما يتعلق بمعالجة البيانات الشخصية، وحرية نقل هذه البيانات، وإلغاء التوجيه:

https://eur-lex.europa.eu/legal-content/EN/TXT/PDF/?uri=CELEX:32016 R0679&from=EN.

(4) California Business and Professional Code section 22580, SB-568, Privacy: Internet: minors (2013–2014) http://leginfo.legislature.ca.gov/

faces/codes_displaySection.xhtml?lawCode=BPC&sectionNum=22580.

(5) Sonia Livingstone, “Children’s Privacy Rights Are Prominent in the Data Protection Bill but There’s Many a Slip...,” Media Policy Project blog post, London School of Economics and Political Science, Aug. 14, 2017, http://blogs.lse.ac.uk/mediapolicyproject/201714 /08//childrens-privacy-rights-are-prominent-in-the-data-protection-bill-but-theres-many-a-slip/.

(6) في أواخر القرن العشرين في كندا، على سبيل المثال، كان نسيان نظام المدارس الداخلية residential school القديم في البلاد لأطفال الأمم الأولى، وسيلةً ملائمة للأمة، ليس فقط لإبعاد نفسها عن الفظائع التي حدثت في هذه المدارس، بل أيضًا لنسيان وضعها باعتبارها مستعمرة بريطانية سابقة. وعلى نحو مماثل، في الولايات المتحدة، سمحت الأشكال الجماعية للنسيان لواضعي السياسات بتجنب معالجة كيفية استمرار تركات العبودية في تعزيز الفوارق الاجتماعية والاقتصادية. وبينما يُنظر إلى النسيان الجماعي غالبًا على أنه نقيض الذاكرة الجماعية، يلاحظ نحمان بن يهودا Nachman Ben-Yehuda أنهما «طرفان للعملية نفسها – نهاية اختيار الحقائق والأحداث التاريخية».
Ben-Yehuda, Masada Myth: Collective Memory and Mythmaking in Israel (Madison: University of Wisconsin Press, 1995), 302.

(7) Friedrich Nietzsche, On the Genealogy of Morality, trans. Carole Diethe (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), 35, 36.

(8) Frederic C. Bartlett, Remembering: A Study in Experimental and Social Psychology (London: Cambridge University Press, 1932), 15.

(9) Michael C. Anderson and Simon Hanslmayr, “Neural Mechanisms of Motivated Forgetting,” Trends in Cognitive Sciences 18, no. 6 (2014): 279.

(10) Benjamin C. Storm, “The Benefit of Forgetting in Thinking and Remembering,” Current Directions in Psychological Science, 20, no. 5 (2011): 294–295.

(11) Antoinette Rouvroy, “Réinventer l’art d’oublier et de se faire oublier dans la société de l’information?” in La sécurité de l’individu numérisé. Réflexions prospectives et internationales, ed. Stéphanie Lacour (Paris: L’Harmattan, 2008), 249–278, available at https://works.bepress.com/antoinette_rouvroy/5 /(translation my own, emphasis in the original).

(12) لمزيد من المعلومات بشأن ديد سوشل DeadSocial، وهي «خدمة تخطيط نهاية العمر» الموصوفة ذاتيا، زر موقعها: http://deadsocial.org.

(13) لمزيد من المعلومات بشأن اللوائح العامة لحماية البيانات في الاتحاد الأوروبي، راجع بوابة المعلومات غير الحكومية:
http://www.eugdpr.org/eugdpr.org.html.

(14) Bert-Jaap Koops, “Forgetting Footprints, Shunning Shadows: A Critical Analysis of the ‘Right to Be Forgotten’ in Big Data Practice,” SCRIPTed 8, no. 3 (2011): 234, 254.

(15) لقد عبر هوارد راينغولد Howard Rheingold عن هذا الموقف في مقدمته للطبعة الأصلية من كتاب:

The Virtual Community: Homesteading on the Electronic Frontier

على هذا النحو: «لا يوجد شيء اسمه ثقافة فرعية واحدة متجانسة عبر الإنترنت؛ إنه أشبه بنظام بيئي للثقافات الفرعية، بعضها تافه وبعضها الآخر جاد. يهاجر الخطاب العلمي المتقدم إلى المجتمعات الافتراضية... وفي الوقت نفسه، يستخدم النشطاء والمصلحون التربويون الوسيلة نفسها أداةً سياسية. كما يمكنك استخدام المجتمعات الافتراضية للعثور على موعد أو بيع جزازة العشب أو نشر رواية أو عقد اجتماع. ويستخدم بعض الأشخاص المجتمعات الافتراضية باعتبارها شكلا من أشكال العلاج النفسي... وآخرون يقضون ثمانين ساعة في الأسبوع أو أكثر في التظاهر بأنهم شخص آخر، ويعيشون حياة غير موجودة خارج الكمبيوتر».

Rheingold, The Virtual Community: Homesteading on the Electronic Frontier (Reading, MA: Addison-Wesley, 1993); available at http://www.rheingold.com/vc/book/intro.html.

(16) Sherry Turkle, Life on the Screen: Identity in the Age of the Internet (New York: Simon and Schuster, 1995), 177.

(17) المرجع نفسه، ص10.

(18) راجع: Rheingold, The Virtual Community.

(19) Turkle, Life on the Screen, 10, 11.

(20) سيصبح من الواضح على نحو متزايد أنه حتى المجتمعات عبر الإنترنت السابقة، لم تكن منفصلة تمامًا عن العالم المادي، وقد تعرض عمل توركل المبكر لانتقادات بسبب تعزيزها للثنائي الخاطئ بين الواقعي والافتراضي. وعلى رغم ذلك، في الوقت الذي نُشر فيه «الحياة على الشاشة»، حصل هذا العمل على تصور مشترك على نطاق واسع لفضاءات افتراضية ناشئة، وعلاقتها بما يسمى بالعالم الحقيقي.

(21) يستمد تصور الموراتوريوم من نظرية النمو النفسي الذي يقول بها إريك إريكسون، إذ تقوم هذه النظرية بوصف عملية الأطفال الصغار وهم يحاولون العثور على هويات جديدة لهم بالتزامن مع تقدمهم في السن. [المترجم].

(22) Erik H. Erikson, Childhood and Society, 2nd ed. (New York: Norton, 1963), 262–263.

(23) Turkle, Life on the Screen, 203.

(24) بينما قد يكون صحيحًا داخل عديد من المجتمعات، فمن المهم الإشارة إلى أن تجربة السلوك «المنحرف» وحتى الانخراط فيه تأتي بتكلفة أعلى بكثير بالنسبة إلى بعض الشباب مقارنة بالآخرين. قد يُقبض على مراهق أبيض يسرق قطعة من الملابس من بائع بالتقسيط، لكن قلة من المراهقين البيض ممن يسرقون المتاجر يواجهون عقوبات شديدة على جرائمهم الصغيرة. أما إذا قُبض على مراهق أسود، وهو يسرق قطعة الملابس ذاتها في السياق نفسه، فمن المرجح أن يتأثر على نحو دائم بالمخالفة. وفقًا للجمعية الوطنية للنهوض بالملونين NAACP، يمثل الأطفالُ الأمريكيون من أصل أفريقي 32 في المائة من الأطفال الموقوفين، و42 في المائة من الأطفال المحتجزين، و52 في المائة من الأطفال الذين تُنوزِل عن قضاياهم قضائيًا إلى محكمة جنائية.

NAACP, Criminal Justice Factsheet, http://www.naacp.org /criminal-justice-fact-sheet.

(25) Erik Erikson, Identity: Youth and Crisis (New York: Norton, 1968), 157.

(26) Turkle, Life on the Screen, 203.

(27) المرجع نفسه، ص204.

(28) Erikson, Childhood and Society, 263.

(29) رُسِّخ هذا الاتجاه بالفعل بحلول العام 2012. وفي ذلك الوقت، نشرت مجلة «هارفارد بيزنس ريفيو» Harvard Business Review مقالاً بعنوان «رئيس عملك المستقبلي يراقبك على الإنترنت. يجب أن تراقب نفسك كذلك»

"Your Future Employer Is Watching You Online. You Should Be, Too.".

كتب المؤلف مايكل فيرتيك Michael Fertik «بالفعل، يعتمد مديرو التوظيف على نحوٍ كبير على الإنترنت للبحث عن مرشحين للتوظيف. كما تظهر دراسات متعددة علىً نحوٍ مقنع أن أكثر من 75 في المائة من أرباب العمل يبحثون بنشاط عن المرشحين عبر الإنترًنت. لقد أظهروا كذلك أن أكثر من 70 في المائة قرروا عدم تعيين مرشح بناءً على ما وجدوه. لقد ثبت أن المشغلين لا يبحثون عن الأشخاص في محركات البحث فقط، بل يبحثون بعمق جدًا، من خلال ملفات تعريف الوسائط الاجتماعية، وملفات تعريف التسوق، ومواقع الألعاب عبر الإنترنت، والإعلانات المبوبة، ومواقع المزادات (فكر في المنصتين التجاريتين: إي باي eBay، وكريغزليست Craigslist وحتى في العوالم الافتراضية مثل «سكند لايف»).

Fertik, "Your Future Employer Is Watching You Online. You Should Be, Too," Harvard Business Review, Apr. 3, 2012, https://hbr.org/201204// your-future-employer-is-watchi.

(30) Natasha Singer, "New Item on College Admission Checklist: LinkedIn Profile," New York Times, Nov. 5, 2016, BU6.

(31) Viktor Mayer-Schönberger, Delete: The Virtue of Forgetting in the Digital Age (Princeton: Princeton University Press, 2009), 172.

(32) danah boyd, It's Complicated: The Social Lives of Networked Teens (New Haven: Yale University Press, 2014), 64.

(33) منذ العام 2014 على الأقل، كانت هناك تطبيقات تابعة لجهات خارجية مثل سنابسيفد Snapsaved، تساعد مستخدمي سنابشات في الحفاظ على اللقطات الخاصة بهم. بينما رحب المستخدمون على نحوٍ عام بمثل هذه التدخلات، تعرض سنابسيفد للهجوم. الواقع أنه أُلقي اللوم على هذا التطبيق عندما اختُرِق ما يقدر بمائتي ألف لقطة في العام 2014 وزُعم أنها انتهت على شبكة الإنترنت المظلمة.

Caitlin Dewey, "The Snappening Is Not a Hoax," Washington Post, Oct. 4, 2014.

(34) Franziska Roesner, Brian T. Gill, and Tadayoshi Kohno, "Sex, Lies, or Kittens? Investigating the Use of Snapchat's Self-Destructing Messages," in Financial Cryptography and Data Security, ed. Sarah Meiklejohn and Kazue Sako (New York: Springer, 2014), 67.

(35) boyd, It's Complicated, 64.

(36) Snapchat's Infinity setting was introduced on May 9, 2017: https://www.snap.com/en-US/news/post/limitless-snaps

(37) Susan Stewart, On Longing: Narratives on the Miniature, the Gigantic, the Souvenir, the Collection (Durham, NC: Duke University Press, 1993), 167.

الفصل الثالث

(1) Anita Gates, "Gary Coleman, 'Di 'rent Strokes' Star, Dies at 42," New York Times, May 28, 2010, A23.

(2) Associated Press, "Dana Plato, 34, Star of 'Di 'rent Strokes,' " New York Times, May 10, 1999; Virginia Heffernan, "Revealing the Wages of Young Sitcom Fame," New York Times, Sept. 4, 2006.

(3) Todd Bridges with Sarah Tomlinson, Killing Willis: From Different Strokes to the Mean Streets to the Life I Always Wanted (New York: Simon and Schuster, 2011).

(4) راجع قانون وزارة العمل بولاية نيويورك بشأن الممثلين الأطفال:

(https://labor.ny.gov/workerprotection/laborstandards/secure/child_index.shtm) and the "Coogan Law" (https://www.sagaftra.org / membership-benefits/young-performers/coogan-law/coogan-law-full-text),

وهو ساري المفعول في أربع ولايات فقط: نيويورك، وكاليفورنيا، ولويزيانا، ونيو مكسيكو.

(5) في الولايات التي يكون فيها «قانون كوجان» Coogan Law ساري المفعول، يجب أن يخضع أي تسييل (تحويلهم إلى نقود) للأطفال المشاهير على وسائط التواصل الاجتماعي للقانون، ولكنّ هناك غموضا كبيرا بما أنه تاريخيا، اعتُبِر الفنانون الأطفال موظفين، لكن مشاهير الأطفال والمراهقين على وسائط التواصل الاجتماعي، ليسوا موظفين تقنيًّا. في العام 2017، سأل مراسل نيويورك تايمز محاميًا مقيمًا في كاليفورنيا عما إذا كان «قانون كوجان» ينطبق على الأطفال المشاهير على وسائط التواصل الاجتماعي، فكان رده: هذه مياه مجهولة.

Katherine Rosman, "Why Isn't Your Toddler Paying the Mortgage?" New York Times, Sept. 27, 2017.

(6) Ian Austen, "2 Survivors of Canada's First Quintuplet Clan Reluctantly Re-emerge," Globe and Mail, Apr. 3, 2017, A1.

(7) sarah J. Schoppe-Sullivan, Jill E. Yavorsky, Mitchell K. Bartholomew, et al., "Doing Gender Online: New Mothers' Psychological Characteristics, Facebook Use, and Depressive Symptoms," Sex Roles 76, no. 5–6 (2017): 276.

(8) Parent Zone, "Today's Children Will Feature in Almost 1,000 Online Photos by the Time They Reach Age Five," Nominet, May 26, 2015, https://www.nominet.uk/todays-children-will-feature-in-almost-1000-online-photos-by -the-time-they-reach-age-five/.

(9) Mott Poll Report, “Parents on Social Media: Likes and Dislikes of Sharenting,” National Poll on Children’s Health, C. S. Mott Children’s Hospital, University of Michigan, Mar. 16, 2015, https://mottpoll.org/sites/default/files/documents /031615_sharenting_0.pdf.

(10) Sharenting هي كملة مركبة من كلمتين الأولى share وتعني التبادل أو التقاسم والثانية parenting وتعني الرعاية الأبوية. (المحرر).

المرجع نفسه.

(11) Jesse Mab-Phea Hill, “ShittyDay,” Parenthood: The Struggle blog, https://parenthoodthestruggle.wordpress.com/201720/05//shitty-day/.

(12) كان «فاين» موقعًا مخصصا لاحتضان الفيديو، أُسِّس في العام 2012. وبحلول العام 2015 كان للموقع ما يقدر بنحو 200 مليون مستخدم. في العام 2016 أُغلِق فجأة، على الرغم من أن محتواه لايزال متاحًا. وُزِّعت مقاطع فيديو «الفاين» على موَقع «الفاين» وعلى مواقع التواصل الاجتماعي الأخرى، بما في ذلك فيسبوك وتويتر.

(13) Brian Feldman, “Who Is Gavin? And Why Has He Taken Over Twitter?” New York Magazine Intelligencer, Aug. 12, 2016, http://nymag.com/selectall /201608//meet-gavin-the-five-year-old-meme-star.html.

(14) Helin Jung, “What It’s Really Like to Be a Yelp Celebrity When You’re Not Even 2 Years Old,” Cosmopolitan Cosmo Bites, June 22, 2015, http://www.cosmopolitan.com/food-cocktails/a42238/foodbaby-is-living-the-dream/.

(15) Simon Nørby, “Why Forget? On the Adaptive Value of Memory Loss,” Perspectives on Psychological Science 10, no. 5 (2015): 553, 554.

(16) Benoit Denizet-Lewis, “Following Christian Leave: The Strange Life of a Teen Social Media Celebrity,” Rolling Stone, Dec. 8, 2015, http://www.rollingstone.com/culture/features/can-a-kid-from-texas-survive-the-new-rules-of-teen-celebrity-20151208.

(17) تتغير المواهب المميزة لبريسبلاي على نحوٍ متكرر، لكن قائمة المواهب لديهم، تضم دائمًا عددًا أكبر من الشبان مقارنة بالشابات، حيث يمثل الشباب عادةً 85-100 في المائة من الممثلين المميزين في الأحداث الحية. على النقيض من ذلك، تظهر الصور على موقع بريسبلاي أن المعجبين هم من الفتيات المراهقات على نحوٍ حصري.

PressPlay, http://pressplay.co/talent/.

(18) Taylor Lorenz, “Raising a Social-Media Star,” Atlantic, Jan. 17, 2018.

(19) المرجع نفسه.

(20) انتشر مفهوم التنمر السيبراني انتشارا واسعا في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين بعد ظهور عديد من حوادث التنمر عبر الإنترنت رفيعة المستوى. ومثل مصطلح «التنمر»، الذي يستخدم غالبًا لوصف المواقف التي يتعرض فيها الأطفال والمراهقون للإيذاء العقلي أو البدني من قبل أقرانهم، يُستخدم مصطلح «التنمر السيبراني» عمومًا لوصف أشكال الإساءة التي يقودها الأقران، مع وجود اختلاف على مستوى حدوث أعمال العزل والابتزاز على الإنترنت (على سبيل المثال، من خلال تداول الصور ومقاطع الفيديو التي تهدف إلى إذلال الضحية). ومنذ العام 2000، أصبح التسلط عبر الإنترنت

واسع الانتشار على نحوٍ متزايد، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى حقيقة أنه خلال هذه الفترة، اكتسب الشباب على نحوٍ متزايد إمكانية الوصول إلى أجهزتهم الرقمية الخاصة. في العام 2017 أفاد نحو 15 في المائة من طلاب المدارس الثانوية بتعرضهم لشكل من أشكال التنمر السيبراني في فترة الاثني عشر شهرًا السابقة.

Centers for Disease Control and Prevention, “Prevent Bullying” feature, https://www.cdc.gov/features/prevent-bullying/index.html.

(21) حاول رازا غيسلين إخفاء هويته سنواتٍ عديدةً، غير أنه في العشرينيات من عمره، عندما كان طالبًا في القانون، قرر إرفاق هويته بالفيديو مرة أخرى بعد أن شهد سلسلة من حوادث التنمر السيبراني التي أدت إلى حالات انتحار. لهذا السبب، استُخدم اسمه الكامل في هذا الفصل.

(22) Amy Harmon, “Compressed Data; Fame Is No Laughing Matter for the ‘Star Wars Kid,’” New York Times, May 19, 2003.

(23) “Star Wars Kid Files Lawsuit,” Wired, July 24, 2003.

(24) Jasmine Garsd, “Internet Memes and ‘The Right to Be Forgotten,’ ” All Tech Considered, NPR, Mar. 3, 2015, http://www.npr.org/sections/alltechconsidered /2015390463119/03/03//internet-memes-and-the-right-to-be-forgotten.

(25) danah boyd, It’s Complicated: The Social Lives of Networked Teens (New Haven: Yale University Press, 2014), 146.

(26) “Ten Years Later, ‘Star Wars Kid’ Speaks Out,” MacLean’s, May 9, 2013, http://www.macleans.ca/education/uniandcollege/10-years-later-star-wars -kid-speaks-out/.

(27) أصبحت الروابط الآن بين التنمر السيبراني والانتحار أمرا مؤكدا للغاية، راجع مثلا:

Robin M. Kowalski, Gary W. Giumetti, Amber N. Schroeder, and Micah R. Lattanner, “Bullying in the Digital Age: A Critical Review and Meta-Analysis of Cyberbullying Research among Youth,” Psychological Bulletin 140, no. 4 (2014): 1073–1137; Sameer Hinduja and Justin W. Patchin, “Bullying, Cyberbullying, and Suicide,” Archives of Suicide Research 14, no. 3 (2010): 206–221; Anat Brunstein Klomek, Frank Marrocco, Marjorie Kleinman, et al., “Peer Victimization, Depression, and Suicidality in Adolescents,” Suicide and Life-Threatening Behavior 38, no. 2 (2008): 166–180.

وتؤثر الجنوسة في التنمر السيبراني، إذ من المرجح أن تجد الشابات أنفسهن ضحايا للمطاردة السيبرانية cyberstalking (باستخدام اتصالات الكترونية لمطاردة شخص آخر عن طريق إرسال رسائل تهديد متكررة)، وإرسال محتوى جنسي غير مرغوب فيه (وذلك بتوزيع صور عارية لشخص آخر من دون موافقة ذلك الشخص): انظر:

Allyson L. Dir, Ayca Coskunpinar, Jennifer L. Steiner, and Melissa A. Cyders, “Under- standing Differences in Sexting Behaviors across Gender, Relationship Status, and Sexual Identity, and the Role of Expectancies in Sexting,” Cyberpsychology, Behavior, and Social Networking 16, no. 8 (2013): 568–574.

(28) لم أتمكن من العثور على إحصائيات بشأن عدد حالات انتحار النساء أو نسبتها التي ترتبط ارتباطًا مباشرًا بتداول الإساءة القائمة على الصور. الواضح أن حالة بارسونز ليست فريدة من نوعها؛ إذ منذ انتحارها في العام 2013، كان هناك عديد من الحوادث البارزة الأخرى التي يبدو أن الإساءة القائمة على الصور، كانت العامل الأساس الذي أدى إلى الانتحار. وتضم هذه الحوادث حالة إيطالية نُشرت على نطاق واسع:

(BBC News, "Tiziana Cantone: Suicide following Years of Humiliation Online Stuns Italy," Sept. 16, 2016, http://www.bbc.com/news /world-europe-37380704).

إن ضعف الإبلاغ إلى جانب خليط من القوانين، التي تجعل إنتاج «المواد الإباحية الرضائية» قانونيًّا في بعض السلطات القضائية وليس غيرها، يربك أكثر محاولات تحديد العلاقة بين الانتحار والإساءة القائمة على الصورة.

(29) وفقًا لمراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها (CDC)، يستهلك الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين اثني عشر وعشرين عامًا 11 بالمائة من جميع المشروبات الكحولية المستهلكة في الولايات المتحدة، على الرغم من عدم بلوغهم السن القانوني لشربه، وأكثر من 90 في المائة من هذا الكحول، يُستهلَك في شكل حفلات شراب كحولية صاخبة binge drinks.

(CDC, "Fact Sheet—Underage Drinking," Oct. 20, 2016, https://www.cdc.gov/alcohol/fact-sheets/unde drinking.htm).

وفي دراسة أنجزت في العام 2017، توصلت مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها إلى أن 7 في المائة من النساء الأمريكيات، ذكرن أنهن تعرضن لاغتصاب كامل عندما كنَّ قاصرات.

Sharon G. Smith, Jieru Chen, Kathleen C. Basile, et al., The National Intimate Partner and Sexual Violence Survey, 2010–2012 State Report (Atlanta: Centers for Disease Control and Prevention, 2017), 167, https://www.cdc.gov/violenceprevention/pdf/NISVS-StateReportBook.pdf.

(30) ولم يُتهم الصبيةُ قط بالاعتداء، على الرغم من اتهامهم في نهاية المطاف بترويج المواد الإباحية للأطفال. في مراجعته للقضية، استنتج موراي د. سيغال Murray D. Segal وهو محقق مستقل – ما يلي: «بينما يعد من قبيل السخرية الإشارة إلى أنه لو لم تكن هناك معلومات أكثر خاضعة للفحص [دليل فوتوغرافي للحادث] – لكان المشتبه بهم قد اتهموا بالاعتداء الجنسي فقط على أساس أقوال رحتة».

Murray D. Segal, "Independent Review of the Police and Prosecution Response to the Rehtaeh Parsons," Oct. 8, 2015, p. 48, https://novascotia.ca/segalreport/Parsons -Independent-Review.pdf.

(31) المرجع نفسه.

(32) Silvan Tomkins, Shame and Its Sisters: A Silvan Tomkins Reader, ed. Eve Kosofsky Sedgwick and Adam Frank (Durham, NC: Duke University Press, 1995), 134–136.

(33) على سبيل المثال، في قضية رحتة بارسونز، غيرت الضحيةُ المدرسةَ مرتين، لكن ظلت الصورة في محور قضيتها، مستمرة تلاحقها في سياقات اجتماعية جديدة:

(Segal, “Independent Review of the Police and Prosecution Response,” 13).

(34) David Cantor et al., Report on the AAU Campus Climate Survey on Sexual Assault and Sexual Misconduct (Rockville, MD: Association of American Universities, 2015), https://www.aau.edu/sites/default/files/AAU-Files/Key -Issues/Campus-Safety/AAU-Campus-Climate-Survey-FINAL-1017-20-.pdf.

ووجد التقرير أيضًا أن ثلث النساء قد تعرضن لاتصال جنسي غير رضائي مرة واحدة على الأقل بحلول عامهن الأخير في الكلية.

(35) لاحظ شون ميشيل سميث Shawn Michelle Smith، وشارون سليوينسكي Sharon Sliwinski وجود تاريخ طويل للمنظِّرين الذين يعتمدون على الاستعارات البصرية لشرح العقل اللاواعي، ولكن سيغموند فرويد كان من أوائل من استشعر هذه الفكرة. بدأ في استخدام عمليات التصوير باعتبارها استعارة لمفهومه المرتبط بالعقل اللاواعي منذ العام 1900.

Smith and Sliwinski, “Introduction,” in Photography and the Optical Unconscious, ed. Shawn Michelle Smith and Sharon Sliwinski (Durham, NC: Duke University Press, 2017), 1.

(36) David L. Smith, “The Mirror Image of the Present: Freud’s Theory of Retrogressive Screen Memories,” Psychoanalytische Perspectieven 39 (2000): 7.

(37) Sigmund Freud, “Screen Memories” (1899), facsimile edition, reprinted in On Freud’s “Screen Memories,” ed. Gail S. Reed and Howard B. Levine (London: Karnac, 2015), 24.

(38) المرجع نفسه.

(39) Phyllis Greenacre, Trauma, Growth and Personality (1952; repr., New York:
International Universities Press, 1969), 191.

(40) Gail S. Reed and Howard B. Levine, “Screen Memories: A Reintroduction,” in On Freud’s “Screen Memories,” ed. Reed and Levine, 29.

(41) انظر بخاصة:

Lucy Lafarge, “The Screen Memory and the Act of
Remembering,” in On Freud’s “Screen Memories,” ed. Reed and Levine, 36–57.

(42) Freud, “Screen Memories,” 7.

(43) Donna J. Bridge and Joel L. Voss, “Hippocampal Binding of Novel Informa- tion with Dominant Memory Traces Can Support Both Memory Stability and Change,” Journal of Neuroscience 34, no. 6 (2014): 2203–2213.

الفصل الرابع

(1) Nick Strayer, "The Great Out-of-State Migration: Where Students Go," New York Times, Aug. 26, 2016.

(2) Joshua Meyrowitz, No Sense of Place: The Impact of Electronic Media on Social Behavior (New York: Oxford University Press, 1985), viii, 28, 5, 6.

(3) المرجع نفسه، صVII.

(4) Jodi Kantor and Catrin Einhorn, "What Does It Mean to Help One Family?" New York Times, Sept. 8, 2016.

(5) Chia-chen Yang and B. Bradford Brown, "Motives for Using Facebook, Patterns of Facebook Activities, and Late Adolescents' Social Adjustment to College," Journal of Youth and Adolescence 42, no. 3 (2013): 403–416.

(6) Aristotle, the History of Animals, book 13: 16.

(7) Peter Berthold, Bird Migration: A General Survey, 2nd ed. (Oxford: Oxford University Press, 2001), 12.

(8) Mark R. Fuller and Todd K. Fuller, "Radio Telemetry Equipment and Applications for Carnivores," in Carnivore Ecology and Conservation: A Handbook of Techniques, ed. Luigi Boitani and Roger A. Powell (Oxford: Oxford University Press, 2012), 152.

(9) Sam Howe Verhovek, "Ethical Issues Arise in Boom in Pet Microchips," New York Times, June 12, 1999.

(10) على الرغم من أن وضع علامات على أجهزة التتبع أو إدخالها في البشر لم يُقبَل على نطاق واسع على الإطلاق، فإن هناك استثناءات قليلة. هناك تاريخ طويل ومثير للقلق لتمييز بعض البشر (أولئك الذين استُعبدوا) بالعلامات التجارية أو الوشم. وفي السبعينيات، بدأ نظام العدالة الجنائية الأمريكي في استخدام أجهزة التتبع الإلكترونية لمراقبة الأفراد الخاضعين لإفراج مشروط. وكثيراً ما رُحِّب بهذا الشكل من العلامات (حتى من قبل عديد من مصلحي السجون) باعتباره بديلا تدريجيا لعقوبات السجن الممتدة، بدلاً من اعتباره انتهاكًا للخصوصية.

Barton L. Ingraham and Gerald W. Smith, "The Use of Electronics in the Observation and Control of Human Behavior and Its Possible Use in Rehabilitation and Parole," Issues in Criminology 7, no. 2 (1972): 35–53.

(11) Dan Collins, "Florida Family Takes Computer Chip Trip," CBS News, May10, 2002, http://www.cbsnews.com/news/fla-family-takes-computer-chip-trip/.

(12) Lev Grossman, "Meet the Chipsons," Time, Mar. 11, 2002, 56–57; Smith quoted in Julia Scheeres, "They Want Their Own ID Chips Now," Wired, Feb. 6, 2002, https://www.wired.com/200202//they-want-their-id-chips-now.

(13) في أوائل العام 2017، على سبيل المثال، بدأت شركة سويدية ناشئة في غرس رقاقات

صغيرة في أجساد الموظفين، يمكنها فتح الأبواب، واستخدامها لإكمال المهام الروتينية، مثل تسجيل الدخول إلى آلات التصوير. لتشجيع هذه الممارسة، التي لم تكن مطلوبة، أقامت الشركة «حفلة زرع الشرائح» لأي موظف وافق على زرع شريحة.

Associated Press, "Cyborgs at Work: Swedish Employees Getting Implanted with Microchips," The Telegraph, Apr. 4, 2017.

بينما حظيت ممارسة الشركة باهتمام إخباري كبير، لم يكن كل هذا الاهتمام إيجابيًا. فهذا مقال في صحيفة «نيويورك تايمز» New York Times وصف بالتفصيل المشاكل المحتملة التي قد تطرحها مثل عمليات الزرع هذه في المستقبل، التي تتراوح بين المراقبة المفرطة لسلوكيات الموظفين (على سبيل المثال، طوال فترات الاستراحة في الحمام) وإنشاء طرق جديدة للاختراق.

Maggie Astor, "Microchip Implants for Employees? One Company Says Yes," New York Times, July 27, 2017.

(14) Hiawatha Bray, You Are Here: From the Compass to GPS, the History and Future of How We Find Ourselves (New York: Basic Books, 2014).

(15) في مقال نُشر في العام 2006 في صحيفة «نيويورك تايمز»، كتب ديفيد بوغ David Pogue عن اهتمام الآباء بتتبع أطفالهم: «دعونا نواجه الأمر: نحن مغرمون بفكرة أدوات تعقب المواقع السرية... قد يكون لدى عديد من الآباء خيال عابر لتزويد أطفالهم بأجهزة التتبع هذه... هذه إحدى أدوات الخيال العلمي التي لم تعد خيالية، وذلك بفضل العلم المتقدم – التتبع القائم على الأقمار الاصطناعية المستند إلى تقنية نظام تحديد المواقع العالمي. لقد بنت خمس شركات على الأقل... هذا النظام لتعقب الأشياء التي يحملها الأطفال طواعية: الهواتف المحمولة».

Pogue, "Cellphones That Track Kids," New York Times, Dec. 21, 2006, C1.

(16) نظرًا إلى تاريخ وضع العلامات، من المهم لدى بعض الشركات من قبيل «تراكس» Trax (مطور أحد أكثر أجهزة تتبع المستهلك شيوعًا التي تستخدمها العائلات التي لديها أطفال صغار) اضطلاعها بتسويق التقنيات نفسها لكل من الآباء ومالكي الحيوانات الأليفة. راجع صفحة «تراكس» الرئيسة من أجل الحصول على التفاصيل:

https://traxfamily.com.

(17) Clay Shirky, Here Comes Everyone: The Power of Organizing without Organizations (New York: Penguin, 2008), 310.

(18) كانت مشكلة زيادة المعلومات التي تلوح في الأفق أزمة عامة وخاصة. بينما كانت المحفوظات والمكتبات العامة تتصارع بالتأكيد مع هذه القضية، كان الناس العاديون كذلك منخرطين في تجاوز هذا الصراع حيث بدأت مجموعاتهم الخاصة من الصور في التكاثر بوتيرة سريعة على نحوٍ متزايد. انظر:

Dario Teixeira, Wim Verhaegh, and Miguel Ferreira, "An Integrated Framework for Supporting Photo Retrieval Activities in Home Environments," Ambient Intelligence, Proceedings of the First European Symposium, EUSAI 2003, ed. E. Aarts et al. (Berlin: Springer, 2003), 288–303, quotation on 288.

(19) Ethan Todras-Whitehill, "'Folksonomy' Carries Classifieds beyond SWF and 'For Sale,'" New York Times, Oct. 5, 2005.

(20) اقتُبست الفكرة من العمل التالي:

Wade Roush, "Tagging Is It," MIT Technology Review, June 1, 2005, https://www.technologyreview.com/s/404210/tagging-is-it/.

(21) Clay Shirky, "Ontology Is Overrated: Categories, Links, and Tags," n.d., Clay Shirky's Writings about the Internet, http://shirky.com/writings/ontology _overrated.html.

(22) Facebook, "Making Phototagging Easier," June 30, 2011, https://www.facebook.com/notes/facebook/makioto-tagging-easier/467145887130/.

(23) Steven Heyman, "Photos, Photos Everywhere," New York Times, July 29, 2015.

(24) Kevin J. O'Brien, "Germany Investigating Facebook Tagging Feature," New York Times, Aug. 4, 2011, B4.

(25) Somini Sengupta and Kevin J. O'Brien, "Facebook Can ID Faces, but Using Them Grows Tricky," New York Times, Sept. 22, 2012, A1; Somini Sengupta, "Facebook Acquires Israeli Facial Recognition Company," New York Times, June 18, 2012.

(26) Rose Eveleth, "How Many Photographs of You Are Out There in the World?" Atlantic, Nov. 2, 2015.

(27) Robinson Mayer, "Anti-Surveillance Camouflage for Your Face," Atlantic, July 24, 2014.

مع تطور التعرف على الوجه وعملية الإشارة الآلية، بدأ المصممون النشطاء في تطوير طرق لتقويض هذه التقنيات، بما في ذلك الأنسجة المبتكرة التي تربك على نحوٍ فعال الخوارزميات المصممة قصد البحث عن الوجوه في الصور انظر:

The Berlin-based designer Adam Harvey's HyperFace Camouflage project, https://ahprojects.com /projects/hyperface.

(28) أفاد تيم موينيهان Tim Moynihan في مجلة «وايرد» Wired في أواخر العام 2016 بأن تطبيق «فوتوسكان» PhotoScan التابع لغوغل قد صُمِّم لمساعدة المستخدمين على التقاط صور رقمية أفضل لجميع الصور التناظرية القديمة التي تراكمت لديهم في ألبومات الصور والصناديق. يوضح موينيهان أنه بمجرد التقاطها، تُنسَخ الصورة احتياطيًّا عبر الإنترنت وتضاف إلى مكتبة صور غوغل Google Photos Library... سيكون عرضًا رائعًا للتعرف على الوجه في صور غوغل بمرور الوقت؛ إن التطبيق الان جيد بالفعل في التعرف على الشخص نفسه على مدار حياته برؤية الحاسوب، ويجب أن تكون حملة الصور القديمة الممسوحة ضوئيًّا اختبارًا جديدًا تمامًا للذكاء الاصطناعي المثير للإعجاب للتطبيق.

Moynihan, "Google Just Made It Way Easier to Scan Your Own Photos," Wired, Nov. 15, 2016, https://www.wired.com/201611//google-photoscan-app-scan -your-old-photos.

(29) لوضع قيمة أصول صور فيسبوك في منظورها الصحيح، ضع في اعتبارك واحدة فقط من عمليات الاستحواذ الأخيرة. طُوِّر إنستغرام في العام 2010 بنحو نصف مليون دولار لتمويل بدء التشغيل. وفي غضون عامين اشترت فيسبوك الشركة التي لم يكن لديها

تدفق حقيقي للإيرادات، مقابل مليار دولار نقدًا وأسهم. كما لم يكن فيسبوك يكتسب فقط منافسًا، ولكن أيضًا مجموعة ضخمة من الصور المشار إليها على إنستغرام، وهي عملية شراء من شأنها أن تساعد في الدفع ببحث فيسبوك قدما وتطويره بشأن التعرف على الوجه. انظر:

Victor Luckerson, "Here's Proof That Instagram Was One of the Smartest Acquisitions Ever," Time, Apr. 19, 2016, http://time.com/4299297/instagram-facebook-revenue.

(30) في أبريل 2017، أخبر مارك زوكربيرج Mark Zuckerberg الحاضرين في مؤتمره السنوي للمطورين بأن فيسبوك يخطط لإنشاء تطبيقات سهلة الاستخدام للواقع المعزز (AR)، بدءًا من التطبيقات التي يمكن تجربتها عبر الهواتف المحمولة. على سبيل المثال، قد يتمكن الأشخاص من مراجعة أحد المطاعم عن طريق نشر ملاحظات افتراضية مع اقتراحات بشأن ما يجب طلبه. وعلى رغم ذلك، فإن التقارب بين وسائط التواصل الاجتماعي والواقع المعزز، يمكن أن يؤدي إلى عالم لا يمكن التأشير على النصوص والصور فيه فقط، بل يمكن أيضًا التأشير على الأماكن والأشياء؛ فهذه القطع الغنية بالبيانات، لديها القدرة على تغيير رؤيتنا على نحو عميق في الحاضر والماضي والمستقبل.

عندما قُدِّمت آلات النسخ أول مرة في السِّتينيات، على سبيل المثال، سوَّقت «زيروكس» Xerox الآلات لمديري المكاتب التنفيذية والمديرين التنفيذيين بوصفها بديلا دقيقا وفعالا من حيث التكلفة لتوظيف موظف استقبال – أي جعل العمالة النسائية مدفوعة الأجر زائدة على الحاجة. وفي النهاية، لم تُستبدل آلات النسخ مكان النساء، ولكن أُعيدت هيكلة العمل في المكتب على نحوٍ عميق بطرق كانت، على الأقل في البداية، شديدة التمييز بين الجنسين. انظر:

Kate Eichhorn, Adjusted Margin: Art, Activism, and Xerography in the Late Twentieth Century (Cambridge, MA: MIT Press, 2016).

الفصل الخامس

(1) Danielle Collobert, It Then, trans. Norma Cole (Oakland, CA: O Books, 1989), 9.

(2) The book, Chants de Guerres, was reissued by the French publisher Calligrammes in 1999.

(3) في الولايات المتحدة، رأت المحكمة العليا أنه بسبب حقوق التعديل الأول، لا يمكن معاقبة النشر الصادق لهوية شاب ما. انظر:

Smith v. Daily Mail Publishing Co., 443 U.S. 97, 103 (1979).

(4) في المملكة المتحدة، على سبيل المثال، تصدرت البارونة بيبان كيدرون Beeban Kidron، المخرجة والناشطة البريطانية، إطار العمل المشار إليه باسم: «حقوق5» 5Rights، الذي يدعو إلى وضع خمس قواعد تهدف إلى جعل الإنترنت مساحة أكثر أمانًا وتمكينًا للأطفال والمراهقين. ويتعلق القانون الأول بـ «الحق في الإزالة»: «يجب أن يكون لكل طفل وشاب الحق في تعديل أو حذف كل المحتوى الذي أنشأوه بسهولة». لسوء الحظ، كانت الحملة مصحوبة أيضًا بإحصائيات وحسابات مخيفة بشأن مدى انتشار التنمر السيبراني، ومدى تعرض الأطفال للخطر عبر الإنترنت. وتصر الحملة على أن هذا يرجع

إلى أنه على الرغم من تصوير الشباب باعتبارهم «مواطنين رقميين» digital natives، فإنهم في الواقع «في الدرجات الدنيا من الفهم الرقمي»، ويفتقرون إلى المهارات والمعرفة اللازمة للاستفادة من الفرص الهائلة المعروضة، أو لفهم النتائج المحتملة لتفاعلاتهم الرقمية، أثناء تنقلهم بين فضاءات تكون إما محدودة للغاية وإما «مغلقة»، وأخرى حيث «كل شيء مسموح به».

Baroness Beeban Kidron, 5Rights Report, https:// d1qmdf3vop2l07.cloudfront.net/eggplant-cherry.cloudvent.net/compressed/04cd865a83931874b36510d15f05a08d.pdf.

(5) EU General Data Protection Regulation (GDPR) Article 17, "Right to Erasure ('Right to Be Forgotten')," Intersoft Consulting AG, n.d., https://gdpr-infu/art-17-gdpr/.

(6) على الرغم من ظهور الأطفال أحيانًا في برامج تلفزيون الواقع (غالبًا من دون الحماية نفسها التي يتمتع بها ممثلون آخرون من الأطفال)، فإن أعدادهم تبقى قليلة. وعلى رغم ذلك، فإن تجارب نجوم تلفزيون الواقع التي مر بها الأطفال، تعكس تجارب مشاهير وسائط التواصل الاجتماعي الشباب. في كلتا الحالتين، يبدو أن ظروف التعرُّض تتحايل على قوانين ولوائح العمل المعمول بها المصممة لحماية الفنانين الأطفال.

Adam P. Greenberg, "Reality's Kids: Are Children Who Participate on Reality Television Shows Covered under the Fair Labor Standards Act?" Southern California Law Review 82, no. 3 (2009): 595–648.

(7) danah boyd, It's Complicated: The Social Lives of Networked Teens (New Haven: Yale University Press, 2014), 57.

(8) Jessica Kulynych, "No Playing in the Public Sphere: Democratic Theory and the Exclusion of Children," Social Theory and Practice 27, no. 2 (2001): 231–264.

(9) Sonia Livingstone, John Carr, and Jasmina Byrne, "One in Three: Internet Governance and Children's Rights," Innocenti Discussion Paper no. 201601-, UNICEF Office of Research, Florence, 7, https://www.unicef-irc.org /publications/795-one-in-three-internet-governance-and-childrens-rights.html.

(10) عندما اشترت فيسبوك انستغرام في العام 2012، لم تكن الشركة قد أبلغت عن أي أرباح، ولم يكن لديها سوى ثلاثة عشر موظفًا. إن ما اشترته فيسبوك هي شركة سبق لها أن استحوذت على سوق تقاسم الصور، وكانت تظهر بوادر نمو مستمر. كما كان الشراء ضروريًّا لدى فيسبوك، حيث كانت الشركة تسعى بالفعل إلى التعرف على الوجه بوصفه جزءا أساسيا من استراتيجية أعمالها.

Josh Constine and Kim Mai Cutler, "Facebook Buys Instagram for $1 Billion, Turns Budding Rival into Its Standalone Photo App," TechCrunch, Apr. 9, 2012, https://techcrunch.com/201209/04// facebook-to -acquire-instagram-for-1-billion.

(11) Jodi Dean, Democracy and Other Neoliberal Fantasies: Communicative Capitalism and Left Politics (Durham, NC: Duke University Press,

2009).

(12) Jodi Dean, "Big Data: Accumulations and Enclosure," Theory & Event 19, no. 3 (2016), https://muse.jhu.edu/article/623988.

(13) David Harvey, "The 'New' Imperialism: Accumulation by Dispossession," Socialist Register 40 (2004): 63–87.

(14) Dean, "Big Data."

(15) Simon Nørby, "Why Forget? On the Adaptive Value of Memory Loss," Perspectives on Psychological Science 10, no. 5 (2015): 562.

(16) Dean, "Big Data."

(17) Snapchat Support, "Snapstreaks," https://support.snapchat.com/en-US/a/Snaps-snapstreak.

(18) Mary H. K. Choi, "Like. Flirt. Ghost.: A Journey into the Social Media Lives of Teens," Wired, August 25, 2016, https://www.wired.com/201608//how-teens -use-social-media.

(19) Olivia Solon, "Facebook Says Cambridge Analytica May Have Gained 37m More Users' Data," Guardian, Apr. 4, 2018.

(20) من أجل الحصول على تفسير مفصل عن أعمال تحصيل الديون، انظر:

Jake Halpern, "Paper Boys: Inside the Dark, Labyrinthine, and Extremely Lucrative World of Consumer Debt Collection," New York Times Magazine, Aug. 15, 2014.

(21) كشف «اختبار كابلان الإعدادية» عن أن 29 في المائة من مسؤولي القبول في الكلية قد أجروا بحثًا عبر الإنترنت لمقدم الطلب، وزار 31 في المائة صفحة فيسبوك لمقدم الطلب أو صفحة أخرى على شبكة التواصل الاجتماعي، كما توصل إلى اكتشاف 30 في المائة شيئًا يؤثر سلبًا في فرص قبول مقدم الطلب.

Kaplan Test Prep, "Kaplan Test Prep Survey: More College Admissions Officers Checking Applicants' Digital Trails, But Most Students Unconcerned," news release, Oct. 31, 2013, http://press.kaptest.com/press-releases/kaplan-test -prep-survey-more-college-admissions-officers-checking-applicants-digital -trails-but-most-students-unconcerned.

كما ذكرت شركة «كورنرستون ريبيوتيشن» أن 36 في المائة من مسؤولي القبول بحثوا عن المتقدمين عبر الإنترنت، و67 في المائة بحثوا عن المتقدمين على فيسبوك، و40 في المائة وجدوا محتوى ترك انطباعًا سلبيًا.

Cornerstone Reputation, "The 2016 Cornerstone Reputation Admissions Survey," press release, https://www.prnewswire.com/news-releases/cornerstone-surveyindicaeadying-of-trend-in-college -admissions-officers-reviewing-students-online-300231674.html.

ولكن من الواضح أن شركة «كورنرستون ريبيوتيشن» تستثمر في الترويج لفكرة أن مسؤولي القبول بالجامعات يبحثون في البصمات الرقمية للمتقدمين المحتملين، نظرًا إلى أن ذلك يقع في مصلحة تقديم خدمات إدارة السمعة الرقمية للمتقدمين للكلية.

(22) Hannah Natanson, "Harvard Rescinds Acceptances for At Least

Ten Students for Obscene Memes," Harvard Crimson, June 5, 2017, http://www.thecrimson.com/article/20172021-/5/6/officers-rescinded-memes/.

(23) Katie Davis and Emily C. Weinstein, "Identity Development in a Digital Age: An Eriksonian Perspective," in Identity, Sexuality, and Relationships among Emerging Adults in the Digital Age, ed. Michelle F. Wright (Hershey, PA: IGI Global, 2017), 13.

(24) Viktor Mayer-Schönberger's discussion of "digital abstinence" in Delete: The Virtue of Forgetting in a Digital Age (Princeton: Princeton University Press, 2009), 128–132.

(25) Henry Jenkins, "Empowering Children in the Digital Age: Towards a Radical Media Pedagogy," Radical Teacher no. 50 (Spring 1997): 30–35.

(26) آدسانس AdSense، هو مجرد طريقة من أصل عديد من الطرق لوضع الإعلانات على مواقع التواصل الاجتماعي. وتعتمد الأرباح على كلٍ من مشاهدات الصفحة والنقرات، ويتشارك مالكو الموقع الأرباح مع غوغل. ولكي يفتح شخص أقل من ثمانية عشر عامًا حسابًا في «أدسانس»، ويبدأ في جني الأموال مباشرةً من أحد مواقع التواصل الاجتماعي، ليس فقط يجب أن يوافق أحد الوالدين أو الوصي البالغ على فتح الحساب، بل يجب أيضا أن يكون له موقع وسائط اجتماعية وحساب في «أدسانس»؛ أي لا يمكن للقاصر تحقيق الدخل من دون أن يكون لديه حساب من أحد مواقع التواصل الاجتماعي مع موافقة شخص بالغ. انظر:

Google AdSense eligibility guidelines: https://support.google.com/adsense/answer /9724?hl=en.

الخاتمة

(1) بينما تستخدم بعض الشركات البيانات لتشجيع أبحاثها وتطويرها بشأن الذكاء الاصطناعي والتعلم الآلي، تتخصص شركات أخرى، مثل «أكسيوم» Acxiom و«كوريلوجيك» CoreLogic و«داتالوجيكس» Datalogix و«آي دي أنالتيكس» ID Analytics، في جمع وتحليل وبيع البيانات المتعلقة بأنشطة المستهلك لشركات أخرى.

(2) Erik Erikson, Childhood and Society, 2nd ed. (New York: Norton, 1963), 262.

(3) Nancy Jo Sales, American Girls: Social Media and the Secret Lives of Teenagers (New York: Vintage, 2016), 62.

كيت إيكورن

■ أستاذ مساعد ورئيسة قسم الثقافة والإعلام بالكلية الجديدة The New School بنيويورك.

لها عدة أعمال في مجال الدراسات الإعلامية والثقافية، والأدبية، تناولت من خلالها موضوعات مختلفة، من قبيل الوسائط والذاكرة، والإعلام والتحول الاجتماعي، وممارسات صناعة الإعلام لدى الشباب.

■ من أشهر كتبها الحديثة: «ثقافة الشباب والتاريخ الطويل لوسائل التواصل الاجتماعي»، و«المضمون».

■ كما تُعرف الكاتبة بانتمائها إلى الحركة النسوية، ويظهر ذلك جليا من خلال كتابها «التحول الأرشيفي للنسوية».

أ. عبدالنور خراقي

■ مغربي الجنسية. أستاذ المثاقفة واللسانيات بجامعة محمد الأول بقسم اللغة الإنجليزية.

■ له عدة مؤلفات وكتب مترجمة منها «اللغة والهوية» الصادر عن سلسلة «عالم المعرفة» العدد 342 فبراير 2004، و«الحضارة ومضامينها» العدد 412 أبريل 2014 بالكويت، و«روح الديموقراطية» الصادر عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر بالرياض، و«المواطنة متعددة الثقافات» الصادر عن الجامعة الأمريكية ببغداد.

■ حاز «جائزة المغرب للكتاب» في العام 2015، و«جائزة الملك عبدالله العالمية للترجمة» في العام 2022.

■ اختير كتابه المترجم «المواطنة متعددة الثقافات» ضمن 10 من أصل 148 كتابا مرشحا لنيل «جائزة الشيخ زايد للكتاب» في العام 2022.

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير من العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة:

1 - الدراسات الإنسانية: تاريخ ـ فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية: اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية: الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة.

4 - الدراسات الفنية: علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية: تاريخ العلم وفلسفته، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة من الكتاب بلغته الأصلية كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشره. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ــ المؤلف أو المترجم ــ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألفا دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل ثلاثين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي (وبحد أقصى مقداره ألفان وخمسمائة دينار كويتي).

Withe

رسوم الاشتراك للحصول على النسخة الورقية من الإصدارات الدورية للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

البيان	عالم المعرفة	عالم الفكر	الثقافة العالمية	من المسرح العالمي	إبداعات عالمية
داخل دولة الكويت	15 د.ك.	6 د.ك.	6 د.ك.	5 د.ك.	5 د.ك.
دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية	60 $	25 $	25 $	25 $	25 $
داخل الدول العربية	30 $	15 $	15 $	15 $	15 $
بقية دول العالم	60 $	25 $	30 $	30 $	30 $

- تدفع رسوم الاشتراك من خارج دولة الكويت بالدولار الأمريكي.
- قيمة الاشتراك تشمل أجور الشحن بواسطة البريد الحكومي المسجل.

يمكنكم الاشتراك عبر مسح رمز الاستجابة السريعة التالي:



للاطلاع على كشف وكلاء التوزيع ونقاط البيع التابعة لهم، الرجاء مسح رمز الاستجابة التالي:



Withe

إشعار

للاطـلاع عـلـى قائمــة كتـب السلسـلة انظـر عـدد ديســمبر (كانـون الأول) مــن كل ســنة، حيـث توجد قائمة كاملة بأسماء الكتب المنشورة في السلسلة منذ يناير 1978.

Withe

عددنا المقبل

التفكير الكارثي

الانقراض وقيمة التنوع من داروين إلى الأنثروبوسين

Catastrophic Thinking

Extinction and the Value of Diversity from Darwin to the Anthropocene

تأليف: ديفيد سيبكوسكي David Sepkoski

ترجمة: إيهاب عبدالرحيم علي

يستعير المؤلف مفهوم «التفكير الكارثي» من حقل علم النفس ليسقطه على أحد تصورين للكيفية التي سيحدث بها انقراض جنسنا البشري – إنْ حدث – وهي أن يكون نتيجة كارثة مفاجئة (فلكية أو بيئية أو نووية، أو مزيج سببي بينها)؛ مرجِّحا هذا التصور على نظيره الذي يقول إن الانقراض عملية تدريجية تحدث نتيجة الفشل في التكيف مع البيئة.

يستعرض المؤلف المكتشفات العلمية التي تعزز التصور الكارثي للانقراض، والإنتاج الفكري والفلسفي الذي أثر فيه أو تأثر به، كما يأخذنا في جولة مع الأعمال الفنية الأدبية والسينمائية التي جسَّدته؛ مستدلا بهذا كله على سطوة حضور التفكير الكارثي في الانقراض في المخيال المعاصر.


المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب